



رواية  
أرض المحويين

رستم عبدالله

رواية

أرض المومياة

رستم عبدالله

لست متأكدًا ماذا أنا فاعل؟! ولكن ما أريده حقا هو أن أسافر إلى أماكن، وأن أرى أناسا، أريد أن يكبر وينمو عقلي، أريد أن أعيش حيث تقع أمور هائلة.

فرنسيس سكوت فيتسجيرالد

أديب وروائي أمريكي

اليمنيون القدامى يعتبرون الأفضل عالمياً في التحنيط، حيث تحتل اليمن المرتبة الثالثة بعد مصر وتشيلي، ويعدُّ التحنيط في تلك البلدان الثلاثة من أرقن أنواع التحنيط.

ألن فرومانت

عالم آثار فرنسي ورئيس بعثة أثرية- زارت اليمن عام (2009م)

إنَّ المومياوات المكتشفة في اليمن تعيدُ كتابة التاريخ، فاحتكار ثقافة صنع المومياوات من قبل المصريين قد انتهى.

د. هوارد رد

أستاذ ثقافة المومياوات بجامعة كاليفورنيا -أمريكا - وجامعة يورك - بريطانيا

## الفصل الأول

ذات فجر ربيعي صافٍ، في السادس والعشرين من شهر آذار العام ( 2015م)، شهدت اليمن حرباً أهليةً طاحنةً، أكلت الأخضر واليابس، سحقت الصخر والحجر، وأحرقت الزرع والشجر، وعصفت بالبدور والثمر، ودمرت الطرقات والجسور، وهدمت المنازل، شردت الجميع، وحصدت آلاف الأرواح، وراح ضحيتها مئات الآلاف، وعانى من ويلاتها الجميع، وتجرع الكل مرارتها؛ من شارك فيها، ومن لم يشارك، من أيدها، ومن عارضها، لم تستثن أحدًا إطلاقًا، ولم تدع أحدًا في شأنه، وكأنها تقول لهم: إني الحرب والهيحاء، الوغى والرحى، الويل والهلاك، الضيقة والمأزق، الداهية والواقعة، تجارة البرابرة، ومطمح السماسرة، وكل اسم كره أسقطتموه بظهري، أيها البشر.

لقوة بأسى، وفداحةٍ ضرري، وعظيمٍ شري، وشديدٍ خطري، فلتحفظوا اسمي جيدًا، ولتستوعبوا الدرس، وتدرسوه للأجيال، فليس من السهل أبداً التخلص من نيرانى.

فإخراجي من موقدي، وإسعاركم لي، له ثمنٌ باهظٌ، ستلعنكم أجيالٌ وأجيالٌ، لإيقاظكم لي من سباتي العميق.

ولم تنحصر المعاناة - من لهيب يقظتها وسورة غضبها - على الإنسان فحسب، فالبشر، والحيوان، والطير، والجماد، وحتى الجن الذي وجد نفسه بقدراته الخارقة عاجزًا أمامها، ولم ينفعه تخفيه، وطيرانه في أجواء الفضاء من أن يتقي شرورها، فقد قاسى، وتضرر منها أيما ضرر، ونزح من الهضاب، والشعاب، والجبال القصية، والمنحدرات السحيقة الموحشة التي طالتها القذائف الطائشة التي غطت كل شبر في أرض الوطن النازف، فهرب من بيوته المخفية التي يسكنها في الوهاد، والشعاب والخراب إلى المدن، والقرى، حيث البشر فلجنوا - بادئ الأمر- إلى المنازل التي رحل عنها أصحابها، والبعيدة - نوعاً ما - عن خطر النيران.

انتشرت الأمراض والأوبئة، ونفشت المجاعة في طول البلاد وعرضها، وصار الجن، والناس بحالةٍ يرثى لها، ونفقت الكثير من الحيوانات؛ بسبب نقص المياه والغذاء، فلم تعد تجد في حظائر ملاكها ما تقتات به، ولم تستطع أن تلقى ما تسد به رمقها في براميل القمامة، أوفي مقالب النفايات، أصاب الجرب القطط، والكلاب الضالة، وصارت هي الأخرى في عداد النازحين، وأصبحت الشوارع تغص بها، صار منظرها وهي تمشي بقطعانٍ كبيرةٍ؛ يبعث على الخوف، والرهبة في ظل الجوع الذي يعتصر أمعاءها؛ حتى تساقط وبرها، وتفسخ جلودها، وصارت بحالةٍ مرعبةٍ ومخيفةٍ.

فأجأ ما حل باليمنيين اليمنيين أنفسهم، والأشقاء، والأصدقاء على السواء. كيف انقسم الإخوة؟! وتبخرت الأحلام، وغارت الحكمة، وغيببت في جب عميق مظلم، لا قرار له!

ولى زمن العقلاء - إلى الأبد - وانقسم الأشقاء العرب بين مؤيدٍ ومعارضٍ، مع وضد، متعصبٍ ومتحفظٍ، مترفعٍ ومتحيزٍ، ومتشرفٍ ومستغلٍ!

كنت - كالكثيرين- الذين فاجأتهم الحرب، وداهمتهم، لم أعد أعي ما حصل.  
صدمة مفاجئة شديدة، تلقيتها، ذلك اليوم الكئيب، لم أستوعبها حتى هذه اللحظة! ومع توالي الصعاب، والأحداث الجسام التي تعرضت لها، أجدني - هنا - أجمع نتفاً من تلك الأهوال، وأصيحُ بعضاً مما علق بذاكرتي المشوشة المضطربة من يوميات تلك الحرب الضروس، التي سرقت منا أحلامنا، وآمالنا، ووطننا.  
ولازال أورها مستعرا، وستظل ذكراها الأليمة عالقاً لأجيالٍ عديدة...

حربٌ كان كل الإخوة خاسراً فيها، لم يوجد فيها غالبٌ أو مغلوب! منتصرٌ أو مهزومٌ! عدا ذلك اللاعب الإقليمي الخبيث الذي ظل يغذي أورها، وينفخ في نارها...

هأنذا أسرد أهوال الفاجعة الكبرى، وحرب الفجار دون البحث في أسبابها ومسبباتها، ومن أشعل فتيلها، وغذاها، وأجدني أشعر بصداغ رهيب، يعصف برأسي كل ما تذكرت تلك المأساة الكبرى، ومع هذا أجدني أقاوم، وتتملكني رغبة عارمة؛ لأحكي، وأرغي دون توقف، وأدوّن وأقول...

وسأحكي هنا أعرب، وأفزع ما مر بي، وما حصل لي، ولرفقتي في تلك المغارات الصخرية الأسطورية المنحوتة ببطون تلك الجبال العاتية الباسقة...

#### حضرة الناشر العربي القدير (الأستاذ عبدالشكور القرش)

اسمح لي بأن أقدم لك نفسي: اسمي سعيد غالب، شابٌ يماني، خريج كلية الآداب، جامعة تعز، شعبة تاريخ اليمن القديم، ولم أعد سعيداً كما تمنى لي أبي ذات يوم، بل صار يلونني كل حزن الكون، ويصبغني بالسواد، والكآبة، وبكل المشاعر الداكنة الرمادية، وتخفني غصة قاتلة، وبدخلي غُلب لا يعلمه سوى الله سبحانه، وأعذرني لأنني بدأت بتلك الديباجة عن الحرب قبل أن أعرف بنفسي، فهذه قصتي وقصيتي، وكان يجب أن أبدأها هكذا، ثم أسرد كل ما عايشته، وقرأته، وتتبع جذوره، وما توصلت إليه من حقائق تاريخية، وواقعية، حاضرا وماضيا، وما استنتجته وأدركته، فأنا منذ نعومة أظفاري قد تربيت على كتب مكتبكم العامرة، من القصص، والروايات، والدوريات الموجهة للطفل وللنشء، ونشأت، وترعرعت عليها؛ حتى عندما كبرت ظلت مكتبكم تزودني كشاب بروائع الأدب العالمية، كانت قراءتها متعة لا تضاهيها متعة، ولذة لا تعدلها لذة أخرى غير لذة النوم الهانئ في الساعات الأخيرة لهزيع ليالي الشتاء القارس تحت فرش وثير، وبطانية دافئة ناعمة، ومما زاد تشبثي بكتب داركم وإدماني لها تخصص داركم بنشر سلسلة (روايات واقعية مذهلة) لعشرات الشباب والشابات من الوطن العربي، فأسستم لثقافة أدبية رصينة، وراسخة، وصنعتم جيلاً من الأدباء المتميزين، وكسرتم رتابة المؤلف، وملل الروايات الأدبية التقليدية.

لقد أسستم لمرحلة ما بعد الحداثة، والتجديد، والأجمل في منشورات داركم العامرة الموقرة كونها أعمال أدبية خالصة، تستند لوقائع حقيقية حدثت سواء في قبائل دارفور، أو قعر نهر ليبيا الصناعي العظيم، أو جبال كردستان الغناء، أو غابات الشعباني بتونس، أو إرهابيو الجزائر الغامضين، أو بيوت المدينة العتيقة لمراكش، أو محاربي الأمازيغ الباسلين، أو صاندي التماسيح والأفاعي ببلاد النوبة، أو جزر البحر الأحمر المهجورة، والخيالية، أو

رمال وكتبان موريتانيا المتحركة، أو معابد الأقصر، أو مدينة النمرود العراقية العجيبة، أو مغارة جعيتا بلبنان، أو قرصنة الصومال الغاضبين، أو قصص مهربي البشر الجشعين، أو تجارة الرقيق... وغيرها الكثير والكثير في وطننا العربي الكبير الغني بالجغرافيا المتنوعة، والموروث الثقافي، والفلكلور الشعبي الباذخ، والقصص الواقعية المذهلة المفرمة للعقل، فما زلنا رغم تضعضع الحال أمة تصنع الدهشة، وتثير الإعجاب، وقادرة على التجديد والابتكار، وخلق أسطورة حقيقية ومحكية في زمن التطور والتكنولوجيا والثورة الرقمية، وتقنيات السينما الجبارة، وقصصها المبهرة بالرغم من تاريخها السياسي المشين، ورغم بسط وسائل التواصل، ووسائل المعرفة والسوشال ميديا المتعددة، والعملاقة سيادتها، وشغلها جُلّ عقل الانسان - أتيتم بكتب جديرة بالقراءة، وأعدتم الكثيرين لعالم الكتاب، وصنعت المتعة والدهشة.

أستاذي الفاضل، روايتي هذه لا ادعي أنها الأفضل، أو ترقى لمستوى إبداع كتاب داركم المدهشين والبارعين، أساطين الأدب وملوك السرد، وأمراء الحرف، لكنها على كل حال قد حصلت حقيقة على أرض الواقع، وفيها من الأحداث الحقيقية ما يثير الدهشة، ويحير الدماغ، وسأسردها لكم بتصريفٍ طفيفٍ فقط حسب ما تقتضيه سياق الأحداث، وأنا على يقين من أنها ستثير شهيتكم، وفضولكم، وستجد طريقها (لبليات وتروس) مطبعتكم العريقة الفاخرة، ولولا تلك القوة المغناطيسية التي عطلت موبايلاتنا الحديثة في ذاك الجرف الصخري الشاهق، والغابر في جبال ذُخار والغراس الصخرية العجيبة بتلك الليلة الماحقة، والصاخبة لكان لدينا دليل ملموس لتلك الأحوال التي عايشتها أنا وأصدقائي الميامين .

نعم، في خضم ما العالم وشعبنا اليمني الأسطوري الصابر، والحامد منشغلٌ باستعار تلك الحرب القذرة التي أشعل جذوتها، وأوقد نارها أنانية ساسة البلد، حدثت قصتي هذه على حين غفلة، فبعد أسبوعين من نزوح المر من مدينة تعز، مدينة العلم والثقافة، وعاصمة الرسولين إلى مدينة مأرب عاصمة السبئيين، ومدينة الحضارة والتاريخ، من مدينة الأشراف إلى مدينة الأفيال، من مدينة الورود والمشاعر، والرياحين، وشجرة الغريب المعمرة والباسقة إلى مدينة النفط، والغاز وسد مأرب المهيب، من مدينة الجبال الغناء إلى مدينة الرمال الصفراء، كانت رحلة شاقّة، عانينا فيها الأمرين، وذقنا ألوانا من التعب، والإرهاق، وعناء سفر لا تطاق..

لا أدري! ولا أكاد أصدق كيف خرجنا؟! ونجونا من أنقاض الركام، والدمار المحيط بنا، أنا وأمي وإخوتي كان كل ما شاهدناه هو أمواج من البشر الهادر، تنزح دون أخذ أي متاع، أو أثاث يذكر سوى حقائب شراعية صغيرة، وأكياس حشرت بها بعض الأسمال - على وجلٍ - ما يستر الجسد قادم الأيام القاتمة.

كان منظر الناس في الشوارع وهم يرحلون نحو المجهول، وينزحون طمعاً في أمانٍ مفقودٍ، يبدو وكأنه مظاهرة عارمة حاشدة، كانوا يهرولون نحو محطات الباصات، وفرزات السيارات شعنا غرباً، وحرنا.

كان معظمهم راجلين نظراً لانعدام المشتقات النفطية، قلة كانت تتركب السيارات التي امتلأت عن آخرها بالهاريين من جحيم المعارك، في حين كانت أصوات الانفجارات تدوي حول

الحشد، وتصم الآذان بأصوات مزلزلة ضخمة، يصاحبها ضغط قوي، ينفث هواءً حارًا وساخناً، يكاد يلفح الوجوه بشدة سخونته، ويقتلع الناس من أماكن سيرهم، ويرمي بهم، وكان هدير الطائرات التي تشق عنان السماء هو الآخر لا يتوقف، ويصاحب ذلك الأزيز المخيف عندما تقترب من الأرض وهي تهم بأن تتقيا ما بجوفها من الصواريخ والقذائف؛ فبيعت الخوف، والفرع، والرغبة.

لاحظتُ وجوهاً مرعوبة لنساءٍ وأطفالٍ، حتى الدجاج، هي الأخرى كانت شاخصة، والماشية تجعُرُ برعبٍ، كان يوم قيامةٍ بشري، صنعه المتحاربون وأطراف الصراع - إن جاز لي التعبير- وحاشا وكلا أن ترقى أهوال يوم القيامة التي تجعل الولدان شيبا لما نحن فيه، لكنه تشبيه مجازي ليس إلا؛ لأوضح بشاعة وفظاعة ماجري لتلك المدينة الهادئة الوديعا التي كانت تعرف ذات يوم بذى حاملة، أو العدينة.

معذرةً ذي العدينة حاملة، لا يهم الاسم أو الوصف واللقب، المهم أنها عندي وبنظري ستظل أجمل المدن، وأحلى بقاع الأرض، ستظل لدي تلك الجغرافيا المحرومة المظلومة مقدسة، مدينة عاقها رعاتها منذ أجيالٍ من الزمن، لم تعرف نهضة، ولم تشهد تنمية سوى النزر اليسير- ذر الرماد على العيون - وها هو يتطاير هذا الرماد، وتعصف به رياح الحرب العاتية، لكن مهما تضعض حالها، وطمست ملامحها، وشوه وجهها بالبسم الجميل، سنكل عيونها، وسنجل الأمل يشرق فيها، وسنخيط ندوبها، ونعيد بناءها كما أعاد الروس بناء لينجيراد، وسنغير اسمها إلى باسمه كما غير الروس اسم مدينتهم (لينجيراد) إلى (سان بطرسبورغ)، وكما نهضت عنقاء ناجازاكي، وفينيق هيروشيما ستنهض عنقاء مدينتنا حتما.

إنها تمتلك ديمومتها وبقائها من سر مانها، تربتها، ذرات جبالها، سنبنها لبنة حب، ولبنة سلام، لبنة ثقافة، ولبنة ونام، سنجعلها مدينة كل المحبين للسلام، وعشاق الورود والرياحين، سنجعلها أكبر معرض للزهور والحب، وأكبر ورشة بناء وعمل في العالم، سنمنحها حبنا، وسنحمل كينونتها، وسر سحرها، سنأخذ قدسيتها بعيداً في الشرايين والأوردة، سنزرع بذور تسامحها بقلب كل يماني، وسنحرقن مصل تفردنا وسلامها بوريد ساستنا؛ لتنتقل لهم عدوى وفيرس الحب، والسلام، والتعايش، والقبول بالآخر لتلك العقول الضيقة الأفق؛ لتنتشر المحبة، وتعود مجدداً أرض الحكمة والايمن .

ذُكرني ذلك الموكب البانس بأغنية موكب التحرير، " ألفت القلوب وتوحدنا شمالا وجنوبا" للقديس والفيلسوف الفنان (أيوب طارش) أيقونة اليمن، لا تجد منزلاً في اليمن يخلو من أسطواناته، وأغانيه، و طالما زجل اليمنيون بأغانيه في كل مناسبة، لقد غنى لكل شيء، بدءاً من الثورة، والوحدة، والأرض، والطبيعة، والزرع، والشجر، وانتهاءً بالحب، والعشق، والهيام، رجلٌ يعرف ما يحن له القلب، وما تعشقه الأذن، تحداني ذات يوم صديق بأنه سيأتي بشيء لم يغن له أيوب، فقال لي: أتحداك أن يكون قد غنى أيوبك هذا المغرم به صبابة وجنونا للمدرسة! وفاجأته بأغنيته النادرة (مدرستي)، فصار من يومها باحثاً ودارساً لفن أيوب السامي، والراقي الأصيل، وصار أكثر مني شغفاً، وإماماً ومعرفةً به، لقد أحدث أيوب طارش في حياة اليمنيين سحراً خاصاً، فوحد اليمنيين، وجمعهم بأغانيه التي تمجد الأرض والإنسان، والقيم، والثورة، وتحيي في النفوس الأمل، وتصنع العزيمة، وتشد الهمة...

كان موكبنا عكس ذلك تماما، موكبٌ يثير الشفقة، موكبُ النزوح، "قطعت القلوبا وتفرقتنا شمالا وجنوبا.. وأضعنا في السنا العلم الدروبا..."

هكذا راحت أحرف الأغنية، وأنا حائق شامت من الوضع، كان ضمن موكب النزوح ذلك، حيوانات ارتبط بها أصحابها رباطة حب مقدس، وعدوها كأحد الأبناء - إن لم يكن أكثر- وقد جاهد أصحابها لإنقاذها معهم، وعانوا في سحبها الأمرين، وكان الأطفال والشيوخ يحضنون برفق صغار الماشية، والدجاج الذين يعجزون عن الركض، ومجارات الجمع الواجم المسرع.

كان موقفٌ مؤثرا محزنا وباكيا، يثير الشفقة والحنق، ويترك وخزا موجعا في القلب، كنت أطلع صبيا في الثامنة من عمره، يمشي متعثرا، وقد احتضن دجاجة بيضاء كبيرة، لا يكاد عوده الضعيف والهزيل يقوى على حملها، عرفت فيه انكسار طفل حديث اليتيم بفعل هذه الحرب، وكان كلما تعب ينحني، ويظل مقرصا لثوانٍ معدودة للأرض، لا يكاد يلتقط فيها أنفاسه، ثم ينثني واقفا، ويغذُ المسير.

عرضت عليه المساعدة، ففرح كثيرا، وقد أحس بجبل ينزاح عن كاهله، وكم أحرقت قلبي فرحته الطفولية العفوية تلك! يا الله كم من طفلٍ بريء أوجعته وشيبتته حربكم المجنونة، يا تجار الحروب! ورحت أسأله، وكلي شغف لمعرفة تفاصيلٍ من حياته:

- ما الذي يجبرك على حملها؟ لماذا لم تذبحها وتأكلها أو تأخذها كطعام أنت وجدك؟ فاجأني رده:

- نتخذ بيضها طعاما مع الخبز الحاف الذي لا نجد ما نبلعه معه، ياعم. هكذا رد ببراعة الاطفال، وكأنه يجلد فضولي بهذه الكلمات البنيسة، فضاغف رده من وجعي وحسرتي للطفولة المعذبة والمحرومة في بلدي، فربتُ على كتفه، وانطلق مهرولا، وهو لا يغفل عن مراقبتي متوجسا، وكأنه يخشى أن أفر بدجاجته، وراح يمسك بتلابيب جده الذي كان قوس ظهره ينأى بذاك الحمل الثقيل، الذي كوره داخل شاله الكاكي العريض والعتيق، وعصاه الغليظة تقرع أرض الشارع المتخّم بالفارين من شبح الحرب .. كان عالمٌ بانسا ومتنوغا، يجذف في بحر الشارع العريض والطويل اللامتناهي، كانوا يمشون على غير هدى، و بنشاطٍ غير معهود، صغارا وكبارا، رجالا ونساء، لم أعهدده فيهم قط طول حياتي، أي قوة محرّكة تلك التي انبثقت من أعماقهم؟! وأي قداحة تلك التي أشعلت الأدرينالين في أبدانهم؟! من يحرك أولئك الناس الذين لا يكادون يغادرون منازلهم البتة، ويظلون لساعات وساعات مسمرين أمام التلفاز، وخلف شاشات الموبايل، يهدرون الوقت بمضغ القات، وأمام شاشات التلفاز، وزاد الطين بلة ظهور الواتساب، وباقي وسائل التواصل الاجتماعي، فكل طلباتهم حتى وإن كانت هامة و ثقيلة، يرسلون الأطفال لقضائهم، وإن اضطر أحدهم للذهاب إلى مشوار هام، فهو يذهب بموتوسيكل، ويعود به.

كانوا يشرعون نحو الأمل بأعداد كبيرة، نجحت في دفع قيمة المواصلات، وفازت في الهرب نحو القرى والمحافظات القريبة والبعيدة كـ (إب وصنعاء ومأرب) بحثا عن الأمان لهم، حيث تركوا في مدينتهم الحالمة كل أثاثهم، وملابسهم، وأمالهم، وأحلامهم وكل ما يملكون، تركوا أعمالهم، ومحلاتهم، ووظائفهم، ومنازلهم وعقاراتهم، أشياء هامة كثيرة تركوها في



ذروة القصف، هويات شخصية، عقود زواج، وعقارات، شهادت جامعية، وصورًا تذكارية، عرق كدح وتعب السنين، إجهاد وسهر الليالي، فقط المصاغ والمال الشحيح، وصور النساء التذكارية هو ما أخذوه، ومنهم من نسي أن يأخذ ماله، وامرأة تتحسر على نسيان مصاغها مع حالة الارتباك والخوف السائدة، واشتداد القصف، وغضب المدافع التي صارت تصب حممها العمياء دون تمييز.

كانت هناك أمٌ تنتحب : نسيتُ حليب طفلي الرضيع، وأمٌ أخرى نسيت علاج ابنها المصاب بمرض مزمن، وأخرى نسيت حفاظات طفلها، وشاب يلطم خده أنه نسي هاتفه الشخصي، وكهل يرتعش، نسي حقنة الأنسولين.

هناك من يسير مترنحًا، وبحذر كونه نسي نظارته الطبية، قصص مستوحاة من وجع الحرب وشتاتها.

ظلت الناس تلوكها وأذناي تلتقطانها، ويجتاحني الأسى والحزن الدفين؛ حتى ما عدت أرغب في سماعها أو معرفتها، من أوجاع تلك القصص، وهناك الذين لا يمتلكون النقود الكافية للرحيل القسري، وعادوا مجددا للحارة حيث القصف يشتد، والسماء تمطر حمما فوق الرؤوس من الطائرات، أو تلك التي تلفظها المدافع من الأرض؛ لتصنع وليمة شهية من أشلاء الأبرياء الذين لم يكن أمامهم خيار سوى العودة والبقاء مرغمين في منازلهم.

مع ذلك ونحن محشورون في السيارة، وأنا أفتش عن علبة الماء في كيسي، سرقتُ لنفسي ضحكة صدرت غصبا عني، ضحكتُ من أعماق قلبي المكوم، فعلا شر البلية ما يضحك، عندما وجدت شيئاً هاماً وغاليا دسه أخي الصغير عندما صحت فيه أمرا قبل الرحيل: " أحمل معك أغلى شيء لديك"، أتدرون ما أخذه معه؟ كان كيس من النايلون الأزرق به كرات زجاجية ملونة نسميها (الفتاتير)، وبعض المسامير، وزجاجات عطر فارغة.

انتهيت من نوبة الضحك، ورحت بحالة تفكير جاد وعميق تذكرت ما كتبه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة في القرن الرابع عشر " عندما تنهار الدول يسود الرعب، ويلوذ الناس بالطوائف، تظهر العجائب، وتعم الإشاعة، وتسري الإشاعات عن هروب كبير، ويتدبر المقتدر أمر رحيله، والغني أمر ثروته، ويصبح الكل في حالة تأهب، وانتظار، ويتحول الوضع إلى مشروعات مهاجرين، ويتحول الوطن إلى محطة سفر، والمراتع التي نعيش فيها إلى حقائب، والبيوت إلى ذكريات، والذكريات إلى حكايات"

أي عرافٍ وداهية هذا الابن خلدون؟! كيف تمكن من قراءة طالعنا منذ قرون وتشریح واقعنا؟!

ها أنا أرى رأي العين في هذه الجموع كل حرف خطه في مقدمته المذهلة تلك

(عز الخيول صبولها ولو قلَّ الحسيك) مثل شعبي سائر، هكذا سمعت ربَّ إحدى الأسر ينطقها متحسرا ومنكسرا ومقهورا، ثم ينثني عاندا هو وبناته الثمان، يجرون أذيال الخيبة، والحياء يكللهم والخوف من المجهول المعلوم المصحوب بقذائف الموت ينتظرهم، لكن تلك الخيول لم تلبث أن تصهل بجوعها في بطونهم، بعد أيام من اشتداد المعارك، وحمي الوطيس

وتقطع السبل بهم؛ ليلقي الأب حتفة برصاصة قناص غادر، وتتبادل أطراف النزاع الاتهام في قنص ذلك الرجل، ومن قتله؟ ليترك وراءه مأساة ثماني فتيات بعمر الزهور، يناوشهن قبح الزمان، وغدر الحرب، ناس عزيزي نفس، بفقر مستور، لا يمتلكون إمكانية النزوح، يواجهون الموت الحتمي مقهورون وهم عاجزون عن صده، أو الهرب منه، وهو يتسلل إليهم شيئا فشيئا. شيء مرعب أن تشاهد أعز أصدقائك يسقط أمامك دون أن تعمل له شيء، وتوقن أن القذيفة المارقة بالجو إن أخطأك لاشك ستنال من أحد أحببتك، جيرانك، معارفك، خبط عشواء يسقط، لكنه لا يخطئ أحببتك.

إن أخطأه الآن سيتصيد بعد ساعات، غداً أو بعد غدٍ، طالما آلة الحرب تطحن وتلقي بلهيبها وحممها الغاضبة، في مدينة شحت كل مواردها وانقطع رجاؤها، ولم تعد تجد سوى القذائف سخية، توزع موتها لكل شبر فيها.

حكى لي صديقي تامر في إحدى حالات أعجاز شحن الموبايل النادرة، والذي تركته هناك، وقد عاد مع أسرته أدراجه من فرزة الباصات؛ لعدم قدرتهم وأفراد أسرته العشرة على دفع تكاليف السفر، لقد جلبت الحرب كل الولايات معها من التجزؤ للمدينة، وحدود وليدة لمدينة صغيرة واحدة، وكأنها على أعتاب حدود دول لا مدينة صغيرة هي أهم جميعا، لقد تربوا في كنفها، وأكلوا وشربوا ولعبوا على ظهرها .. لقد احتضنتهم جميعا، وأعطتهم الكثير حتى قوي عودهم واستوى، أولئك الذين شوهوها وعاقوها جميعهم، اغتصبوها وعاشروها حراما كما عاشر أوديب أمه.

لا إعفاء لطرف دون آخر من هذا الجرم بحق أهم الرؤوم تعز، يسترسل تامر انعدمت المواد الغذائية، والمشتقات النفطية والأدوية، علاوة على الارتفاع الجنوني لها، زلزال تسونامي في الأسعار؛ غلاءً فاجراً فاحشاً، رمى بكل القيم عرض الحائط، صار سعر قارورة سعة لتر من البترول يضاهاي سعر قارورة العسل الدوعني الفاخر والشهير- هذا إن وجدت - ندرت تامة صارت لكل ما ينتج الطاقة الضوئية والديناميكية من البنزين حتى الجاز والغاز، انعدمت أسطوانات الغاز المنزلي، واختفت تماما، أصبح أصحاب المركبات يتخطفوها من السوق؛ ليسيروا بها مركباتهم، وكانوا يتعمدون المغالاة في شرائها، وصارت الناس تعتمد على الحطب حتى نضب هو الآخر، فأضحت الناس تكسر دواليبها، ومكتباتها الخشبية، وغرف النوم الوثيرة وتحطب بها؛ لتوقد عليها، وتصنع الخبز والعصيدة لأطفالها وذويها، وانتشرت السرقة للأبواب الخشبية، يحكي جارّ لي وهو يضحك مقهوراً: أنه هو وأطفاله وهم يغضون بنوم عميق؛ استفاقوا ذات صباح وباب شقتهم الخشبية قد خلع، ولا يعرفون أي طريقة جهنمية قام بها اللصوص لنزع الباب بكل هذه الخفة دون إحداث ضوضاء، وضجيج، لقد صنعوا الأزمة باكرا قبل أن تستوي الحرب وتنضج.

وتلهف الناس أيضا على المواد الاستهلاكية، صنع الناس لأنفسهم أزمة قيم، وأزمة مواد غذائية، صار الناس أعداء أنفسهم، ويصنعون معاناتهم بأنفسهم؛ فحصل الاحتكار، وعمّ الغلاء، وحلّ البلاء، واختفت كل سبل الحياة بغمضة عين.

لعل هلع الناس وأنيهم كان أقوى بكثير من دوي المدافع، وقذائف الطائرات؛ حتى أوشكت المجاعة أن تضرب أجزاءً واسعةً من الوطن؛ بل لقد تفشت في مناطق عدة لاسيما تهامة، صار الناس يعتمدون إفراغ مدخراتهم، وشقاء السنين؛ لشراء الطعام الفائض عن حاجتهم؛ ليدخرونه، ويقبلون على شراء أسطوانات الغاز والشمع والبطاريات الجافة، وكل ما يوكل، ويستنار به، وما قدرت عليه أيديهم من سائلٍ، وجافٍ، ويابس تخوفاً من انعدامها، ولأزمة قد تطول.. ولا توضح معالمها..

لقد كانت الأيام الأولى للحرب عسيرة وقاسية، بلغ البؤس أوجه فيها، ورغم أن الحرب في أيامها الأولى، ولم يحل بعد الكم الهائل من الخراب، والدمار المهول الحاصل اليوم، ورغم أن نيران الحرب لم تتوسع بعد، ولم تشعل كل الوطن إلا أنها كانت قاسية ومريرة. فبمقارنة اليوم بتلك الأيام؛ هناك فرق شاسع؛ فالיום على مرارته أفضل حالا من تيك الأيام! فأني وجع أشد من وجعنا هذا!! لنقارن بين ألمين ووجعين لنفضل أحدهم على الآخر!!

لقد تأقلم الناس مع واقعهم صاروا ينظرون إليه كشر لا بد منه، كعدوٍ لدودٍ لا بد من صداقته..

ومن نكد الدنيا على الفتى

أن يرى عدوا ما من صداقته بد

انقطعت أخبار الأهل والأصدقاء الذين تركناهم بحارتنا، وأخواني وأخواتي المتزوجون المنتشرون بأرجاء المدينة، وأقاصيها لم نعد نعلم شيئا عنهم، أو يعلمون عنا شيئا، ولم نكن نعرف ما حل بهم، ولا يعرفون ما حل بنا!!

فانعدام الكهرباء، ومصادر الطاقة جعل شحن الموبايلات شحيا، وغاية في الصعوبة، قلة من كانت تتوفر لديه طاقة شمسية، حيث لم تكن البلاد قد اعتادت على هذا النوع من الطاقة البديل والثمين الذي صار فيما بعد حياة اليمنيين وترفهم وكل مناهم، وارتبط مصيره بمصيرهم، وأصبحت هناك علاقة حب حميمة بين المواطن اليمني والطاقة الشمسية، وعرى صداقة وثيقة، ومتينة لا تنفصم، وأصبح قدره من قدرها.

قلة قليلة من الأثرياء تمكنوا من شراء منظومة الطاقة الشمسية في أوائل أيام الحرب، حيث كانت نادرة وتباع بمحلات محدودة بثمنٍ فاحشٍ جدا، لم نعد نعرف عن تطورات الحرب، وما جرى، وما يحدث شيئا! صرنا معزولين عن العالم تماما .

لا كهرباء، لا موبايلات، لا تلفزيون، لا مذياع، لا صحف!!

بين ليلة وضحاها، وجدنا أنفسنا نعيش عصور الانحطاط، والبدائية - بلمح البصر- وصلناها بغمضة عين، " شعب بحمد الله يزحف للوراء لحف التراب وبالحصير تأزرا" الشاعر الفضول.

ها هي حرب الفجار تأتي؛ لتفضح كل تلك الإنجازات، والمشاريع، والتنمية التي كنا نشاهدها ليل نهار، على شاشات التلفاز، سنينا عديدة، وتعري زيفها على الملأ، ذلك الجبل من المنجزات الذي كان يكبر كل يوم، ونحن نرقبه بفرح، وإعجاب. منذ كنا صغارا، ونحن نعد تلك المنجزات، فاح للمعلن قالب من الثلج في عز الشمس، ساح؛ ليفضح ذاك الشموخ الزائف.

أضحى الخوف على الوطن والحنق مما حل به شغل الناس الشاغل لأول مرة بحياتهم، عرفوا قيمة الوطن الذي كانوا يرونه مجرد مقررات دراسية، تخط للطلاب في المدارس؛ ليحفظوها كنوع من البلاغة والثقافة الوطنية، وتلقى لابد منه ليس إلا. الآن صار الإحساس بالوطن مخيفا، ومهيبا، شيء ما تحرك بداخل القلوب المفزوعة!! يزرع فيهم قيم الانتماء، ينبؤهم أنهم من طينة هذه الأرض، وهم منها، و أن الوطن إذا ضاع وذهب للحرب لن يعود إطلاقا، تماما كالشرف عندما يذهب لن يعود.

سينزلق بهم نحو المجهول، وسيجرهم معه، سيسلك بهم طرقا وعرة وشاقة، سيذهب بهم وبأمنهم، وأمانهم، ومستقبلهم، ومستقبل أولادهم، وأحلامهم، وأموالهم، وكل ممتلكاتهم نحو الضياع، سيسحبهم معه إلى مالا نهائية، وسيهينهم هيئة حبة السيجار عندما تلفظ من الفم وتسحق بالقدم، وسيرميهم هناك في الحضيض و الانحدار في اللياب والفناء، والهلاك، والحيرة، والقلق، والنشأت، والعناء في مدن المنفى داخل وخارج الوطن.

لقد استوعبنا الدرس جميعا، وفهمناه باكراً، ومن أول حصة، وندمنا سريعا ندما يفوق ندم الفرزدق والكسعي، وتمنينا لوكان يجدي فهمنا، لكنه لم يجدي، فقد جاء متأخرا جدا كما تأخر فهم (زين العابدين بن علي) الرئيس التونسي، الذي ظل يتجاهل مطالب شعبه، واحتجاجاتهم الغاضبة؛ حتى داهمه الطوفان البشري الهادر؛ فخرج للملا من قومه عشية مخاطبا إياهم " الآن فهمتكم "، ولكن سبق السيف العذل، وفات وقت الفهم، فبلغ السيل الزبي، وجرف عرشه؛ بسبب تأخر الفهم الذي كلفه الكثير كما كلفنا أيضا.

تمر الأيام متشابهة، رتيبة، قاسية، نفس الأخبار، لا شيء جديد، لم أعد أرغب بسماع شيء، ولم تعد لي رغبة في الحياة، لقد كسرتنا الحرب كسرا، معيبا، موجعا، وأذلت قوما كراما، وأهانت عزيزي نفس، ونالت من شرف ومكاته أساتذة أجلاء، دكاترة جامعة، معلمون أفاضل تخرج على أياديهم الآلاف، بانعدام الرواتب وفرص العيش، فراحوا يشغلون بالأعمال الشاقة، ويفترشون الشوارع بين القيص الشديد ولهبب الشمس الحارقة، يعرضون بضاعة بأزهد الأثمان مقابل القليل؛ ليسد جوعهم، وجوع أطفالهم، ومنهم من باع أثاث منزله، وكل ما يملك؛ لأجل تلك التي تسمى لقمة عيش كريمة، ولم تعد كذلك.

تمنيت لو لم نكن نرحنا، وقعدنا ننتظر الموت بحارتنا مع جيراننا، وأهلنا، وإخواننا، وشاركناهم ليالي الخوف والأسى، ناسنا من قضينا معهم العمر، وأحلى سنينه، إلى أن تنتهي تلك الحرب يوما ما، وستخرس أصوات المدافع وللأبد، وسيختفي عرف البارود، وستفوح رائحة الزهور، وسنستمتع بطقس الربيع البديع الذي أجهضت الحرب مولده باكرا بساعاته الأولى، وحولته من ربيع يبشر بالورود، والحياة إلى خريف يعج بالخراب، والدمار، تساقطت معه خيرة أبناء الوطن، وأجمل معالمه، ومدنه، ومناراته.

حتما ستصبح هذه الحرب البشعة مجرد ذكرى أليمة عشناها، وسنقص للأحفاد كيف واجهناها بشجاعة، وتحدي، ووقفنا ببسالة بوجه الموت، والجوع، والحصار تماما كما كان أجدادنا يحكون لنا عن أيامهم، والجوع، والفقر، والحرمان، والجهل الذي عاشوه، وكيف عانوا سنينا طويلة، حتى مرت تلك السنين العجاف، وابتسمت لهم الأيام، وأتت أعواما فيها

أغيث الناس، وفيها عسروا، وشاهدوا عصر الآلات والمركبات، والأجهزة الكهربائية الحديثة، والقفزة التكنولوجية الهائلة، وعصر الثورة الرقمية، وما لا خطر على بالهم، تتدفق على الوطن، وتحسنت معيشتهم، وظروفهم الاجتماعية والصحية، وعاشوا أيام رغد من أحلى أيامهم حتى شاهدوا أولادهم، وأحفادهم يرتادون أرقى المدارس والجامعات، وصارت منازلهم نظيفة ومرتبّة، تتوفر بها أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا، وكل سبيل الراحة، وصاروا يتحسرون على أيامهم الخوالي، ويذكرون من فارقهم من الأهل، ولم يذق ذاك النعيم، والسلام، والرخاء الذي غرقوا به، ها هو قد طال بهم العمر، وأخذوا يتقلبون في النعيم، ويتمرغون في بحبوحته.

وصلنا مأرب ها أنا أخيرا صرت أحمل لقب (نازح)، ولم يخطر ببالي قط أن أحمل هذا اللقب يوما ما، أنا أو أيّ من أهلي، كنت أظنه بعيدا كل البعد، فقط كنا نعتقد أننا نسمع به في نشرات الأخبار، ويستحيل أن يكون يوما ما رفيقنا ولصيقنا بنا.

كان باستقبالي خالي المهندس خالد الذي يعمل في محطة صافر، استقبلتنا معه أسرته الكريمة بترحاب كبير، وفرح وسرورٍ أزال عنا بعض الكدر، وهون علينا من أحزاننا، وهمنا، كانوا كرماء، آنستنا حفاوة الاستقبال، كل تعب الرحلة الشاقة الطويلة، وحزن ترك الديار، وكل ما نملك، مع هذا كانت تلك الراحة شعور مزيف، سرعان ما تتلاشى، وتغشائي سحب ثقيلة من الأسى.. عندما تصهل الذكريات في عقلي، وتعيدني مرغما؛ لتذكر منزلنا الهادئ والدافئ وقطع الأثاث، أشياءي، كتيبي الثمينة، شهاندي، غرفة أسرارتي، والتي هي بمثابة فلذات أكبادي، رفقتي، جيرانتي الطيبون، حياتي، وتجاريبي، وأشياء خاصة مبهجة، والماضي الجميل، وأظل في حالة شتات.. تجاذب وتنافر، نسيان وتذكر، قهر وتصبر، رضا وتذمر، وأجاهد للنسيان وهياكل الذكرى تأبى راحة بالي، وتظل تنخرني؛ لكنني أعطي حنيني للجدران الصماء، وما ألبث أن أبتلع أوجاعي، وأتجدد، وأعيش واقعي المر، وأتأقلم معه مكرها.

## الفصل الثاني

(2009م) أمريكا، ولاية كاليفورنيا، أخذ الدكتور هوارد ريد - أستاذ ثقافة المومياوات المصرية القديمة في كل من جامعتي كاليفورنيا بأمريكا، ويورك البريطانية - يشرح لطلاب قسم الآثار بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس عن المومياوات الفرعونية القديمة التي تعود لأربعة آلاف عام قبل الميلاد، وعن المواد التي استخدمها المصريون القدماء لحفظ المومياوات المصرية، وقد تملكه الزهو كونه رئيس جمعية الصداقة الأمريكية المصرية لثقافة المومياوات.

وأخذ يكيل المدح للحضارة الفرعونية العريقة، والتي جعلت من مصر صاحبة أكبر مخزون أثري في العالم، وتمتلك ثلث آثار العالم القديم، وراح يتحدث عن سر المومياوات المصرية، وكونه يفخر أنه يترأس كل عام الاجتماع السنوي لتلك الجمعية، والتي تمتلك مكاتب لها بكل من واشنطن والقاهرة، وراح يسرد عن تقنيات التحنيط المصرية القديمة، والمعقدة، وتطرق لسبب تخصصه بهذا العلم (علم المومياوات): إعجابه بطريقة المصريين الفريدة في العالم في التحنيط، وأنه عدا حضارة الأنكا في (تشيلي) لم توجد حضارة أتقنت هذا العلم، وتفوقت على الإنسان المصري القديم المبدع والفنان، ولم يجد هناك من يجاري براعتهم حتى التشيليين القدماء أنفسهم.

وحتى وقتنا الحاضر مازالت الجثث تحفظ بالثلجات الخاصة بالموتى، أو تغمس بمادة الفورمالين في معامل كليات الطب، وعاها لا توجد طريقة حفظ؛ حتى تجربة محاكاة تحنيط الفراعنة الفريدة التي تمت في العام (1994م) والتي يطلق عليها تجربة (موماب1) أو (جون سانتوس) فهي على نجاحها الصعب قد اعتمدت على حفظ الجثة في ثلاجة الموتى أسبوعا قبل بدء التجربة، أي أن العلم الحديث قد تدخل فيها، وهي تجربة تثير الإعجاب حقا حيث قرر حينها عددٌ كبيرٌ من أفضل أطباء علم التشريح بجامعة (ميريلاند) بولاية (بالتيمور) تشريح جثة أحد المجرمين القتلة، ويدعى (جون سانتوس)، وقد أوصى قبل أن يقدم بجثته للجامعة تكفيرا عن جرائم قتل اقترفها، فقد تم تكوين فريق طبي وعلمي رفيع، وتم تجهيز غرفة تشريح بدرجة حرارة تقارب حرارة أرض الفراعنة (الجيزة مصر)، وكذلك تم جلب مواد التحنيط من مصر حتى الملح تم استيراده منها، واستمرت عملية التحنيط تلك التي رصدت لها ميزانية ضخمة، وذلك لها كافة الصعاب (سنة أشهر - نصف عام) بأكمله.

وتأملوا معي جيدا، هذه كانت جثة واحدة، وبالعصر الحديث حيث كل شيء سهل الحصول عليه ومتوفر، تم تحنيطها، واستغرقت نصف عام، وشارك فيها كوكبة من أكفاء الأطباء، والخبراء، والجراحين، وعلماء التشريح والآثار في حين المحنط القديم كان يعمل بمفرده دون كللٍ أو مللٍ، وبمساعدةٍ بسيطٍ، ويحنط مئات الجثث بمفرده، وبمواد وتوابل بسيطة، بفترة زمنية قياسية.

وغير هذه الطريقة في الحفظ توجد طريقة (حفظ الصدفة)، وتكون بسبب الطبيعة كالثلوج التي تسقط على بعض البشر، ويظل مدفوناً لقرون؛ حتى يأتي من يكتشفهم مصادفة، بفعل ذوبان الثلوج، أو أعمال تكسير، ونقل لتلك الثلوج كما هو الحال للرجل الثلجي المكتشف بأحد قمم جبال (الألب) النمساوية الثلجية العام (1991م) ويعود لثلاثة آلاف عام ق.م، أو (إنسان ليندو) الذي عثر عليه عام (1984 م) في أحد المستنقعات بإنجلترا، وتعود جثته للقرن الثالث ق.م، يعني أن الجثث لن تجد وسيلة للحفظ، وهذا يعني أنها لا أمل من الاحتفاظ بها، وأنه في طريقها للتحلل وتصير رميماً.

طرق التحنيط لحفظ الجثث لاسيما للبشر معقدة جداً، فمع تقدم العلم صارت الأجهزة الحديثة هي من تقوم بذلك بكل سهولة، ومع توفر ثلاجات تبريد عالية البرودة، ومواد كيميائية حافظة، وأقفاص زجاجية معدة لذلك، مع مواد معقمة، وأجهزة حفظ تعقيم غرف المتاحف، وتنقي الجو من الهواء الملوث، والرطوبة؛ لحفظ تلك المومياءات بحالة سليمة، أو أي مقتنيات أثرية قد تتأثر من الجو المحيط، وتوجد في المتاحف مع حراسات شديدة، وحرص وحذر شديدين.

بينما تحنيط المومياءات المصرية لم يكن يحتاج لكل تلك المبالغة، والخوف الشديد، فبكل ثقة يحنط الفراعنة جثث موتاهم، ويقبرونها بمدافنهم، فهم واثقون من إبقائهم لهذا العلم، فخلطاتهم السرية السحرية لغزاً احتفظ به المصريون وحدهم.

عقد الدكتور هوارد يديه خلف ظهره، وقام بلفة حول القاعة الدراسية، وعيونه تتفرس في وجوه الطلاب، فلاحظ الإنصات والتركيز على حديثه، وقد شاركه الطلاب إعجابه، وتحيزه للحضارة الفرعونية، فانتفخت أوداجه أكثر، وراح يرغي قرابة الساعتين، ومن ثم استعرض على شاشة البروجيكتور المعلقة جوار السبورة عدداً من الصور، وراحت الشاشة تستعرض مئات الصور لمومياءات مصرية مختلفة الأحجام والأعمار، وعندما أنهى العرض وقف مزهواً مرة أخرى، وقد وضع يديه على خاصرته مردداً:

- طبعا وبلا فخر، فنحن في جمعية الصداقة الأمريكية المصرية لثقافة المومياءات نرحب باستضافة أعضاء جدد منكم، وبإمكان الراغبين منكم التسجيل لدى الطالبة (ليزا) في المستوى الرابع بعد المحاضرة، والآن من لديه سؤال أو أي استفسار فليتفضل بطرحه.

وقفت طالبة شقراء أنيقة، عشرينية، ذات بشرة صهباء، وملابس أنيقة، ذات ثديين بدا ينهدان، وترتدي نظارة طبية مربعة الشكل، لا تقل أناقة عنها، ونطقت:

- دكتور هوارد، شكراً جزيلاً لك؛ لطرحك الجميل والمعلومات القيمة التي طرحتها، ومعذرة اسمح لي بأن أقول لك شيئاً قد يفاجئك، ولا تكاد تصدقه، فأنت مخطئ، إن كنت تظن أن سر المومياءات محصوراً على الفراعنة والتشيليين، فهناك مومياءات بنفس الجودة، والإتقان إن لم يكن أفضل، وإنني أعتقد أنها تكاد تكون أفضل، وإن كنت لا أرغب في التفضيل والمقارنة، فأبدع التحنيط ومهارته العالية تجعلنا نرفع القبعات إجلالاً لكل الحضارات الإنسانية السامية العريقة المبدعة سواء في التحنيط، أو في العمارة، أو في الفنون والعلوم المختلفة؛ لكنني أود أن أوضح لك أن فن التحنيط المذهل، قد وجدته في تلك المومياء الفريدة مكتملة الشكل لامرأة

سبئية قديمة متخذة وضعية الجنين بجامعة صنعاء في اليمن، عندما كنت في رحلة سياحة مع والدي، ومن تحنيط قدماء اليمنيين أنفسهم، وتعود لثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، أو يزيد تعود للحضارة اليمنية السبئية العريقة التي نشأت في سفح مأرب، وكانت عاصمتها صرواح قديما.

كان ما ألقته الطالبة هيلين روث أشبهه بالقبلة جعلت الدكتور هوارد رد يتسمر في مكانه لحظات غير مصدق ما تفوهت به تلك الطالبة الصهباء، فأعاد ضبط نظارته الطبية بعصبية، وأخرج منديلا ورقيا من جيب قميصه السكري الجذاب، وأخذ يجفف به عرقا حقيقيا، ترشح في جبينه المتعطف، وهو يحث الطالبة هيلين روث بإشارة من يده اليمنى الخائرة بالاسترسال، وتوضيح مزيد من المعلومات، وراحت هيلين بأدب جم، وثقة، وغرور مكبوت، وبصوت هادئ، واثق، تلقي كل ما بجعبتها عن زيارتها التاريخية لليمن، وقد تضاعف بأعماقها حب هذا البلد الأصيل، وأهله، واستمرت تصف المدن، والأماكن الأثرية التي زارتها، بل إنها تعهدت بإحضار يوم غد ألجوم الصور الذي يضم بين دفتيه صوراً وذكريات تلك الرحلة الخالدة، ولكن لا يوجد من ضمن تلك الصور صور المومياوات التي تحدثت عنها، وراحت تغوص في بحر الذكريات، وتبحر وتجدف، حتى نطقت:

- شاهدتُ عددًا من المومياوات بمتحف جامعة صنعاء، ولم يلفت نظري سوى تلك المومياوات المتكورة على نفسها التي يقال أنها لسيدة يمنية قديمة من الأشراف، يعود تاريخها لثلاثة آلاف عام، ووجدت في مقابر صخرية بجبال المحويت اليمنية المشهورة، بمقابر المومياوات الصخرية الشهيرة، لقد زرنا والفوج السياحي الذي سعد بتلك الرحلة عددا من المدن التاريخية كـ (شباب كوكبان) ، و(شباب الغراس) و (مأرب) و(صنعاء القديمة).

وزرنا متحفها الوطني الذي يحتوي آلاف القطع الأثرية، وأول ما يستقبل الزائر بتلك الثلاثة التماثيل النحاسية الضخمة ببهوه، والتي تعود لثلاثة من كبار حكام اليمن القديم، والمتقنة الصنع حتى تعتقد أنها لنحاتين وفنانين من عصرنا الحالي، لا يمكن أن تتصور أنها تعود لأكثر من ثلاثة آلاف عام.

قاطعها الدكتور هوارد رد، وقد بدأت اللهفة تزداد على محياه، وعطش واضح يبدو على بلعومه؛ لمعرفة وشرب المزيد من المعلومات عن المومياوات، وأعادها مجددا للحديث عن مومياوات متحف جامعة صنعاء، فردت هيلين روث :

- كانت المومياوات تقبع خلف صناديق زجاجية، منحطة بشكل دقيق، غاية الإتقان، وملفوفة بنوع من الجلد، ومتخذة وضع الجنين، وقد شرحت لنا المرشدة السياحية المرافقة لنا واسمها أفرح أن التحنيط اليمني هو تحنيط يماني خالص، وبمواد حافظة عطرية يمنية، ويختلف البتة عن نظيره المصري الفرعوني.

فالطريقة الفرعونية غير الطريقة اليمنية، وأن كافة الطيوب والمواد التي استخدمها اليمنيون القدماء في التحنيط تعود للبيئة اليمنية، ولم يستخدموا قط أي مواد مستوردة من مصر أو الشام، أو الهند، أو الحبشة، وأن هذه الطريقة الفريدة تميزت وتفرقت بها الحضارة اليمنية السبئية دون سواها، ولم يعثر للحضارات الأوسانية، والقبتانية، والمعينية،



والحميرية، والدويلات اليمنية الأخرى التي قامت أي إشارات أنها أتقنت فن التحنيط، ولم توجد أي إشارات لذلك إطلاقاً أنهم استخدموا علم التحنيط لحفظ موتاهم.

كما أن تلك المرشدة الملمة جيداً بتاريخ بلدها، قد أخبرتنا أن (القرآن الكريم) كتاب العرب السماوي الذي جاء به نبيهم، قد ذكر الحضارة السبئية، وهناك سورة في كتاب المسلمين تسمى (سبأ) باسم الحضارة السبئية التي بلغت شأنًا كبيراً من التقدم، والرقي، والتطور في ذاك الزمن الغابر.

وعند بحثي في محرك البحث جوجل وجدت معلومات مذهشة ومبهرة عن الحضارة السبئية العظيمة، وهناك أسرارٌ لم تكتشف تدعو لمزيد من الإعجاب والفضول، والانبهار بهذه الحضارة، وكثير من العلماء، والباحثين، والمستشرقين الأمريكيين وقعوا في عشق تلك الحضارة، وراحوا يهيمون في صحاري اليمن الجافة والقاحلة، والساحرة بحثاً عما يروي ذلك الظمأ العاطفي والهيام المجنون في أحشائهم (ويندل فيليبس، والبريت، وجلارز).

ارتقى الدكتور هوارد رد على مقعده، وقد ألجمت المفاجأة لسانه، وصدمته فهو الذي يفاخر دوماً بأنه قد طار من الشرق إلى الغرب، ويكاد يجزم ويحلف بأغلظ الأيمان بأنه قد زار كل مكان في العالم يصنع المومياء سواء في أمريكا الجنوبية، أو تشيلي، أو مصر، والصين، وجزر الكناري.

لم يكن يتصور أن اليمن وحضارة سبأ التي نشأت بها أن هذا الجزء الجغرافي من شبه الجزيرة العربية بإمكانه أن يصنع المومياء منذ آلاف السنين، وبشكل غاية في الإتقان، راح يلملم أوراقه، ويستجمع معها قواه التي خارت بفعل محاضرة تلميذته الرصينة، والمقتضية، وبصوت مخدولٍ، ومتشككٍ راح ينطق:

- إن صح ما قلته يا هيلين، فهذا يعني أن هذا يعيد كتابة تاريخ العالم من جديد، ويكسر احتكار الفراعنة لعلم المومياء، وأن الفراعنة لم يعودوا سادة علم التحنيط، وتربعهم على عرش التحنيط لقرون طويلة، وأزمنة جديدة، فقد زال وجاء هناك من ينافسهم، ويسحب البساط من تحت أقدامهم، وهناك منافس قوي هذه المرة أقوى بكثير من المنافس التشيلي الذي لم يصمد طويلاً أمام تقنيات التحنيط الفرعوني، وخرج من قصب السبق، فالساحة التاريخية توشك أن تنحني إجلالاً وتقديراً للحضارة السبئية القادمة من شرفة التاريخ التليد، وهذا سيجعل من اليمن قبلة للزوار، والسياح، والباحثين، والمهتمين، والعلماء، والدارسين، ومحبي التاريخ القديم، وعشاق الأسرار، والتاريخ القديم المشوق، والمذهل من شتى بقاع العالم، وسيضاعف من تلك الأفواج التي تزورها سنوياً فقط هي بحاجة إلى من يساعدهم، ويخرج هذا العلم والفن للنور، ويسهم باستكشاف المزيد من تلك المومياوات، وعمل الدراسات الأثرية لها، وتوثيقها، وتأسيس أكبر متحفٍ طبيعي يضمها، وهذا الشخص وأشار بسبابته اليمنى إلى نفسه باعتدالٍ وثقةٍ جعلها مفرطة هو أنا، وقد عزمت بالقيام برحلة علمية استكشافية لليمن - لأرض البحور، للعربية السعيدة، لأرض المومياوات - شكراً جزيلاً، هيلين روث، فقد وضعتنا على أعتاب مغامرة كبرى، ورحلة مثيرة، وأنا أتحرق شوقاً لها، وقد عيل صبري.

سوف أحزم حقائبي، وأشد الرحال الآن، فأمامنا رحلة علمية قد تطول، وتستغرق أعواما، وقد تتجلى بنجاحنا في العثور على موميאות جديدة سريعا، فأنا أحب البحث من الصفر، ولا أحب البدء من حيث وقف الآخرون؛ لأضمن نتائج جيدة، ودراسات، واستكشافات تقترن باسمي وبيعتي العلمية، وليكون لكم الشرف بدراستها، ومن ثمرات نقاشات وحوار مستواكم هذا.

وراح يقرن طريقة كلامه بمد يده لجيب معطفه، ويخرج موبايله، وراح يضرب الأرقام بتوتر، وعجل، والتحفز واضح على ملامحه، وكان باليد الأخرى يحتضن حقيبته، وأدواته، ونقلت إليه شبكة الهاتف الخلوي رنيئا رتبييا، استمر لثوان قبل أن يسمع صوت محدثه على الطرف الآخر؛ فاحتضن أشياءه تحت إبطه، وأشر للطلاب بكف يده، وغادر القاعة.

راح صوت الدكتورة جوان فيتشر خبيرة صناعة الموميאות المصرية القديمة ودراسة شعر الأسلاف يرحب بالدكتور هوارد رد الذي لم يتواصل معها منذ فترة طويلة؛ بسبب مشاغله العلمية الكثيرة ومحاضراته بأكثر من جامعة، ومعهد بحوث واعتكافه للتأليف أيضا:

- فأى ريح طيبة التي جعلت دكتورنا العزيز يتذكرني؟ ويعطيني دقائق من وقته الثمين؟؟

راح هوارد يعتذر لها بلباقة، وأدب، بكلمات متلعثمة عجلة:

- أنت في القلب والخاطر دوما، عزيزتي جوان؛ لكن كما أسلفت هي المشاغل، ثم استطرد: استمعي جيدا لما سأقوله لك، فلا وقت لدي، وأنا سأسافر غدا، أو بعد بضع ساعات، وربما أقل، وراح يملي على مسامعها كل ما دار قبل لحظات.

وهناك في منزلها الأنيق والجميل في إحدى أشهر ضواحي (كاليفورنيا)، كانت تستمع للدكتور هوارد وحلمه، وخططه للسفر، ولتكوين بعثة علمية لزيارة اليمن، وهي نظن أنه قد أصيب بضرب من الجنون، فلم تسمع طوال حياتها العلمية والمهنية التي قضتها خبيرة صناعة الموميאות المصرية القديمة، ودراسة شعر الإنسان بموميאות يمنية، أو أي موميאות أخرى عدا موميאות مصر، وتشيلي. انتهت مكالمة الدكتور هوارد رد بعد أن أفرغ كل ما بدماغه، ولا زالت الدكتورة فيتشر ممسكة بموبايلها قرب أذنها، وهي متشككة، وغير مصدقة، وقد راح خيالها هي الأخرى يجاري خيال الدكتور هوارد، وراحت تتخيل مومياء يمنية محنطة، متقرضة، بوضعية الجنين، وهي بين مصدق، ومشكك، وإن كان نداء بداخلها يدعوها للانضمام للبعثة العلمية المزمع تجهيزها بوقت زمن قياسي، وإن كانت استقصائية، تمهيدا لتوسيعها حسب ما سيجدونه على أرض الواقع، عند وصولهم لليمن، وسيقررون على ضوء نتائج رحلتهم الأولى، والتي أيضا لم تكن بالسهلة، وقد أخذوا معهم الكثير من الأجهزة، والمعدات، والمواد الكيميائية.

وراح قلبها ينبئها بالإحجام عن هذه المغامرة المثيرة، ويلسعها بأن شيئا ما سيحدث، وأدى ارتباكها لسقوط وانكسار كوب زجاجي كبير من يدها، كان مملوءا بالشوكولاتة الساخن الدبق اللذيذ، المصنوع من أغلى أنواع الكاكاو - كاكاو ماس الغالي الثمن- لتأكيد حدسها وقلقها الخفي الذي يعربد في فؤادها، وكان جزءا كبيرا من حدسها صادقا.

## الفصل الثالث

أخذت طائرة الدرونز الأمريكية من طراز (جلوبال هوك) تسرح وتمرح بحرية في سماء مأرب، وبالرغم من عدم إصدارها لأي أصوات إلا أنّ المواطنين كانوا لها بالمرصاد، وقد تجهزوا لها بموبيلاتهم؛ فراحوا يمطرونها بفلاشاتهم لتصويرها، و كانوا يهتفون بسخطٍ ضد أمريكا، وسياسة القتل العشوائي التي تنتهجها باليمن، وبلدان عربية وإسلامية عدة عبثاً.

هناك من أطلق زخات رصاص، في محاولة يائسة؛ لاصطياد الطائرة القاتلة لكنها ذهبت أدراج الرياح، ودون جدوى، فصغر حجم الطائرة، وسرعتها الصاروخية، ومناوراتها التي يتم التحكم بها عن بعد، جعل منها صعبة المنال، لكن وكأنها مبرمجة للانجذاب نحو مصدر النيران، فسرعان ما لفت وعادت بسرعة البرق الخاطف؛ لتطلق صاروخين أصابا مصدر النيران بدقة متناهية، وتركت تلك السيارة اليابانية الصنع رباعية الدفع، كتلة من الحديد المتفحم، وسط صحراء مأرب الشاسعة، والممتدة إلى ما لانهاية.

بعد نصف ساعة من الحادث كانت القوات الإخبارية العربية هي السبّاقة والأكثر رغياً، حيث تصدّر شريط الأخبار أسفل الشاشة خبر عاجل باللون الأحمر " مصرع عنصرين للقاعدة في غارة أمريكية لطائرة من دون طيار"، بينما أهالي المنطقة لم يكن أمامهم من سبيل سوى النشر على مواقع التواصل، وصبّ جام غضبهم عن أخبار تلك الغارة، وعلى القوات الإخبارية العربية المأفونة التي تبرر لها، وتختلق الأكاذيب دون أن تتأكد.

أيّ لعنة تلك حلت على اليمن؟! فبعد أفغانستان تأتي اليمن على أولويات أمريكا في القصف بالطائرات الأمريكية المسيرة ضد ما تسميهم بجماعات متشددة، ومع هذا فالمواطنون ينفون ذلك تماماً، ويؤكدون أن من يتم استهدافهم مواطنون عاديون لا علاقة لهم بالإرهاب، وقد قامت الطائرات الأمريكية المسيرة خلال السنوات الماضية بارتكاب عددٍ من المجازر بحق الأبرياء في اليمن، بينهم نساءً، وأطفالٌ وحتى هذه اللحظة ترفض حكومة الولايات المتحدة تعويض المتضررين، وتتلاعب بالقضايا المرفوعة ضد وزارة الدفاع الأمريكية أمام المحاكم الأمريكية.

وفي ساعة متأخرة بمقابلة مع قنوات فضائية محلية، نفى المواطنون بشدة أن يكون الشباب اللذان كانا في السيارة إرهابيين؛ بل إنهما كرد فعل طبيعي، حاولا إطلاق النار على الطائرة التي بدأت في التحليق في سماء مأرب، واستفزاز مشاعر السكان، ومع علمهم لما ارتكبه في مرات سابقة من جرائم قتل، وإبادة جماعية بحق عددٍ من الأسر في اليمن، بادراها بإطلاق النار؛ ليلاقيا مصرعهم بفضل فارق السرعة، وإمكانات الطائرة القتالية العالية.

فالشباب كانا يقومان برحلة استجمام، وترفيه في الصحراء، وحملهم للسلاح الكلاشينكوف جرت عليه العادة كجزءٍ من سمات الشخصية اليمنية القبلية، إرثٌ من القيافة في مأرب، وكنوع من أنواع الزينة، والتفاخر، والاعتداد بالنفس، وتعود هذه العادة لآلاف السنين منذ عهد المكاربة، والأقبال.

حيث قديماً كان يحمل المواطن اليمني السيف، والخنجر، ومع ظهور السلاح الآلي صار يحمله؛ ليعزز هيئته، ومكانته في المجتمع، والقبيلة.

وهناك من يقول أن جذورها تمتد إلى الحضارة السبئية على وجه الخصوص، والتي نشأت في كنف هذه المحافظة الغنية بالموروث الحضاري، والفلكلور الشعبي، والآثار، والنفط، واتخذت من صروح عاصمة لها، والشهيرة بمعالمها الأثرية، ومتحفها الوطني، وبعرش بلقيس، وأعمدة بران الستة الشهيرة، وبمصفاة صافر لتكرير النفط.

وثناء هذه المحافظة لا يقاس فقط بمخزونها الثري من الآثار، ولا بكونها محافظة غنية بالنفط، بل يقاس أيضاً بفلكلورها، وعاداتها، وتقاليدها اليمنية الأصيلة التي يجب أن تحترم، ولا تنتهك من قبل الطائرات الأمريكية المعتدية.

مأرب هي حاضرة الدولة السبئية، أشهر حضارة عرفها التاريخ، فكما تمثل رمزاً للقوة الاقتصادية اليمنية، ورمزاً للحضارة، والتراث الانساني العظيم، تمثل رمزاً للموروث الشعبي، والتقاليد اليمنية، والأناقة، والشياكة للزي الشعبي اليمني الذي لا يكتمل إلا بالسلاح المتناسب مع بيئة، وطبيعة المكان، وتضاريسه القبلية الصحراوية، والقبلية الأصيلة.

كان سكان مأرب في حالة غضب، وسخطٍ عارمين جراء الضربة الأمريكية على مدينتهم حيث كانت غالباً ما تباغتهم الطائرات الدرونز، وتضرب في مراتٍ متفاوتةٍ على بعض الأطقم المحلية التي تشق بطن الصحراء، أو تضرب بعض القرى، وتستهدف مشائخ معينين، بتهمة الانتماء لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية.

كل ما يعرفه المواطنون أن مدينتهم لا تأوي أيّاً من رجال التنظيم المذكور، وأن الزج باسمها في قوائم مدن الإرهاب يهدف للمساس بتاريخ مدينتهم، وحضارتهم العظيمة، وهو لا يعد إساءة بحقهم فقط؛ بل إساءة موجهة لكل اليمنيين.

صحيح هناك بعض الاختلالات الأمنية، وحالات فردية شاذة؛ لكنها لا تمثل المدينة، وهذا يحصل حتى في البلدان الأكثر تحضراً، والتي تدعى التطور، وأنها بلدان العالم الأول، فأعمال الاختطاف التي تحصل لبعض السواح، أو لرجال أعمال أو لشخصيات اجتماعية مرموقة بين فينةٍ وأخرى؛ بهدف الضغط على الحكومة بإطلاق سراح معتقلين، أو المطالبة بتوظيف عددٍ من أبناء المنطقة المتخرجين من الجامعات والمطالبة بمشروع تنموي معين، أو المطالبة بما يروه نصيبهم وحصتهم من النفط والغاز المستخرج من منطقتهم، وقد انتهت معظم هذه القضايا بتلبية مطالب المواطنين فيما يخص التنمية، والإفراج عن كثيرٍ من الشباب غير المتورطين بجرائم جسيمة ذات طابع جنائي.

والغريب في الأمر أن المختطفين يعاملون معاملةً كريماً، ويغدقون عليهم بالطعام الطيب، واللحم، والفاكهة، والعسل، والقات، ويبالغون بالاحتراف بهم بشكلٍ لا يصدق، فينالون رعايةً واهتماماً فائقاً، فإكرامهم من الواجب الذي لا يحدون عنه، ويناولون التقدير والاحترام من القبيلة التي تختطفهم، وكأنهم ضيوف شرف قد قدموا عليهم، لم يسحبوا عنوة تحت تهديد السلاح.

وكثيراً ما يعود السياح إلى بلدانهم محملين أيضاً بهدايا شعبية، قيّمة، وذكريات جميلة، طبعت في نفوسهم، ودهاليز قلوبهم، ويقصون هذه القصص على قومهم، ويكتبون عنها المقالات في كبريات الصحف، ويؤلفون الكتب التي تحكي أسرار ومغامرات الاختطاف المثير لاسيما أولئك الذين تعرضوا له فعلاً، لدرجة أن أحد السياح قدم منذ سنوات للسياحة في اليمن، وقصد منطقة مأرب وراح يغري أحد المواطنين بمئات الدولارات لأجل اختطافه، وصنع مغامرة مفتعلة له فما كان من المواطن المستهجن لسلوك السائح إلا أن أبلغ عنه الجهات المختصة.

مع هذا تظل مأرب مدينةً قابلة للنمو، والتطور، ليس التنمية فقط بل في الوعي، والإدراك، فبفضل التطور، والنقلة النوعية، وتنامي عصر التكنولوجيا والمعلومات التي فرضت نوعاً من الثقافة المحكية عبر وسائل التواصل؛ نجد انحساراً لحالات الاختطاف، والتقطع، وضرب الأبراج، وبيع السيارات المسروقة التي تجلب من محافظات عدة، وتباع في مأرب لدرجة أنه كان لها سوقاً لذلك، لاسيما السيارات القوية ذات الدفع الرباعي، والتي تناسب بينتها الصحراوية والجبلية الوعرة.

ويقال أن تلك السيارة التي استهدفتها غارة طائرة الدرونز أيضاً إحدى صفقات العهد الزائل لبيع السيارات المسروقة، التي بيعت بثمن بخس، ويصل لثلث القيمة.

كانت تلك السيارة المستهدفة حسب ما رواه الأهالي، قد خرجت بساعات الصباح الباكر يقودها الشاب العشريني بكّار، وابن عمه كهلان، وقد تجمعت بعد فترة وجيزة من سماع الضربة المدوية للطقم عشرات السيارات من ذات الدفع الرباعي، وسيارة إسعاف مدنية حديثة في تخوم الصحراء الواسعة المترامية الأطراف، وراح الغبار يتصاعد من بين إطارات السيارات، وبشكل أفقي بمحاذاة الطريق الذي سلكته تلك السيارات، لم تكن المنطقة بعيدة، حيث وصلت السيارات بعد نصف ساعة لتلك النقطة المتفحمة التي تجاور ذلك الجبل الصخري القاحل الوحيد الذي نبت وسط بحر الصحراء الصفراء القاحلة.

ويقال أن في جوف ذلك الجبل الصخري الأصم، وتجرحه في المنتصف تجاويف ضيقة مظلمة، وعميقة، تمتد إلى داخله قبوراً تحوي عدداً من المومياوات القديمة؛ لكن صعوبة المنطقة، وخطورتها الشديدة تحول دون التأكد من ذلك الأمر الذي حدى بالسلطات إلى مناقشة ذلك، واستدعاء خبراء آثار مع متسلقين على أن يتم استدعائهم في القريب العاجل لحسم صحة ذلك، حيث تم في محافظة المحويت في بداية الثمانينات، في منطقة جبل النعمان، العثور على عدة مقابر صخرية في جبل مشابه لهذا الجبل، وتضم رفات أكثر من (مائتي) مومياء.

وقد عثر عليها مواطن بالصدفة، تمكن من تسلق جرف صخري، وأحدث ذلك الاكتشاف حينها زلزالاً هز العالم، وأحدث صدئاً كبيراً، وقلب نظرية احتكار مصر لفن التحنيط في الشرق الأدنى رأساً على عقب، وظلت الأوساط العلمية الأثرية والمهتمون حول العالم يتناولون الحدث بالتحليل، والدراسة ردحا من الزمن، ومنهم من لم يطق صبرا، ويمم شطره نحو اليمن، قاصداً مقابر المحويت الصخرية الشهيرة؛ لكن عدم خبرة الحكومة اليمنية،

واكتراثها حينها؛ قَلَّ وأضاع فرصة كبرى لاستثمار ذلك الحدث، والترويج له سياحياً، وتنشيطه، واستثماره بشكل جيد.

عند وصول الأهالي جوار السيارة المحترقة، هالهم ما راوه من تفحم لإحدى الجثث، وبروز الجمجمة والعظم بشكل مخيف من بين شواء اللحم المقزز، في حين كانت رائحة شواء الأدمي تزكم الأنوف، وتصيبهم بالغثيان والتفزز، وعبثاً حاولوا سد أنوفهم إلا أن الرائحة كانت تتطاير بالجو، وتختلط بغبار رمال الصحراء، وتصيبهم بالكحة، والاختناق، وحاولوا البحث عن الجثة الأخرى التي يعتقد أنها لكهلان؛ لكن دون فائدة تذكر، ولم يجدوها، أو يجدوا أدنى أثر إطلاقاً.

كما حاولوا التأكد من وجود كهلان بالاتصال بموبايله الذي كان مغلقاً حيث عدم وجود الجثة يشير إلى تخلفه عن مرافقة بكار في رحلته الصباحية الباكرة؛ لكنه لم يكن له وجود بالمرّة، وأصبح اختفاؤه مصدر حيرة، وقلق، وتوتر في كل المنطقة حتى التواصل مع السفارة الأمريكية بالسعودية عبر مشايخ وقيادات دبلوماسية رفيعة في الخارجية اليمنية المشتتة في الخارج، لعل الأمريكان بعد الغارة قاموا بعملية إنزال واختطاف لكهلان الذي ربما يكون قد نجا من الضربة بطريقة ما، لكن السفارة التي نفت تلك النظرية تماماً سرعان ما زادت الطين بلة، وبعث رجل الاستخبارات في السفارة الأمريكية بالسعودية، لقاداته في (CIA) ببرقية، يشرح فيها هروب صيد ثمين من الغارة الجوية بصحراء مأرب، وأنه يجب تنشيط الصحراء، وتعقب الهدف الضال، والقضاء عليه.

## الفصل الرابع

أشرفت علينا شمسُ مأربٍ كئيبةً، وقاتمةٌ لم نشعر بدفنها، وحرارتها، كانت عقولنا مشوشة مضطربة، ننظر للمستقبل، وقادم الأيام بتوجسٍ، نتحرق شوقاً للديار، نتلهف لمعرفة ما حل بها، هل مازالت؟ أم قصفت؟ هل يا ترى سرقت؟ أم أحرقت؟

نترقب أي خبر يأتيها عنها، كنا في قلقٍ شديدٍ، مصحوباً باليأس، وما نبرح نقرأ دعاء الاستيداع "اللهم إنا نستودعك منازلنا التي تركناها وكل ما نملك فيها ونستودعك أهلاً وأحبة تركناهم خلفنا، منعهم العوز وضيق ذات اليد من الهرب معنا، اللهم يا من لا تضيع ودانعه، يا حافظ الودائع، احفظهم جميعاً من كل شر، ومكروه وسوء"

كانت عيوننا تعانقُ شاشات التلفاز، وتتصفحُ أجهزة الموبايل بحثاً عن بصيص أملٍ يطمنا، وينتشلنا من حالة الترقب، والقلق، والأهول التي تعترينا، من يصدق أن اليمن بلد الإيمان، والحكمة تنزلق قدمها للحرب، وتعز مدينة العز، والمدنية، والسلام هكذا تقصف بعنفٍ، ويصير حالها للدمار.

كيف انحدر الإخوة اليمنيون للاقتتال بعد سنين من التوحد، والذوبان في بعضهم البعض، وترابط أسري، واجتماعي متين، وعلاقات مصاهرة، ومعاشرة قوية؟!!

سنينٌ طويلةٌ مرت لا تذكر مذ أن طوى اليمنيون آخر خلافاتهم، وتشرذمهم، عافوا الفرقة، ولم يقربوها، داهمت الحرب الجميع على غفلة، لم يستوعبوا جيداً، فبالرغم من حالة الفقر، والفساد، والبطالة المستشرية بالبلد منذ سنوات، ورغم انسداد الأفق السياسي في اليمن، والخلافات الحادة بين النخب السياسية إلا أن الحرب كانت بعيدة كل البعد عن أذهانهم، وحتى في أسوأ كوابيسهم، وأخيب توقعاتهم، لم يكونوا يتوقعونها أبداً.

بعد وجبة فطورٍ ساخنةٍ، ودسمة تناولناها، كان المنزل يعجُّ بالأصدقاء، والأهل، والجيران، منهم من يود التعرف علينا، ومنهم من يعرض خدماته لنا، ويشاطرنا الوجد، ويهون علينا ألم الفراق.

لم نكن نحن النازحين الوحيدين، فقد سبقنا نازحون، ورافقتنا، وأتى بعدنا نازحون كثراً، وظلوا يتدفقون طيلة أيامٍ، وشهورٍ، وسنين الحرب والتي حتى كتابة هذه السطور مازالت مشتتةً.

يبدو أن قدر هذا البلد النزوح، وحرباً لا قرار لها، ولا مخرج منها، اليمن الذي استقبلت آلاف النازحين من الصومال، ومن دول القرن الأفريقي، وآوتهم، ورحبت بهم، ها هي اليوم تصير إلى ما صاروا إليه، ومن سخريات القدر، وتقلب الحال أن الرئيس الصومالي الجديد (محمد فرماجو)، راح في أول مشاركة له بالقمة الأفريقية يشكر الشعب اليمني لاستقباله ملايين اللاجئين الصوماليين، على مدى السنوات الماضية، وقال: أرض الصومال ترحب بالأشقاء اليمنيين الذين طالما مدوا أيديهم لنا، واستقبلونا، وأكرموا وفادتنا، واستطرد يقول:

اليمن ليست دولة أفريقية، ولم يكن مشاركا في القمة؛ لكننا لن ننسى مواقفه الإنسانية، فهو من استقبل مليون ونصف المليون لاجئ صومالي، وعجزت عواصم عربية وأفريقية أخرى عن استقبالهم، ستبقى أبواب الصومال مفتوحة لليمنيين، شكرا لليمن، وأعاد الله لحمته، وقوته، وعنفوانه، وعزته، ووحدته، ونجا الله شعبه من دوامة الفوضى، والإقتال.

لا يوجد أحدٌ أحسن من أحد، لعنا عيِّبنا إخواننا الصوماليين، وسخرنا من هروبهم، وتذمرنا منهم عندما لجؤوا إلينا من جحيم الحرب، والمجاعة التي ضربت بلدهم، فعاقبنا الله بهذه الحرب البشعة؛ لنرحم خلقه، ونعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء، ونحن مجرد عارية عليها، نحرثها، ونعمرها، ونساعد خلق الله عليها.

ها نحن كنا منذ سنوات قليلة نشاهد في القنوات الفضائية إخواننا النازحين من السوريين، والعراقيين، والصوماليين، ونرثي لحالهم، ونتألم، ونسأل الله لهم العون، كنا نساغر بالسيارات المريحة المكيفة في الظل، ونشاهدهم على جنبات الطريق يشدون الرحال، شعنا غبرا حفاة، في عز الهاجرة، سلخت جلودهم الشمس، مزق الظمأ حلقهم، تفترت، وتورمت أقدامهم من كثر المشي بأسمالٍ بالية، سلاحهم قربة ماء.

لا أذكر قط سائقًا، أو راكبًا قدّم مساعدة ما لهم، فقط عبارات إشفاق قولٍ دون فعل، ها قد صار هناك من يرثي لحالنا، ويتألم، ويسأل لنا العون، أو ربما لا يأبه، ولعل كثيرين ممن كنا نشاهد مأساة نزوحهم، قد استقر بهم الحال، وصار يترحم علينا. فسبحان الله من تبدل الأحوال من حالٍ لحالٍ!! لم يخطر يوما في بالنا أن أقدار النزوح تحوم حولنا هكذا، وسترميننا بسهامها، وتطاننا يوما ما!!

أغرب وأعجب تقلبات الزمان! يسلب الناس الأمان، ويشردهم في الأوطان، وينقلهم من بحبوحة العيش لضيق الحال في غمضة عين، وما يصبح لدى أخيك في أقصى البلاد يمسي، ويحل لديك ضيفا ثقيلًا غير مرغوب في غمضة عين.

ورغم أن اليمن بلدٌ فقيرٌ، ويتصدر قائمة البلدان الأكثر فقرًا، وفسادًا ورشوة في العالم، تظل اليمن (بلدة طيبة) كما وصفها القرآن الكريم، فأهلها يقتنعون باليسير من سبل العيش، يكدون في طلب الرزق، يشتغلون في شتى الأعمال، جلدون يتحملون أشق الأعمال، تحت أقسى الظروف؛ لأجل أن يأكلوا من عرق يدهم، ولا يعتمدوا على أيٍّ من الأقارب، أو يمدوا أيديهم للناس.

تنهدت بحرقه، لم أعد سعيدٌ الذي كان يحب الدعابة، وأشيغ جواً من المرح، والسرور في كل مجالسي، منذ أن اشتعلت نيران هذه الحرب الضروس، وأنا أنفض غبار الأفكار والظنون عن روحي المعتمة، وأجاهد لأنسى أحداث الساعات العصبية الماضية التي مرت بي، وبأسرتي، وأهلي وجيراني.

صرتُ أتصنعُ ابتساماً مفتعلةً، واستقبل أولئك الشباب الذين حضروا مع ابن خالي القادم من السوق، وبعد طقوس السلام المعتادة، وتبادل كلمات الترحاب، راح محروس، وهو شابٌ بملامح قروية، كان يلبس قميصاً أبيضاً، وحزاماً مذهباً وعريضا، ويمنطق بوسطه جنبية



صيفاني أنيقة، لفت حولها سبحة سوداء، تنتهي بخيوط مجدولة غليظة، وخاطبني بوجه مشرقٍ حسدته عليه: اسمع، يا سعيد أنا مجهزٌ لك رحلةً رائعةً سوف تزيل عنك الضيق، والكد، وستجعلك تتأقلم مع الجو هنا، وتتمنى لو أنك زرت مأرب من زمان، سنأخذك إلى قلب الصحراء المفعمة بالإنارة، والسحر، والمتعة، والجمال، وحيث عبق التاريخ يفوح بقوة.

أخذت السيارة اللاند كروزر تشق رمال الصحراء الناعمة الصفراء، وتخفف وراءها سحباً من الغبار، وكانت الشمس الذهبية التي بدأت تتثائب، وتبزغ في الأفق ترسل قبالتها على وجوهنا، وتزيدنا حيويةً وسعادةً، ونحن نرتدي النظارات الشمسية السوداء العريضة التي تقي قبالتها الساطعة، في حين راح مذياع السيارة ينقل عبر الأثير آيات من الذكر الحكيم للقارئ المرحوم (محمد حسين عامر)؛ فجعل الوجوه تكتسي بالتهيب، والخشوع، والإنصات تعظيماً وتشريفاً للقرآن الكريم، وعندما انتهت التلاوة ارتفعت الحناجر بصوت جماعي عفوي (صدق الله العظيم)، ومن ثم قام هيثم الذي كان يقود السيارة باللعب بكعكة المذياع حتى استقر على ترددٍ معين، وكانت نشرة الطقس الصباحية للبرنامج العام في إذاعة صنعاء التي تبث في هذه الساعة البكرة تتلو على أسماع المستمعين أخبار الطقس والجو، وأسعار الخضروات والفواكه، وبعض السلع الأساسية، استمرت النشرة لربع ساعة، وكانت السيارة هي الأخرى قد وصلت لمحطتها عندما بدأت ترتجف ارتجافها الغير أخيرة، وقد اجتازت منطقة الرمال الصحراوية الناعمة؛ لتدوس فوق أرض صلبة فرشت بصخور، وأحجار مختلفة وحصباء، وكانت تحتل مساحةً واسعةً، وتنتهي بجبل صخري قاحل، نبت وسط الصحراء بشكل مدهش وعجيب، الأمر الذي يصنع انبهاراً ودهشة لا حدود لهما.

كان المنظر يبدو وكأنك تشاهد فيلم كارتون السندباد البحري، وعلى مقربةٍ من ذلك الجبل، كانت تريضُ على مسافةٍ قريبةٍ منه، سيارة تويوتا هايلوكس محترقة تماماً، كانت قد استهدفت بطائرة دورنز أمريكية من دون طيار.

زفرت السيارة اللاند كروزر آخر أنفاسها في هذه الرحلة القصيرة، وتوقفت وترجل هيثم، ونحن منها، وراحت أقدامنا تعانق أرض واحة الصخور تلك، وأنزلنا حصيرة بلاستيكية خضراء مربعة، وكبيرة، اتخذناها سفرة للطعام، وفُرشاً جلسنا عليها، ووزعنا عليها أقراص الفطير، وحافظات طعام بها فاصوليا بدت ساخنة نوعاً ما، وعدداً من أكواب الشاي السفري، ومن ترمس فضي كبير صببنا الشاي الأحمر الساخن اللذيذ المضاف إليه أوراق النعناع الأخضر الطرية، فراحت رائحته تتسلل للأنوف، وتعمل فيها نشاطاً وحيوية غير معهودة، وكان يتطلب شرب الشاي بتلك الأكواب السفري الرقيقة الهشة، والرخوة حرصاً شديداً، وعناية خاصة، وإلا أفسدت جمال الجو، ومذاق الشاي الرائع.

وبعد نصف الساعة، كانت سفرة الطعام قد رُفعت، ونُظف المكان تماماً، وتم الاحتفاظ بمخلفات الطعام بكيسٍ أسود، ألقي في الخانة الخلفية للسيارة، تمهيداً لرميه في مزبلة تقع بطريق عودتنا خارج الصحراء.

ومن ثم ابتدأت ساعة الحسم والذروة؛ لنمتطي صهوة الجبل المنحدر والأصم، والذي يقدر ارتفاعه (60) متراً تقريباً، حيث كان هدفنا الوصول إلى ذلك الجرح بمنصفه الذي يشقُّ

بطن الجبل بشكل عرضي، ويكاد يقسمه لنصفين، والذي هو عبارة عن كهف صخري، وهو بالأساس مقبرة من أجمل وأبدع المقابر الصخرية في اليمن، والعالم أجمع، والتي تدل على عظمة ومكانة الإنسان اليمني القديم، وإبداعه ومدى ما وصل إليه من فن، وتقدم علمي، وتطوره في مجالات النحت والعمارة والتحنيط .

كان طول المغارة (متراً و16سنتمتر)، وعرضها يقدر بمترين تقريبا، في حين لم نستطع تمييز عمقها للداخل بجوف الجبل؛ لبعدها عن مرمى نظرنا.

كان الهدف من هذه الرحلة هو اطلاعي على عدد من قبور الموميאות الأثرية التي تنام في تلك المغارة البديعة التي ستنقلنا من حالة الحزن والصدمة لحالة الانبهار والإعجاب، وسعادة ستزيل كل أوجاعي وأحزاني التي تصبغ كل كياني، وكان رفقتي محقين في ذلك، فمن ذا الذي يطلع على (3000) عام من الحضارة، والإبداع، والإتقان لا يخالجه السرور والبهجة؟! وتمتلئ نفسه بالفخر، والزهو، والتهيه، وينحني إجلالاً، ومهابة لأولئك العباقرة القدماء الذين لايزالون يعلمونا بعد آلاف السنين، ويوحون لنا بالتمسك بالأرض، والوطن، والمحافظة على تلك الأمجاد والعبقرية الفذة، ويمنحونا أسباب البقاء، والصمود، ويمدونا بالعزيمة، والقوة، والحياة.

عاد هيثم ونعيم بسلم حديدي طويل ثقيل، قابل للفتح والمد لمسافات أطول، وراحوا يصعدون به الجبل الصخري، وأعينهم على الكهف؛ حتى تعبوا واستلم مهمة نقل السلم منهم أنا وخالد ؛ حتى وصلنا إلى نقطة يصعب بعدها صعود الجبل حيث كان الجبل بعدها شديد الانحدار، وعبارة عن صخرة صماء وصلدة لا يوجد أي طريق أو سبيل لتسلقه، والذي يمثل نصف الجبل القريب من القمة.. كانت الأعين تدور، وتبحث عن بقعة مناسبة ينصبون عليها السلم الحديدي، حتى اهتدينا أخيرا لمكان ملائم أقصى الزاوية اليمنى للجبل، حيث تمثل الأقرب للمغارة، وتم رفع السلم بعد أن تأكدنا من ثبات قدميه، ورحنا نفك بقية السلم المنثني على نفسه، وندفعه للأعلى، بسلسلة وحذر، وراح يصدر صريرا خفيفا، دام لثوان معدودة، وهمد وانزلق بهدوء للأعلى؛ حتى اعتدلت قامته المستقيمة تماما، واستقر نهايته قرب الفتحة بنصف المتر، وقام هيثم وليبيب بالإمساك به جيدا، في حين راح خالد ابن خالي الأخف وزنا وسرعة من بيننا، يرتقى درج السلم بخفة، وهو ينط تحت ثقله؛ حتى شارف على الوصول، وكان يربط بناصية رأسه كشافا صينيا صغيرا قويا، عبتا حاول الوصول بذراعيه لحافة الكهف، وظل عاجزا حتى اهتدت يداه أخيرا لبعض النتوءات التي أنشبت أصابعه فيها بقوة، ويتشبث بها، وراح يثني عجزه، ويدفعه للأعلى بصعوبة بالغة؛ حتى نجح أخيرا، فقام بتحريير قدميه من السلم، ويداه تتمسك بنتوءات أخرى، ووصل لحافة الكهف، وتمسك بها بكل ما يملك من قوة، ولم يكن بحاجة لاستخدام الكشاف، ووقعت عينيه على مشهد مرعب!!!

مرعب بحق، وراح يرفع عقيرته بالصياح، يا الله!!! فما رآه كان صادما، وموجعا لأقصى حد!

## الفصل الخامس

هرغ الموظف المسؤول عن متحف الآثار بجامعة صنعاء إلى إحدى الغرف في المبنى، والتي تعتبر أهم غرف المتحف العلمي للآثار الذي تأسس عام (1983م)، وكان في بداياته كسكن للطلاب قبل أن يتحول لمتحف بفعل تدفق الكثير من العينات، والقطع الأثرية إليه، ونبوغ طلابه ونجاحهم في المساعدة في الاستكشافات، والتنقيب، واستخراج الكثير من القطع الأثرية.

تم تحويله إلى متحف بالصدفة، وتطور ونما بسرعة الصاروخ بفضل أولئك الطلاب النجباء، وعدد من المواطنين ذوي الحس الوطني الذين جلبوا إليه الكثير من القطع الأثرية الحجرية، والبرونزية، والعملات القديمة، والمعادن، والمخطوطات، والرقوق، والمومياءات التي يتم اكتشافها عن طريق الصدفة، وأرشدوا عن عدة أماكن أثرية؛ ليصبح متحفًا علميًا، وأثرًا محكمًا، ومعتبرًا، لا يقل أهمية وشهرة عن المتاحف الوطنية الأخرى في اليمن.

وقد قام المتحف بدوره على أكمل وجه، رغم شحة الإمكانيات؛ لكن كان لتلك الروح التواقة للكمال والمحبة لليمن، وحضارتها، وارتباطها بماضيها المجيد دورا فاعلا في النجاح الذي حازه المتحف، والذي أنقذ العديد من القطع الأثرية والمومياءات، وحماها من التلف، واللصوص، و التهريب، إلا أن تلك الرائحة النتنة النفادة التي كانت تتصاعد من غرفة المومياءات قد شددت انتباه جواد فني الآثار وأمين مستودع الآثار في متحف الآثار بجامعة صنعاء الذي يقع في حي الزراعة في العاصمة صنعاء، والذي يطلق عليه (قاع اليهود).

كانت الرائحة تنبعث من غرفة المومياءات، وقد اعتقد للوهلة الأولى أنها رائحة لأحد الفئران الذي التهم إحدى الكبسولات السامة الموضوعه بوعاء معدني صغير و المخصصة للفئران التي توضع بأماكن متفرقة بالرغوف، والزوايا، وتحت طاولات العرض التي تنتصب فوقها الصناديق الزجاجية التي تحتوي على المومياءات الأثرية المحنطة منذ آلاف السنين.

قام جواد بعملية فحص دقيقة وشاملة لأرجاء الغرفة الواسعة، وتفاقد أوعية الكبسولات لكن!! لم يجد أدنى أثرٍ لشيء، في حين ظلت الرائحة المقرزة تضوع بشكل قوي، وعرفها النتن يسبح بالجو؛ حتى شعر بالاختناق، وصداع ودوارٍ شديدين يعصفان به، وأحس برغبة عارمة للتقيؤ؛ فسارع يغلق الغرفة، ويغادرها بشكل سريع وجنوني، ميمما شطره نحو المراض، وهناك راح يفرغ ما بجوفه حتى كاد يلفظ بأمعانه، ورغم ذلك لم يتوقف ذلك النبض للعروق برأسه، وظل ينفخ العروق وينفخ حتى تحول لألمٍ شديدٍ، وكأنه ابتلع علبه كاملة من أقراص الفياجرا المهيجة، وأحس بدماعه تكاد تنفجر، وجد قدميه تقودانه للشارع، وألقى بنفسه بأول سيارة أجرة قابلته، وراح يستحث السائق أن يقله بأسرع ما يمكن لأقرب مشفى حكومي حيث لم يكن بمقدوره دفع نفقات تلك التي تدعى جزافا المستشفيات الخاصة، ذات الأسعار الجنونية، والتي صارت تنتشر بشكلٍ مقلقٍ تحف معمارية، غاية الجمال، تفتش مساحاتٍ شاسعة من الأرض، شعرات زائفة رنانة، براقه وخداعة.

مستشفياتٍ مجهزةً بديكورٍ أنيقٍ فاحشٍ، وأثاثٍ فاخرٍ ليس حبا بل تهيئةً نفسيةً، ولتنويم الناس مغناطيسياً، وصنع جوٍّ من الرهبة والإيحاء بتفوق طبيٍّ معدوم، يخفي وراءه غولاً بشعاً، يمتص جيوب البسطاء...

تذكرنا هذه المستشفيات بقصةٍ قديمةٍ، درسناها في الثانوية العامة بمقرر النصوص قصة (ليته لم يعد) للقاص اليمني الراحل (محمد أحمد عبد الولي) عند مقطع " ليته لم يعد، يقولون أنه لا يملك شيئاً، لقد سرق الأطباء كل نقوده" إذن تاريخ الطب الأسود، عادةً متجذرةٌ، ليست من زمننا هذا!!

وصل جواد للمشفى الحكومي، وحالته تتدهور، وقد ساءت تماماً، هرول لقسم الإسعاف دون قطع تذكرة معاينة، وهناك فوجئ بحشد من المرضى من مختلف الفئات، نساء.. شيوخ.. أطفال.. منهم من يجلسون الكراسي.. ومنهم من يفترشون الأرض.. منهم من يبدو عليه سيمات المرض.. ومنهم من يبدو بصحته.. وعبثاً حاول إقناع الممرضة، بأن حالته مستعجلة، تقتضي أن يعرض على الطبيب حالاً، وهي تمانع حتى خائته قدماء، بالأحرى شفعت له؛ فخرَّ مغشياً عليه، وتبرع مريضان بحمله، وإدخاله على الطبيب الذي هب فزعاً، وأشار لهم بسرير فحص شاغر يمددانه عليه.

أفاق جواد بعد نصف ساعة، وفتح جفونه بصعوبةٍ، أحس بوجعٍ في رسغ يده اليمنى، وتنبه إلى أنها موصولة بكنيولة، وقطرات رتيبة، تسري في عروقه من مغذية مشنوقة بشمعدان حديدي صدئ، كان يشعر بصعوبة في التنفس، وجسده يرتجف ويهتز، ويتصبب عرقاً بارداً، وغزيراً، وجسمه شديد السخونة، وتنتابه نوبات سعالٍ جافٍ.

لم يستطع الطبيب أن يعرف أي إجابات عن أعراض المرض، وبدايته، وما إذا تناول شيئاً ملوثاً، فجأة راح جسد جواد ينتفض ويتشنج، فرجح الطبيب المعالج أن الحالة هي خليط من تسمم وحمى شوكية، لم يجد غسيل المعدة لأي نتيجة حسنة حيث استمرت نوبات التشنج التي تجتاح المريض الشبيهة بالصرع، تم نقله بسرير ذي عجلات إلى المختبر لعمل الفحوصات اللازمة حسب توجيهات الطبيب، ومن ثم أخذهُ لغرفة العناية المركزة بقسم رقود الرجال.

بعد ساعة كانت نتيجة الفحص قد ظهرت، أو بالأحرى في طريقها لتعرف عندما كان فني المختبر يفحص قطرات الدم التي خلطها للتو بأحد محاليل المختبر، وما أن وضع عينيه على المجهر الإلكتروني حتى بدأ بؤبؤ العين يتسع دهشةً، وراح يحدث نفسه، ثم صعق تماماً، وهو غير مصدق ما يشاهده:

- يا إلهي!!! ما هذا الذي أراه؟! هل هذا نوع من الخلايا السرطانية!؟!

كانت عدسة المجهر تنقل له نوعاً خبيثاً من الجمرات البكتيرية، راحت تتكاثر وتتكاثر؛ حتى غطت اللوح الزجاجي الذي وضعت به عينة الفحص، وبدأت قطعة الزجاج الصغيرة تلك تتميع، وتتأكل، وتصدر قرقرة عجيبة قبل أن تذوب، وتتحول إلى قطعة لدنة كأنها علكة لبان كبيرة ممضوغة، حاول الاندفاع بكرسيه الصغير الدوار للوراء، والابتعاد وتلافي تلك القطعة الجرثومية الخطيرة التي استمرت في الانتشار، وصارت الطاولة الخشبية تتأكل هي الأخرى،

وكأنه صب عليها حمض الكبريتيك الكاوي, إلا أنه انزلق على الأرض، وارتفعت قدماه في الهواء، وسقط بقوة؛ ليرتطم بالأرض بشدة، ويندفع الكرسي الدائري بفعل السقوط العنيف؛ ليرفس الطاولة بقوة، وتنكسر قناني الدم الموضوعة بحامل بلاستيكي مربع مثقوب بشكل دوائر صغيرة بأرضيته، تتسع لتلك القناني الأسطوانية الدقيقة؛ فتتكسر، فتختلط كل عينات الفحص ببعضها، وتسيح؛ حتى تلك العجينة الموبوءة؛ فتمتزج معها.

لفت صوت الارتطام، وحالة الذعر التي تملكته فني المختبر بعض المرضى الذين كانوا ينتظرون نتائج الفحص في الطارود؛ فأناخ بعضهم برقبته من النافذة المربعة الصغيرة المفتوحة، هالهم المنظر فحاولوا الدخول للمساعدة، لكن الباب كان موصدا من الداخل، فسارع أحدهم لاستدعاء بعض الموظفين، والأطباء في المشفى للمساعدة، ورغم الإصابة البليغة التي ألمت به في ظهره، وقدمه من ذلك السقوط المريع إلا أن الفني تحامل على نفسه، وراح يحكل نحو الباب المغلق، وبيده حزمة أوراق لم ينس أن يختطفها بعجل، وناول حزمة الأوراق من النافذة لأحد الأشخاص، وصاح بهم أمرا إياهم الابتعاد عن المكان، راح فني المختبر يرغي :

- المكان به وباء قاتل، وعدوى مرض، وبكتريا خطيرة، اهربوا...

اندفع الطبيب أحمد - أخصائي أمراض الباطنية في المستشفى الحكومي - الذي كان يعالج حالة جواد أمين المتحف، وهو يشعر أن ما يحدث من جلبة، وضوضاء لها علاقة بحالة مريضه الغامضة.

وعلى إثره تدافع عددٌ من الأطباء والمرضى والمرضى أيضا، وراحوا يتقاطرون نحو المختبر، والذي نجح الفني في أن يفتحه، ويقفز خارجا، ويغلقه بالمفتاح، كان المختبر قد باتت تتصاعد منه تلك الرائحة الخائفة التي تسببت بمرض جواد فني المتحف..

راح فني المختبر الشاحب الوجه وقد وجد الطبيب أحمد أمامه وجها لوجه، يعاتبه: أي شخص ذلك الذي أخذت عينته؟؟ ما هو مرضه؟؟

كان الفني يهذي، ويخبر الطبيب أحمد، وعددا من الكادر الطبي الذي تحلق حوله بكل ما لديه، وراحت حدقات الأطباء تتسع، وهم يستمعون للكارثة التي حلت، وللوباء الخطير الذي يوشك أن يتفشى، ولم يكن ليخطر ببالهم وتصورهم قط أن ما سيحصل أكثر بكثير من مجرد وباء، وأشد خطورة مما يتوقعوه.

## الفصل السادس

فهقه الطبيب خليل الدقم بصوته عاليا، ثم قال وهو يربت على كتف ذلك الفني المختص الشاحب

- بكتيريا و فيروس!! ماذا يا حبيبي؟! لا بد أنك مرهقٌ ومحمومٌ، ومد يده متحسسا بقفا كفه جبهة الفني، وكانت حرارته شديدة، جعلت الضحكة تتلاشى من وجه ذلك الطبيب الجذلان.

تم منح الفني بعض العقاقير المسكنة، وراحة طبية، ومن ثم قامت لاحقا لجنة مختصة في المشفى بفحص المختبر، والتأكد من مدى صحة أقوال ذلك الفني، وشكلت أيضا لجنة موازية للجرد، فلربما أن المختص الفني قد يكون افتعل هذه الحادثة لسرقة بعض المواد، أو الأجهزة؛ لكن اللجنتين لم تعثرا على ما يريب، أو أي دليل يدعم كلام الفني، لقد حصلت عملية تبخر غير طبيعية لتلك المادة البكتيرية وتلاشت بشكل غريب، أو كأنها كانن حي سارع للهرب، والاختفاء، أو أنه جنني خفي!!

وتم تنظيف الفوضى في حين طلب من بعض الحالات التي أريقت عيناتها بعمل عينات أخرى، وتم تسليم المناوبة بدلا عن ذلك الفني لزميلة له، كانت تتسكع في إحدى غرف التمريض، وقد قامت بعملها على أكمل ما يكون، وقطعت شوطا كبيرا في إنجاز بقية الفحوصات، وما تلاها أيضا، وسلمتها خلال وقت قياسي، لعلها كانت تخشى شيئا ما!! وتريد الانتهاء سريعا، والمغادرة.

وقبل أن تهتم بذلك فعلا فوجئت برئيس قسم المختبر بالمشفى بمعية لجنة مرموقة من علية الأطباء، عرفت فيهم مدير عام المستشفى يتفقدون المختبر الذي كان قد أعيد لسيرته الأولى سوى تلك الفتحة البارزة بمنصف المنضدة الناجمة عن حرق مادة كيميائية حادة، وحيوا الممرضة التي كانت نحيفة وقصيرة، شديدة البياض حاسرة الوجه، وترتدي تحت دجلتها البيضاء القصيرة الأنيقة عباية سوداء جديدة و لماعة، واستفسروها عن طبيعة العمل، وهل هناك أية صعوبات؟ فردت بأدبٍ جمٍّ:

- لا، الحمد لله، كل شيء على ما يرام، وقد تم تسليم كافة الفحوصات تقريبا.

ثم راحوا يمطرونها بأسئلتهم عن العينات، وهل لاحظت شيئا، أو تشك بأمر ما؟ ونوهوا عليها بالإبلاغ فورا إذا لاحظت شيئا مريبا أو وجود حمات (فيروسات) أو جراثيم (بكتريا) غامضة، وخطرة بفحص ما، أو فحص لم تعرف كنهه، ولا يوجد له شبيهه، أو غير مدرج بالفرمة التي لديها، وهزت رأسها، وردت بابتسامة جذابة، فانصرفت اللجنة، وفي الطريق صادفت اللجنة أحد الممرضين الذي بدى ممتقع الوجه، وحياهم بإشارة من يده، وهو يخف الخطى نحو المختبر، وكاد كبير الأطباء أن يستوقفه، ويسأله، لولا أنه قبل أن يهتم بذلك أتت عجوزٌ مسنةٌ، تقودها فتاة شابة ناضجة، وتمشيان بصعوبة، وتحدثت العجوز للطبيب الذي انصرف انتباهه عن المريض، الذي مرق سريعا إلى فنية المختبر، ومدت العجوز بورقة

للطبيب؛ ليعفيها من رسوم عملية صغرى قررت لها، ورغم أنه لم يكن بالمبلغ الكبير لكن ظروف الناس، وما آلت إليه البلد بسبب الحرب التي عطلت كل شيء من انعدام للأعمال، والحركة التجارية، وانضمام العديد، وارتصاصه بطابور البطالة جعلتهم في فاقة وعوز فوق لها، ووجه الشابة المرافقة لختمها لدى السكرتيرة بمكتبه، راحت العجوز ترفع كفيها وتدعو بالخير للطبيب، في حين بدت الشابة التي ترافقها، وقد اكتست بسعادة ممزوجة بالخجل..

استلمت الفنية المخبرية ذات الحس الطاعي - المختبئ تحت قصر قامتها - العينة من الممرض الشارد، كانت عينة مريض المتحف، فراحت يداها تعمل بهمة، ونشاطٍ تمزج عينة الدم الشبه متخثر بمحاليل خاصة، فوق قالب زجاجي مستطيل صغير وغلظ، ومن ثم ضبطت القالب تحت عدسة المجهر، ورنّت تحديق بالعينة المسفوحة فوق الشريحة المخبرية، في بادئ الأمر هُييء لها كأن الشريحة قد لسعتها بلذعة كهربائية خفيفة، ظلت لدقيقة تبخلق في العدسة، ومن ثم فغرت فاهها، ولم تصدق عيناها ما شاهدته!! فما رأته لم يكن مجرد عينة، وفحص دم عادي، بل أكثر بكثير من ذلك..

لقد كانت بكتيريا قاتلة وخبیثة، تعود لثلاثة ألف عام قبل الميلاد، ظلت في حالة سبات، ونوم طويلة طوال عقود، وفي حالة موت، أو تجميدٍ شديدة؛ حتى حصل ذاك الانقطاع التام للكهرباء، والذي بدوره عطل أجهزة حفظ الموميوات؛ فانزاحت عن جسمها تلك البرودة التي تبقيها ساكنة من أن تثور، وتهيج، وتنتشر بشكل مخيف.

نهضت من على الكرسي الدوار الدائري، ومدت يدها إلى الهاتف، وراحت تضرب رقم مدير عام المستشفى، ظل الهاتف يرن ويرن دون جدوى... حاولت الاتصال برقم آخر، لكن ما شاهدته للتو أجبرها لإغلاق سماعة الهاتف، والتقطت حقيبتها، وراحت تدس أشياءها فيها، وقبل أن تهتم بالمغادرة، أخذت علبة زجاجية ذات غطاء، وألقته في حقيبتها، في حين كانت عيناها الجميلتان تبخلقان برعبٍ لذاك السائل الدبق الأسود الغليظ الذي يتدفق من العينة، وراح ينتشر بشكل خرافي، ويتكاثر بسرعة غريبة، ويذيب كل ما يقابله!!!

أي نوع من تلك الخلايا التي تتكاثر، وتفوح للعلن!! فحتى الخلايا السرطانية تتكاثر، ولا يمكن تمييزها إلا عبر الفحص المجهرى؛ لكن أن تتكاثر خلايا بهذا الشكل المرعب، وتسيح كأنك دلقت دبة حمض كبريتيك خام على الأرض، وجرت كسيل أعمى؛ لتذيب كل ما يصادف سيلانها.. هذا أمر لا يصدق!!

حاولت الابتعاد والذهاب للباب الذي كان قد سد تماما بذاك النهر المتدفق اللدن، من المادة الغريبة، كانت فكرة الكوليرا التي عبت وسائل الإعلام العقول بها، تففز لعقلها، مع أن علمها وخبرتها يرفض هذا التبرير غير الصائب، لكن الظاهر أن للإعلام تأثيرٌ غريبٌ يطغى حتى على المنطق، ويغيب العقل تماما، ويشوش عليه.. هل هذه حالة كوليرا متطورة؟! أم خلايا سرطانية شديدة التكاثر؟؟! أم أنها نوع من الجمرات الخبيثة التي تستخدمها مخبرات الدول العظمى في حروبها القذرة ضد خصومها من البلدان!!

هكذا راحت تتراص أمامها الاحتمالات، ورائحة ذاك المزيج تكاد تصيبها بالإغماء، وهي تقاوم دوارا بدأ يغزو رأسها، حتى اهتدت لتأخذ كرسيها، وتقذف به بصعوبة بالغة النافذة

الزجاجية الخلفية للمختبر؛ ليسقط في الحديقة الخلفية للمستشفى الخالية من الناس، ويحدث دويًا غير مسموع خيِّب آمالها، فما كان منها إلا أن تسارع لتسحب الكرسي الآخر، وتقربه من النافذة، وتحاول الصعود عليه للهرب والنجاة بنفسها، لكن قصرها حال دون بلوغها النافذة المرتفعة مع اقتراب المادة اللزجة الهلامية من الكرسي...

وراح الكرسي يتآكل بشكل مخيف، ويصدر قرقرة مرعبة، وهو يستعد للالتحام والذوبان في ذلك المستنقع القاتل الذي تشكل وسط المعمل، وراحت آمال المخبرية المسكينة الضائعة في النجاة تتضاءل وتنتكس، ويدها المكلومتان تحاولان دون جدوى أن تتشبثا بطوق النجاة المستحيل، والمتجسد بالنافذة المكسورة دون أي فائدة، وصار السقوط في الوحل البكتيري مسألة ثوانٍ قليلة، لامحالة.



## الفصل السابع

(500.ق.م) شبام سخيم (ما يعرف اليوم بشبام الغراس في مديرية بني حشيش والتي تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة صنعاء وتبعد عنها 25كم)، أخذ أربعة من العبيد الأشداء الذين يتبعون أقيال قبيلة (يرسم السخيمية) يصعدون ذاك المنحدر الشديد الوعورة المؤدي لجبل (ذي مرمر) الذي تنام تحت أقدامه مدينة شبام سخيم، الذي يرتفع (2547) متر عن مستوى سطح البحر، وتغلب على تضاريسه تلال رملية، ومنحدرات متعرجة سحيقة..

كانوا يحملون على أكتافهم القوية نعشاً جنازياً، ترقد فيه جثة أحد أقيال القبيلة المهمين، وكان مصاحباً للموكب الجنائزي عدداً من الأقيال، والأشراف، ورجال الدين الذين كانوا يمشون خلف النعش بخشوع، وتهيب شديد، وقد بدا التأثر واضحا على ملامحهم المرمرية... كان صعود المنحدر صعباً، وشاقاً لولا وجود ذلك الدرب الضيق المرصوف بالحجارة المستطيلة الصلدة بشكل تصاعدي، وكأنها ثعبان ضخمة، عملاق يهيم بصعود الجبل، والذي يمتد فيه الدرب من قاع مدينة شبام سخيم، وينتهي حتى منتصف جبلها الشامخ المنيف...

ظلوا يرتقون الدرج اللولبي، وقد أنهك طولها نشاطهم الذي ابتدؤه، وامتنص كل قواهم؛ فصارت خطواتهم متعبة واهنة، تترجم بوضوح التحول من النشاط للتعب، وكانوا يكتمون أوجاعا مكبوتة بأعماقهم، حتى أزهقوا أخيراً الأمل بعيونهم المتوهجة المعرقة؛ فذبّ النشاط مجدداً بالأقدام المترنحة، وقد شارفوا على الوصول إلى تلك الفجوة التي شقتها أياد ماهرة، وخبيرة ببطن الجبل الصخري القاحل الذي يتميز بصعوبة تسلقه، والوصول إليه بصخوره الصماء التي تكسوه من قمته حتى منتصفه تقريباً..

كان التجويف الصخري بعمق المترين طولاً، وعرض متر ونصف، وقد مدت وسطه قطعة سوداء طويلة من الحجر الجيري بطول المترين وعرض المتر تقريباً، وبسماكة نصف المتر، وتنتهي بنقش على شكل رأس ثور بعينين جاحظتين، وقرون قصيرة، وبجانب الصخرة من ناحية السمك والارتفاع نقش بخط المسند أحرف م.ع.ي.ت.أ.ي.ك.ع.ذ.م(ز) م.ز. أي معبد تألب حصن ذي مرمر..

وكان مفروشا فوق الصخرة نطع مخيط وطويل بمقاساتها، يبدو أنه من جلد الماعز المدبوغ، وأشار إليهم ذلك الطبيب -الدباغ البشري - ذو العينين الباردتين اللتين تثيران الخوف، محنط الموميאות البارعة، بوضع الجثة برفق على العمود الصخري، وتم إنزال الجثة من فوق النعش الخشبي، والتي كانت ملفوفة بقماش كتاني ملون ومصبوغ..

كانت تلك هي جثة أحد أشراف قبيلة (يرسم) ويدعى (بعثتر بن عسب آل) ، كانت له اليد الطولى في القبيلة، وكان ثريا صاحب عدد كبير من الأراضي الزراعية، ومعامل الجص، ومناجم الفضة ذات الجودة العالية، والتي تتميز، وتشتهر بها شبام سخيم، ويتم تصديرها لبلاد الرافدين وأفريقيا...

كانت طقوس الجنازة متواضعة، ولم تكن بالمستوى الذي يلق بحضرة القيل (بعثر بن عسب آل) ، حيث كانت مراسم العزاء والتأبين الحقيقية ستقرر لاحقاً، بعد الانتهاء من عملية تحنيط الجثة، ولفها بلفائف من الكتان المعالج، ومن ثم وضعها متقرفة بطريفة الجنين داخل جلد كبش هو الآخر معالج ومدبوغ بإتقان بالغ... وبعد عملية التعطير والتطيب التي ستهن بها جثة ذاك القيل الهام الذي يبدو من الحاشية المترفة التي رافقته، ومن حالة الحزن والوجوم التي خيمت على القبيلة تدل على تبؤنه مكانة عظيمة كان يحتلها في قلوب أهلها نابعة من الاحترام والحب بعيداً عن طاعة عمياء لسيد، أو تنفيذاً لتعليمات حاكم، حيث كان كريماً لنا مع أهلها قام ببناء عدد من الآبار، وبيوت للضيافة، ولمن سبل الطريق.

كانت عملية التحنيط معقدة للغاية، استغرقت أربعين يوماً كاملة بالتمام والكمال، وعلى مدتها الطويلة التي قد تبدو للمتابع لها، إلا أنها كانت تعتبر طريقة سريعة جداً، ومدهشة مقارنة بطريقة المحنطين الفراعنة التي تستغرق سبعين يوماً... وراح ذلك الدباغ الحاذق يعطي تعليماته لمساعديه الذين راحوا يرصون على مائدة حجرية مستطيلة مجاورة للقلب الحجري عدداً من الأواني، والقناني الحجرية، والخشبية والزجاجية والفخارية تحتوي على عدد من المواد الأساسية التي ستدخل في عملية التحنيط المعقدة، والمبدعة تلك... فراحت تتراس الرتنجات، والجير، والبخور واللبن، والصبار، وشمع النحل، والملح، والقار، والكاسيا، والحناء، الفارعة، الورس، العنبر، زيت الأرز، والصمغ، وحب العرعر، وعرق النخيل، وكميات من البصل الأحمر اليابس، ونشارة خشب، الصدر، القرفة، الخل، العسل، المومية، التوابل، النطرون، قطع خشب، دهن حيواني، شمع، مسك، وشوال كبير حشي به كميات كبيرة من نبات الرء، لفاف من الكتان، ارتدى الدباغ عدداً من واقيات الأصابع تشبه القفاز، ومصنوعة من الجلد، لكنها تختلف عن القفاز أنها تلبس وتكسي الأصابع فقط، وليس كامل الكف، وكل واقي إصبع منفصل عن الآخر، وليست متشابكة، ومن ثم أخذ مبضعا حادا مصنوعاً من الفضة، وأوماً برأسه للمساعدين اللذين راحا يجردان الجثة من كل لفافها، ويضعانها على الجنب الأيمن في حين بقي الجنب الأيسر مواجهاً للمحنط اللبيب؛ فراح يشق البطن من جهتها اليسرى؛ فغاصت السكين الفضية ببسر وسهولة بالجسد اللدن، وكأنها تشق قالباً من الزبدة، ومن ثم راح يمرر السكين على منتصف البطن؛ حتى شكل شبه مستطيل صغير بنقص ضلع، فقام يسلخ الجلد بهدوء وحذر للأعلى، فاندلقت الأمعاء الغليظة والدقيقة، وكرش كبيرة فوق المنضدة، وتصاعدت رائحة طعام متخمّر مصحوب بعفونة لزجة، وراح يشق الكرش هي الأخرى، ويفرغ فضلاتها إلى وعاء نحاسي كبير، وراح يمرص الأمعاء بخفة، وحرافة عاليتين.

استغرق الأمر نصف الساعة حتى نظفهم تماماً.. كل هذا دون نزع الكرش والأمعاء من موضعهم، ومازالا متصلين بالجثة، وراح بخرقه ناعمة ينظف التجويف من الدم واللزوجة، ثم قام يغسلهم بالنطرون ومحلول الملح، وترك الجثة تحت حراسة مساعديه اللذين كانا يهشان الذباب بريش النعام، وغسل يديه وخذل إلى استراحة بسيطة، وتناول قدحاً من مشروب مغلي من أعشاب حالية - على عجلٍ - وعاود العمل مجدداً، مرت سبع ساعات ونيدة، والمحنط يقوم بعمله بصبر ومهارة، وقد انتهى من كل شيء... حتى المخ لم يرق بكسر الأنف وإخراجه كما

يفعل المحنطون الفراعنة، بل قام عبر تبخير خلطة تحنيط سرية عرضها من الأنف إلى المخ؛ لتحفظه من التعفن والدود.

لم تعد تلك المأدبة من الخلطات والحنوط التي تراصت جوار الجثة منذ أربعين يوما موجودة، بل أضيفت لها المزيد منها ومن مواد أخرى، وبلغت بإجمالها الأربعين مادة، و لقد تشكلت، وعجنت، وذابت وانصهرت تماما، واتحدت مع الجثة؛ لتشكل جسدا واحدا، وحنوط شهر وعشرة أيام من التحنيط المبدع الذي اتسم بالدهشة والعبقرية؛ لتصنع مومياء فريدة مذهشة مختصرا سبعين يوما يقضيها التحنيط المصري الذي يتم بطقوس معينة، ويمر بعدة مراحل، وبدورات جسم مادي (خت)، وله معبود إله التحنيط ( أونبيس ) وقلب ويسمى (إيب) طلقة، أفاعلية وتسمى (كا) اسم أو لقب يطلقون عليه(رن)، وظل يلزم الإنسان ويسمى (شو)، وروح خالدة تسمى (با) ونورانية تسمى(آخ)..

أما التحنيط اليميني هو وليد أربعين يوما،، أسبوع للتجفيف، وثلاثة وثلاثون يوما للدباغة؛ لينتج عملية تحنيط باهرة ومعقدة، ويتم حشو تجويف الجسد بنبات الرء كمرحلة نهائية، ثم وضع رقائق الخشب للبقاء على البطن مجوفة، وتم إعادة خياط الشق، ومن ثم دهن الجسد بعسل النحل والطيب والنباتات العطرية، ولفه كاملا ثلاث لفات بقماش الكتان المعالج من أخصص قدميه حتى ناصيته، ويتم إلباسه زوجين من الأحذية الجنائزية، تم طويها فوق بعض، حذاء صغير، ثم يكبس بحذاء جنائزي أكبر منه، ومن ثم وضعه بوضع قرفصاء الجنين، وتكبيسه بجلد كبش مدبوغ، وإخفائه كاملا في الكيس الجلدي دون أن يخيطه عدا رأسه يظل خارج الكيس..

وراح المساعدون ورجال الدين، وبعض مناديب الأقبال، ينظرون بإعجابٍ وزهوٍ وخشوعٍ لجثة قيلهم المحنط، وقد تلالأت عيونهم، واتسعت بانبهارٍ، وتهيب وتصاعد في جنباتهم الاحترام الشديد للدباغ الفنان، وراحوا يثنون عليه بتبجيل وإجلال، ولو كانوا يدركون ما سيلاقونه منه لاحقا في المقبرة الصخرية لزال عنهم هذا الإعجاب، وتحول لمقت وكره، غشيتهم فكرة البعث والخلود، فراحت تنخر ذاكرتهم وتسيطر عليهم، وهم يتخيلون سيدهم المتقرص في الجلد كيف سيبعث وينتصب كمارد عملاق، ممزقا تلك اللفائف والجلد؛ ليعود بعد فترة من الزمن من جديد للحياة ولـ (شعب سمعي ثلث ذو هجرم) لقب بني سخيم السياسي..

كانت مرحلة التحنيط السبئية تلك مبدعة ومعقدة، لكن المرحلة الأصعب والتي جرى جزء منها بسرية خلال الأيام الماضية حيث قام ثلاثة من أمهر البنانيين والنحاتين السخيميين بالعمل منذ مدة، ومنذ أن اشتدت وطأة مرض القيل (بعثر بن عسب أل) قاموا بالنحت ليلا بسرية تامة على أضواء المشاعل تلك المقبرة الصخرية العجيبة والرائعة بأسفل قمة جبل ذي مرمم بذلك المنحدر الشديد..

فقاموا بعمل كوتين للدفن كوة لتمويه أي لصوص قد ينجحوا للوصول للمقبرة الصخرية، وأخرى مخصصة لدفن القيل كما حرصوا حسب وصية القيل أن تكون بعدة كوات مستطيلة عدد السبع تشمل أفراد عائلة القيل كلهم الذين سيموتون مستقبلا، كانت تلك المقبرتان

الصخريتان الحقيقة والمزيفة تحفا معمارية غاية الجمال بحق، تعكس مدى الإيمان العميق بعقيدة البعث والخلود، والاهتمام بهذه المقابر وروبقها، وأيضاً مستوى البراعة الذي تميز به أولئك البنائون الذين لا يقلون إبداعاً عن ذلك المحنط الكهل..

تم إحضار الأثاث الجنائزي للمتوفي، والذي تكون من خنجره وحرسته، وعدد من القطع النقدية، والأواني التي تمت بها عملية التحنيط، وقطعة خشب معلقة بحبل من طرفيها كتب عليها اسم المتوفي، وتم وضع الكيس الذي به الجثة بمحملة من العزف القوي، وبها حبلان لبسهام الحمال بعد أن أدخل كتفيه الممتلئين، وصعد بخفة، وكأنه متمرس على هذا العمل، وراح يتسلق السقالة البدائية والمتمينة تلك بخفة؛ حتى وصل لفتحة تلك المقبرة الصخرية التي تبعد عن غرفة التحنيط مسافة بسيطة، لكنها وعرة للغاية، وكانت فتحة بارتفاع متر غير منتظمة، وبعرض نصف المتر، وتفضي لغرفة فسيحة غاية الجمال بأرضية ملساء نظيفة، وعدد سبع من الكوات المستطيلة المصقولة، وقد شُذب السقف برسوم هندسية بدیعة، نُقرت بإزميل من الحديد الثقيل، وكان واضحاً آثار السخام الأسود المتصاعد من المشاعل الذي انطبَع بسقف المقبرة...

كان دفن الجثة يتم على ضوء المشاعل ليلا بعد أن تخلد المدينة للنوم، ويتم إحاطة الدفن بسرية تامة، فلا يحضر إلا أناسٌ على درجة عالية من الثقة، لم يكن متواجد غير الدباغ، ومندوبين عن القصر الملكي، والكاهن، وبناء واحد فقط، وذلك الحمال، واثنان من حملة المشاعل، وحارسان بقيا أسفل السقالة الباسقة، بينما كانت ستتم في المعبد طقوس التأبين، والاحتفال بالتحنيط، ونجاح الخلود للجثة بحفل بهيج يحضره كافة أهالي شبام سخيم ومسؤوليها...

وبغته.. هبت رياح عاتية، كادت تطفي المشاعل، لولا لودُ حملتها لعمق المقبرة للاتقاء من حفيفها، ومع هذا ظلت تعوي بصوتٍ مخيفٍ، وينعكس صداها بأعماق المغارة؛ حتى هبئ لهم أنها ليست للرياح، وكأنها صرخات جن تهب من عتمة المغارة، فاجأهم الدباغ حين أخرج من جرابه قطا سميئا أطلق سراحه؛ ليتمشى في أرضية المقبرة، وكان يبدو بصحة جيدة، وكان هادئا لا يصدر أي مواء، واستغربوا من إطلاق سراحه هكذا؛ ليتمطي ويسير بكسلٍ في أرجاء المقبرة المقدسة، وأخرج أيضا عدوه اللدود من كيس آخر، فأر ضخم، شبه ميت، أسود اللون؛ فزاد من ذهولهم هذا التضاد، وأخرج عددًا من القناني الزجاجية، تحوي سموم ثعابين، وسم الشكوران النباتي الزعاف، وقد برق شبنم عينيه بخبثٍ ومكرٍ، جعل الرعب والخوف يدب في قلوبهم، ويتوجسون خيفة، وكان هاجسهم في محله.

## الفصل الثامن

في الأول من تشرين الثاني (2009م) وصلت أولى طلائع بعثة هوارد رد الأثرية العلمية لليمن، وكانت مكونة من شخصين فقط؛ هما الدكتور هوارد رد والدكتورة جوان فيتشر، بعد أن أخطرا من قبل السفارة اليمنية بواشنطن بأن طلبهم المقدم لوزارة الثقافة والآثار قد حُضي بالموافقة، وسيتم اعتماده بمجرد أن تطأ أقدامهم العاصمة صنعاء، وسيتم تكليف فريقٍ مجهزٍ من الاختصاصيين اليمنيين لمرافقتهم، ومساعدتهم في مهمتهم، أخذاً تأشيرات السفر لليمن من السفارة اليمنية بواشنطن، وطارا صبيحة اليوم التالي عبر طيران أميركان أورليانز، من مطار لوس أنجلوس في كاليفورنيا إلى اليمن مباشرة، وفي الطائرة التي اكتظت بعشرات المسافرين من عدة جنسيات مختلطة، أمريكيين، أوروبيين، هنود، عرب، يمنيين، كانا يتفرسان في وجوه المسافرين، ويتفحصان الوجوه بحثاً عن مسافرين يمنيين لإلقاء بعض الأسئلة عليهم، وإرواء عطشهم، ومعرفة بعض الأمور بشكلٍ مقتضبٍ عن مومياء اليمن، خصوصاً أن البحث بمحرك البحث جوجل وفي المراجع لم يساعدهم بأي شيء.

لم تكن سوى إشارات مقتضبة للعام (1983م) الذي وجدت به مقابر صخرية في المحويت، وإيداعها متحف جامعة صنعاء، ولم يجدوا أي دراسات علمية منهجة وتفصيلٍ يشرح الكثير عنها، فقط خبرٌ كمادة إعلامية، يفيد العثور على المومياء.

كانا قد حددا ملامح ثلاثة أو أربعة رجال، وامرأة من زبيهم الشعبي، وسحتهم يبدون يمنيين، لكنهم كانوا في زاوية قصية، تبعد عنهم كثيراً، وقررا بعد تشاورٍ ونقاشٍ مقتضبٍ في محطة الترانزيت القادمة أن يتعرفا بهم، ويدخلا معهم في نقاشٍ عما يدور ببالهم..

ظلت الطائرة تمخر أجواء الفضاء، وراحت تهدد الركاب؛ حتى غرق معظمهم في نوم عميق، رد الدكتور هوارد رد قناع النوم على وجهه، وماهي إلا لحظات حتى راح يغط في نوم عميقٍ وهائى.. في حين كانت الدكتورة جوان فيتشر تتصفحُ العدد الصباحي من صحيفة نيويورك تايمز، فبدأ النعاسُ يداعبُ جفنيها، حيث انتقلت لها عدوى النوم التي استشرت في الطائرة؛ فما كان منها إلا أن وضعت هي الأخرى قناع النوم على عينيها، واستسلمت للنوم بسرعةٍ..

ظلت الطائرة تطير، والركاب غارقون في النوم؛ فراحت المضيفات يطمئن على حالة الركاب، ثم ولجن إلى غرفة المضيفات، في الطائرة؛ لإعداد وجبة الطيران الرئيسية الرمزية، التي تقدم للركاب في منتصف الرحلة، بعد أن يكون الجوع قد بدأ ينهش في الركاب، لاسيما بعد الاستيقاظ من غفوتهم الإجبارية بفعل جو الطائرة واهتزازاتها التي بدت كمهدٍ طفلٍ كبيرٍ، يحوي بجوفه عشرات الأطفال.

كانت الدكتورة جوان فيتشر أسرع استيقاظا من الدكتور هوارد رد، وعندما كانت تهم بنزع غطاء النوم الخاص بالعينين، الواقى من الضوء، كانت ابتسامة المضيئة الأمريكية الحسنة هي أول ما طالعتها؛ فراحت تتثنى اللوح البلاستيكي المثبت بالمقعد الذي يقابلها، وأخذت تنقل من على الطاولة المتحركة التي تنقلها ما لذ وطاب من الأطعمة الخفيفة، والوجبات السريعة الأمريكية، وعلب ماء، ومشروب كوكاكولا الغازي..

انتبه الدكتور هوارد على صوت الحديث الدائر بين الدكتورة جوان والمضيئة، وتهللت أساريره، وهو يرى الطعام أمامه؛ فشكر المضيئة بإيماءة بسيطة، وردت بانحناءة لطيفة، وانتقلت للمقعد التالي، أشعل توزيع وجبات الطعام النشاط مجددا في الطائرة، وبدد رائحة النوم التي كانت تسبح في دهليز الطائرة الضيق، وراحت أصوات مضغ الطعام ترتفع، بالرغم من مجاهدة أصحابها لكتمانها، كانت ساعة مفرحة وبهجة بالذات مع دسم الوجبة الخفيفة تلك، وأناقته التي تفتح شهية أكثر الناس تخمة وشبعاً..

أنهى الدكتور هوارد رد طعامه، وراح يرتشف مشروب الكوكاكولا الغازي البارد بتلذذ، وقد بدا عليه الانتعاش، وراح يفكر في الخطوات القادمة، وكيف سيقضيها وأخرج من جيبه مفكرة وقلم، وراح يدون بعض الملاحظات، واشترأت عنق الدكتورة فيتشر، التي لم تنته من طعامها بعد - كسائر النساء يقضين وقتاً طويلاً أطول من الرجال في تناول ومضغ الطعام - ولاحظت أنه يقوم بتدوين بعض الأسماء لكيميائيين وعلماء أمريكيين، وإنجليز مشهورين؛ لطلبهم عند الحاجة، وحتى لا يضيع وقتاً في الاختيار والتفكير، وكانت لديه خطة مستقبلية؛ لتوسيع البعثة حسب ما سيلحظانه، ويجدانه على أرض الواقع.

بعد خمس عشرة ساعة، واثنان وعشرون دقيقة، من التحليق المرهق، تجاوزت (16280) كم من طيران (أمريكان أورليانز) بدأت من مطار لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا، حتى استقرت بالعاصمة صنعاء، وتخللتها عدة محطات ترانزيت، كانت الطائرة تهبط بسلام، على مدرج مطار العاصمة صنعاء الدولي.. وماهي إلا دقائق، حتى أقل باص المطار الركاب، من المدرج إلى صالة الوصول، وكان في استقبالهما مندوب من وزارة الثقافة اليمنية، بعد أن أخطرا عبر البرقية التي بعثتها جامعة كاليفورنيا لوزارة الثقافة اليمنية، عبر سفارتها بواشنطن، تطلب تذييل الصعوبات والمساعدة في إنجاح بعثة هوارد رد العلمية؛ لدراسة المومياءات اليمنية، وتحديد عمرها، وتقنيات التحنيط اليمني القديم، والمواد التي استخدمت فيه، وأن هذا سيسهم في تسليط الضوء على فن التحنيط اليمني، وإظهاره للعالم، وسيفيد كثيراً في تعزيز مكانة اليمن الحضارية، وأحقيتها التاريخية في هذا المضمار، ومناستها لكبرى الحضارات القديمة التي مارست التحنيط..

وقد تفهمت وزارة الثقافة اليمنية ذلك، وجهزت للبعثة مكان إقامة، وسيارة، وعددا من المرشدين، والمرافقين، وخبراء آثار يمينيين؛ للمعاونة، ولإنجاح عمل البعثة.. كان باستقبال البعثة مندوب من وزارة الثقافة اليمنية، رحب بهم ببشاشة كطبيعة الشعب اليمني الكريم المحب للضيف، وسعاده به، لاسيما إذا كان غريبا عن اليمن، ولأول مرة يزورها.

أقلهما بسيارته الخاصة إلى فندق طلحة بقلب العاصمة صنعاء, رغم الفارق العمراني والتكنولوجي والاقتصادي الكبيرين بين اليمن وأمريكا, إلا أن السعادة الغامرة, كانت ترتسم على محيا فيتشر وهوارد,, وراحا يغمضان عينيهما, ويستنشقان بمتعة, ومن ثم يتلفتان,, تارة عن اليمين, وتارة عن الشمال, والانبهار يتسع على قسماتهما أكثر وأكثر..

كان جو صنعاء لا يقارن, وفتنتها تأسر الأنظار بمبانيها القديمة, وطرزها المعماري القديم, الذي يجعل منها تحفة فنية كبيرة, جعلت السعادة ترقص, وترفرف في قلبي جوان وهوارد, لفترة طويلة.. كانت صنعاء درة المدن, تحوي كل فن بحق, والتفت هوارد لجوان التي طلبت من المندوب أن يتمهل, وراحت تخرج من الحقيبة الكبيرة التي بيدها كاميرا حديثة, وأخذت تلتقط بعض الصور لبعض المباني ذات الطراز المعماري اليمني التقليدي الجذاب, والجميل, وتكاد تطير من السعادة والفرح, ثم التفتت مخاطبة الدكتور هوارد بصوت يشوبه الضحك:

- أشتم عقب التاريخ يفوح من هذا البلد!! إنني أكاد أطير من السرور!! أشعر أنني في متحف أثري مفتوح, فالبنايات هنا, العمران, الشوارع, الناس, ملابسهم, محلاتهم, توحى بأننا فعلا في مدينة تاريخية أصيلة, مازالت قائمة, منذ آلاف السنين.

رد عليها الدكتور هوارد محركا رأسه:

- بالطبع, بالطبع.. نفس الشعور يخالجنى.. واستطرد قائلا:

- كثيرون أسرتهم صنعاء, من المستشرقين, والخبراء الغرب; حتى أن منهم لم يعد إلى بلادهم, وقرروا بناء منازل على طرازها المعماري الأصيل, والإقامة فيها, وراحوا يتعلمون اللغة العربية, ويتقنونها, ويتطبعون بطباع أهل صنعاء, مثل الخبير في فن العمارة الطينية الإيطالي (ماركو) الذي عشق صنعاء, وأحبها, وأحبته, وله منزل فيها, أشبه بالمتحف, ومصمم على الطراز المعماري اليمني, ومقتنياته يمنية بحتة.. إنني أشعر أن مهمتنا ستكون سهلة, وبإمكاني العثور على مقابر صخرية جديدة, بكل يسر, وستكفل جهودنا بالنجاح, وسنعثر على عينات سليمة, لم يعث بها أحد, وستكون هذه العينات من اكتشافاتنا, وسيرتبط العثور عليها باسمنا, وبعثتنا بعثة... وأشار بيديه في الهواء, على شكل مستطيل, ونطق هوارد رد:

- العلمية الأثرية..

راحت الدكتورة فيتشر تشاركه أحلامه, نعم من خلال هذه الأجواء الجميلة, فإنني ألمح بارقة النجاح تلوح, من المقابر الأثرية, وارتفعت ضحكاتها معا, إلا أن ما كانت تخبئه لهم الأقدار كان بعيدا كل البعد عما شطح به خيالهما, بل إنهما سيدوقان المر والعلقم, ويتكبدان كل العذاب والهوان في الحصول حتى على عينة واحدة لطفل صغير, فسوف تمتد بهم بعثتهم إلى أماكن لم تكن ضمن خططهم, وسيهيمن في الجبال, والفيافي, والقفار في مأرب, وشبام الغراس بصنعاء والمحويت, وستهتز ميزانيتهم التي رصداها للبعثة, وسيستقدمان المزيد من

الخبراء والباحثين، وحتى متسلقي جبال، ولن ينالا مبتغاهم إلا بشق الأنفس هذا إن نجيا من تلك المغارات، والمقابر الصخرية، وما تخبئه لهم من المخاطر.

## الفصل التاسع

صدم خالد - ابن خالي - من هول الموقف، فراحت قدماه تهتران، وخفنا أن يقع به السلم، ويسقط، ويتمزق جسده فوق الصخور الحادة، كان الكهف الذي يبدو ضيقا من الخارج متسعا جدا من الداخل، وبه عدة كواتٍ منحوتة بشكل مستطيل، وبديع، ويعلوها نقوشٌ بخط المسند القديم، ولم يكن ذاك الجمال هو ما أثار فزعه، ودهشته بل تلك الجثة المتفحمة الملقية بقعر المغارة، كان وجه خالد مخطوفاً، يتصبب عرقا وفرائصه ترتعد، كانت تلك جثة الشاب كهلان التي اختفت عقب ضربة الطائرة الأمريكية المسيرة بالأمس، ويبدو من وجودها بهذا المكان غير المتوقع أن شدة الانفجار قد قذفتها إلى هذه المغارة..

وراحت القشعريرة هذه المرة تسري بجسده، وصوته يرتفع بالصراخ مجدداً: يا الله!!! وكاد يقع ويهوي من أعلى السلم لولا أن سارع هيثم ونعيم يسندانه، ولم تكن تلك القشعريرة التي سرت بفعل الجثة المتفحمة هذه المرة، بل استشعرها تغزو جسده لا إراديا، عندما أبصر بمنعطف المغارة قديمي غنمة سوداء، ضخمة، مشعرة، واقفتين، وعندما صاح يا الله!!! تنبعت، وابتعدت، وغابت في المنعطف المظلم للمغارة، ساعده نعيم وهايثم على النزول من السلم، راح يتلعثم :

- لن تصدقوا ما رأيته!! جثة متفحمة!! أعتقد أنها جثة كهلان التي لم يعثر عليها منذ الأمس!  
رد عليه هيثم :

- هل أنت متأكد مما قلته؟؟ أو هي توهمات وخيال المومياة قد بدأت تصيب عقلك وتوشوشه!!

رد خالد:

- بل متأكد، وبإمكانك الصعود أيها الذكي! والتأكد من تلقاء نفسك من صحة كلامي..

صعد هيثم السلم بخفة، ونجح بالوصول بعد محاولتين، كان تعوده منذ الصغر على تسلق الجبال عاملا مساعدا لسرعة تسلقه على غير خالد الذي عانى كثيرا للوصول للمغارة، تأكد لهيثم صحة ما حكاه خالد، وبعد نزوله تجمع الستة الشباب على شكل دائرة، وتشاوروا بالأمر، وقرروا أن يبقوا أربعتهم على أن يذهب محروس، وهايثم بالسيارة لإبلاغ السلطات المختصة عن الجثة التي وجدوها بالمغارة الصخرية، طار محروس وهايثم بالخبر - بسرعة البرق - ولم تنقُص نصف الساعة إلا وعبادا، ومعهم قوة من الأمن، ومن مشائخ المنطقة..

قام خالد، والآخرون بالترحيب بهم، وتطوَّع خالد بالشرح بشكل مفصل، وعن أسباب تواجدهم في هذا المكان الأثري؛ حتى لا يفسر تفسيراً خاطئاً، وكونه مرشداً سياحياً في مأرب،



ومعروف لدى الوجاهات القبلية، ويعمل بمكتب الثقافة، فقد كان موقفهم سليماً، ولم تحم حولهم أي شكوك..

تسلق السلمَ رجلان من الدفاع المدني، وقاما بإنزال الجثة بعد أن لفها جيداً بكيس، يستخدم للمتوفين بالحوادث، ومن ثم حملها على حمالة يدوية، وأخذها في إحدى السيارات، تفرق فريق الرحلة (أيدي سبأ) كما تفرقت سبأ قديماً من هذا المكان، وهاموا في أصقاع الأرض...

وعلى الرغم من تكدنا وتضايقتنا من فساد الرحلة، إلا أن الارتياح بدأ على الأهالي للعثور على الجثة.. لم نخطط لأي رحلة مماثلة، قضينا بقية أيام الأسبوع بزيارة لسد مأرب، ومعبد الشمس، والمتحف الوطني، والتسكع في الأسواق، وعندما كاد الأسبوع أن ينقضي، وبينما نحن نحتمي أكواب الشاي بالحليب، والبن في إحدى المقاهي، كانت علاقتي قد توطدت كثيراً بأصدقاء ابن خالي خالد، وصاروا أصدقاءً لي، وتعرفت على آخرين أيضاً، لكن كنا نحن الستة مجموعة، لا تكاد تفترق إلا أوقات النوم أو العمل.

بعد ذلك اقترح ابن خالي خالد المرشد السياحي، والشغوف بالآثار مجدداً، مغامرة أخرى، فصاح به محروس، وهو ينكس بسبابتيه بكلتا اليدين للأرض:

- مرة أخرى رحلات؟! أنت لم تتعب؟!

رد خالد صاغراً:

- اهدأ، يا محروس.. هذه الرحلة ستكون ممتعة، ومختلفة تماماً، سنقوم هذه المرة برحلة إلى المحويت، ولشباب كوكبان، وإلى شبام الغراس ببني حشيش بالعاصمة صنعاء..

هذه مناطق أثرية جميلة غاية الجمال جذابة، وتأسر الأنفاس، فهي عبارة عن متحف طبيعي في الهواء الطلق، فهناك مقابر صخرية جميلة، تحفة من أجمل التحف في الكون، ومتحف آثار المحويت، والذي وإن كان لم يكتمل بعد فهو يضم موميאות يمنية، تعود لآلاف السنين، تكشف عن عبقرية أجدادنا، في الطب والتحنيط..

تحمس الجميع للرحلة، رغم ما تمر به البلد من حالة حرب، وانقسام، وتشرذم، وعلى الرغم من القطيعة بين المحافظتين التاريخيتين العريقتين بسبب ظروف الحرب التي قسمت المحافظتين إلى قسمين، كل قسم يخضع لسيطرة طرف من أطراف النزاع في الحرب، لكن ذلك لم يمنع من ارتباط المواطن بأرضه، وإيمانه العميق بواحدية، وأخوة الشعب اليمني، وسيأتي يوم وستزول هذه العداوات، وسيذوب جليد الشقاق والفرقة، وسيولي وإلى الأبد وبغير رجعة، وستلتئم لحمة هذا الشعب مجدداً، وستعرف الحكمة طريقها من جديد إلى عقول اليمنيين، الذين شهد لهم الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بالإيمان والحكمة، الشعب اليمني ينظر للحرب بأنها فترة بلاء، وستنتهي طال أم قصر أمدها، وما زال يلهج بالدعاء في صلواته، ومنابره، وخطبه، أن يؤلف الله بين قلوب اليمنيين.

صباح يوم السبت، سافرنا عبر حافلة النقل الجماعي الأكثر سرعة وأماناً، كل منا بحقيبة ملبسه، ومستلزماته الخاصة، كانت رحلة ممتعة، يتخللها الضحك والمرح، والنكات، والتعليقات، والدعابات الحلوة، حتى أننا وجدنا من يندمج معنا من المسافرين، لم نكن لنعرفهم، ويعرفوننا، لكنها سجية اليمانيين أينما التقوا انتلفوا.. ولم ينغص تلك الرحلة سوى طول الطريق الذي اختلف عن سابقه؛ بسبب الحرب وكثرة نقاط التفتيش التي جعلت الساعات المقررة للسفر تزيد بمقدر الضعف، مع هذا عشنا المتعة، ولم نأبه لذلك، مع نظرنا بالتفاؤل للمستقبل الباسم، الذي لاشك سيأتي يوماً ما.

استقرت بنا الرحلة في منتصفها، في إحدى الاستراحات على جانبي الطريق، في منطقة بعيدة، عن العمران، مبنى مربع كأنه مجمع تجاري، يتوفر به كل شيء من مطاعم، دكاكين، محطة وقود، وملحق به مسجد صغير، وحمامات، وجناح خاص للعائلات، ومن خلفه تمتد الصحراء الشاسعة، مسترسلة إلى ما لانهاية...

كان الجو عليلاً صحواً، يفتح الشهية للطعام، الذي أصر نعيم أن يكون على مذاقه الخاص، غاب لدقائق، وعاد يحمل عدداً من أقراص الخبز الساخنة اللذيذة المرشوشة بالحبّة السوداء، والسمن، وضعها وغاب مرة أخرى، وهذه المرة تأخر؛ ليعاود الظهور، بعد عشر دقائق، بصحبة النادل، وكان نعيم يحمل صحناً به أكواب الشاي الأحمر بالنعناع، و النادل يحمل مدرّة كبيرة، تحوي فاصولياً مع البيض، كانت ساخنة جداً، وتتصاعد منها الأبخرة والفقاقيع، وقد جاهد ألا تقع من يديه، وهو يسندها بعلبة فارغة، كبيرة، من الأسفل تقيه سخونتها الشديدة، شكلت هذه الوجبة الدسمة من الفطور مع الجو الصحو ثانياً مبهجاً، ولذة لا تطاق، وطلبنا المزيد من الخبز، ولم نشعر بانقضاء الوقت المحدد للفطور إلا بعد سماع بوق الحافلة، ينبهنا للعودة، فغسلنا أيادينا، وصعدنا الحافلة...

انطلقنا صوب العاصمة، وتوقفنا عند محطة الانتظار؛ لنزول مسافرين، وصعود آخرين متجهين إلى شبام كوكبان في المحويت - مدينة الضباب، والأسرار، و الموميوات المدهشة. كانت عملية تصعيد الركاب وقطع التذاكر في الحافلة تثير الملل.. استغلّيت الفرصة وجدتها سانحة؛ فمرقتُ من أمام محصل التذاكر، وتسللتُ حتى مكتب النقل الجماعي، لإفراغ ما بمثانتني من مياه، سألت أحد موظفي المكتب عن الحمام واتجهت مباشرة، كنت متوجساً من أن يكون مشغولاً وحصل ما توقعته!! لكن الحظ ابتسم لي سريعاً؛ لم تمض دقيقة حتى كان الحمام قد فرغ، قضيت حاجتي على عجل، واتجهت صوب الحافلة؛ سعدت وأنا أشعر براحة عميقة، ونشاط يدب في أوصالي، وما هي إلا ثوان حتى كانت الحافلة تتحرك وتغادر، وغمرت فرحة عارمة الجميع.. أول ما لاحظته تتراقص في عيون محروس بجواري لكن فجأة، حدث ما نغص تلك الفرحة، ارتفع صوتٌ لم يكن في الحسبان من آخر الحافلة لشحاذٍ أعمى يقوده صبي، كان يستجدي ما يجود به عليه المسافرون في ظل أوضاع هذه الحرب الضروس التي أوصلت الناس لحالة يرثى لها من الفقر، والبؤس حتى تجار كبار بعد أن كانوا يعيشون في ثراء، صاروا معوزين، وأصبح الكثيرون لا يجدون قوت يومهم، وعشاء ليلتهم، تدمر البعض من هذا التوقف المفاجئ عكس السائق الذي بدا بشوشاً ومرحاً، وكان يمازح الشحاذ الأعمى المسن الذي يبدو أنه يعرفه جيداً، معرفة توطدت عبر تردد الشحاذ كثيراً على محطة الحافلات

وصعوده لها, كنت أحترم هذا النوع من السائقين الذين لا ينهرون السائل، ويقدرّون ظروف الناس، وما قسمه الله من أرزاق للبشر...

في عالم الشحادة، جرى العرف أن تقسم المناطق بينهم, كلّ له منطقة معينة, ولا يتعدى أحدٌ على نفوذ الآخر، وهم قانعون متفاهمون فيما بينهم, نزل الشحاذ الذي كان مسرورا، ويلهج بالدعاء والبركة للسائق وللركاب مع تمنياته بسلامة الوصول, أغمضت جفوني ورحت في سبات عميق لم أفق منه إلا ومحروس يلكرنا بمرفقه, وينادي:

- هيا استيقظ، يا سعيد!! لقد وصلنا..

اندهشت من سرعة الوصول كأني أغمضت عيوني وفتحتها غمضة عين, إنها وجبة الفطور الدسمة هي من جعلت النوم يكبس عليا, ما إن وطأت أقدامنا أرض المحويت حتى شممنا جميعنا نسمات التاريخ العريق لهذه المدينة الأسطورية تفوح علينا... شعرنا بثلاثة آلاف عام أو يزيد، تعانقتنا وتقبل وجوهنا جبال شامخة، ومبانٍ مبنية على الطراز القديم... سرت قشعريرة فرحة في أجسادنا, أزالنا تعب السفر, ولكن رغم تلك البهجة شعرنا - الستة الأصدقاء - بقلق خفي وخوفٍ، واضطرابٍ، ينمو في صدورنا، ولم ندرِ كنهه، وصرنا نطالع وجوه بعض، والقلق ينهشنا بعنف!!!

## الفصل العاشر

راحت تلك المخبرية تحديق - بعيونٍ جاحظةٍ مرعوبةٍ - في تلك البقعة الباخعة التي تحيط بسيقان الكرسي البلاستيكي، وتلتهمه بشكلٍ مخيفٍ؛ حتى ذابت إحدى تلك السيقان، وبدأ الكرسي بالترنح، وراح جسدها يتأرجح،، واختل توازنها، ووجدت نفسها على وشك أن تهوي، لولا أن امتدت يدان مشدودتان تمسكان يديها ككماشة قوية، وتشدانها للأعلى بقوة، وتسحبانها، وتخرجها عبر النافذة الواسعة المحطمة الزجاج... كان وقوع المختبر بيدروم المبني؛ يجعل نوافذه التي تظهر من جهة المعمل مرتفعة، إلا أنها من خارج المبني تكون عند مستوى أقدام المارة..

كان الذي أنقذها وانتشلها؛ لديه حالة مرضية، وكان يتسكع في الحديقة؛ منتظرًا استلام نتيجة فحصٍ أجراه لمريضه الذي يرافقه، وشاهد من بعيد الكرسي والزجاج الذي تطاير،، وهرع للمكان، وكان وصوله في اللحظة المناسبة، شاهد ما يجري عبر النافذة، ودون ترددٍ، سارع في إنقاذ الفتاة وسحبها بكل قوته..

كانت المخبرية تلهث من جراء الحادثة، ففتح الشاب علبة مياهٍ معدنيةٍ بيده، وطلب منها أن تهدأ، ومن ثم ناولها لها لتشرب، بعد أن ردت أنفاسها وشربت، شكرت ذلك الشاب الذي كان في منتصف العقد الثالث من عمره، وكان وسيما، وأنيقا وعلى شفثيه ابتسامة لا تفارقه أبدا، كأنها جزء منه، سألتها: هل أنت بخير؟ أم نسعفك؟؟

ردت بود: لا. بخير. شكرا لك، إني عاجزة عن شكرك يا..

قاطعها: اسمي عزام، وأنت ما اسمك؟

ردت بابتسامة: اسمي حياة.

راح يتغزل ويمتدح اسمها: الله!! ما أحلى اسمك!! جميل مثلك أنت. فعلا حياة لمن يطالع هذا الوجه المشرق كالبدر.. لا بد أن كثيرا من المرضى هنا يشعرون بالتحسن من مطالعة وجهك!!

قالت له بعدم اكتراث لتغزله: أنت فقط تبالغ.. لا جمال،، ولا يحزنون!!

فراح يغير الحديث لمدارات حرج ألم به :

- لدي مريضٌ في قسم الباطنية، وقد شاهدت الكرسي يطير من بعيد، ويرتطم بأرضية الحديقة؛ فظننت أن هناك خناقا يدور في المختبر، والحمد لله وصلت في الوقت المناسب.

ومن ثم تذكرت حياة حادثة المختبر وقالت له شاحبة :

- الإدارة!! يجب أن أبلغ الإدارة..

انطلقا يعدوان بأقصى سرعتهما نحو مكتب المدير العام، فوصلا وأنفاسهما تتقطع، وكل من شاهدهما يعدوان كان يظن أن هناك حالةً يجاهدان للحاق بها قبل أن تفارق الحياة.

اندفعا نحو سكرتارية المدير العام يلهثان، وراحت حياة صارخة تسأل السكرتيرة عن المدير؟؟

ردت السكرتيرة: إنه في الداخل، ولديه اجتماع هام.

لم تنتظر حياة إننا، واقتحمت مكتب مدير عام المستشفى، التفت الجميع نحو حياة وعزام مستهجنين هذا السلوك الفظ، ونهرها المدير العام ووبخها: من سمح لكما بالدخول، ما قلة الذوق والأدب هذه؟؟؟!

لم تدعه حياة يكمل توبيخه، ونطقت بثقة وتوتر: عفوا سيادة المدير، الأمر هام جدا، ولا يحتاج للاستئذان والرسميات، ويتعلق بالمختبر، فكلام المخبري فواز صحيح، فهناك وباءٌ قاتلٌ، لاشك أنه انتقل من إحدى الحالات، وهو الآن يوشك أن ينتشر مالم نسيطر عليه باكرا.

تجمع مدير المستشفى، وعددٌ كبير من الأطباء، والممرضين، وحراسة المستشفى، ومهندسي الصيانة أمام باب المختبر، الذي كان موصدا من الداخل، ورائحةً كيميائيةً خانقةً، ونفادةً، تضوع في الجو، مصدرها المختبر. وتم كسر الباب عنوةً من قبل مهندسي الصيانة في المستشفى، كان المختبر في حالة فوضى عارمة، ويشطره إلى نصفين ذلك السائل اللزج اللبق الذي ساح من على منضدة الفحص حتى أقصى المختبر..

حذر المدير العام الجميع بالابتعاد وعدم الاقتراب، في حين تم استدعاء فريق الأزمات والطوارئ في المستشفى، كانوا يرتدون ملابس واقية شبيهة ببذلات الإطفائيين تخفي كل جسد، من الرأس حتى القدمين، وقاموا بشطف المادة بشفاطات حديدية خاصة إلى داخل برميل حديدي، بفتحة ضيقة في أعلاه، ثم تم تنظيف كل المعدات التي أصابها المادة، ووضعها بأكياس بلاستيكية متينة، ومن ثم وضعها بصناديق حديدية معينة، وتم تحريز كل المواد التي يعتقد ملامستها تلك البقعة الملوثة الغريبة، وتم أخذ عدة عينات من البقعة الغامضة، والإغلاق عليها جيدا بقتاني زجاجية، ومن ثم وضعها بحرصٍ وسط صندوقٍ حديديٍّ صغيرٍ، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من المختبر الذي سد باب، ونافذته بإحكام من الخارج، بقطع من الطوب، ولصقه بالإسمنت، أما المادة البكتيرية، فقد تم الإغلاق عليها بإحكام، وتم أخذها لغرفة مستقلة، وبعيدة تقع في أطراف المستشفى، كانت تستخدم كمخزن لأدوات جز، وتشذيب العشب، وأشجار الحديقة.

تم التواصل مع مدير عام الصحة، والذي بدوره تواصل مع وزير الصحة، وفي اجتماع سري، وعاجل تم مناقشة الحادثة، والتي كان الاعتقاد السائد لدى الجميع كونها نوع من مرض الكوليرا، الذي ضرب اليمن.

تم تبني نظرية انتشار عدوى وباء الكوليرا، وتحمس لها الجميع كمخرج للقلق الذي تسلل لصدورهم، ثم سيتم لاحقا التقرير، وماذا سيتم اتخاذه من إجراءات وفحوصات ودراسةٍ عن كسب للمادة التي تكونت بهذا الشكل، الذي جعلها أكبر من فيروس، أو بكتريا، وجعلها مادةً

كيميائيةً صناعيةً، اتحدت ببعض المواد مع الهواء الجوي بما يحتويه من هيدروجين، ونيروجين، وأكسجين؛ لتكوّن ذلك الخليط المرعب الذي يتوقع أنه يحتوي على جراثيم قاتلة، ومعديّة، ومن يدري ربما عصيات جمرة خبيثة، انتقلت من مصاب، تعرض لها؛ بسبب عمله الكثير بين الحيوانات آكلة النباتات..

كثافة وحجم السائل توحى بخطرٍ جسيمٍ مُحْدِقٍ، كانت المبررات تضع حدًا لحالة الذعر والخوف المتفشية بين الناس، وحتى لا يثور الناس، ويصابون بالهلع، ويخرج الأمر عن السيطرة، في ظل أوضاعٍ مأساويةٍ ومعيشيةٍ صعبة، يعانيتها المواطنون، جراء الحرب والحصار، ولم يعد بمقدور المواطنين مزيدا من الهموم والمشاكل والنكبات؛ حتى وإن أتت على شكل وباء، فقد يقضي على ما بقي من تجلدهم، وأجسادهم الهزيلة التي تناوشها غدر الزمان والحرب..

نعم كان الهدوء، والاستقرار، وإشاعة الطمأنينة هي عين العقل، ومراعاة حالة الناس المزاجية في الاجتماع الطارئ الذي عقد لوزارة الصحة، ومع هذا لم يخف الوزير غضبه؛ فصاح بشكلٍ غاضبٍ موجهها كلامه لمدير الصحة:

- ما الذي حصل؟؟ البلد ليس ناقص مشاكل وجراثيم!!

رد مدير مكتب الصحة متشككا:

- الظاهر أن هناك عدوى جرثومية شديدة الفوعة، وخطيرة، ظهرت في مستشفى الأمانة العام، وهي على درجة عالية من الخطورة، وقد قمنا باحتواء الوباء، وكل ما يشتهبه أنه قد تعرض للتلوث، والعدوى، وقمنا بتعقيم الأماكن المشكوك فيها كافة، وتم إغلاق قسم المختبر بالمستشفى، وسده بقطع من الطوب، وتم تحريز كافة الأدوات في صناديق محكمة، ونقلها لمكان منعزل، وأمن، كما تم الحجر على كافة الحالات المشتبه بتعرضها للعدوى، وعزلها في خيمة طبية كبيرة خارج المبنى، وفرضنا عليها حراسةً شديدة، وعزلنا فيها ثلاث حالات مشتبهة، إلى الآن تحت المراقبة، وإحدى الحالات حرجة جدا؛ تم عزلها بمفردها، بخيمة ملاصقة مستقلة، أما فنية المختبر التي أبلغت عن الحالة؛ فقد تم إخلاء سبيلها بعد فحصها، وتأكد خلوها من أي أمراض وعدوى، رد الوزير :

- وماهي أسباب الوباء الحقيقية؟ وكيف وصل؟ ومن أي نوع؟ وأي درجة تتوقعونها له؟ وهل تم تشخيص الحالات المشتبهة؟

رد مدير مكتب الصحة :

- الوباء هو من سلالة بكتيرية خبيثة، وقد تسبب بحدوث حالة تكاثر شبه سرطانية، عند مزج عينة دم المصاب بالمحاليل المخبرية، وأدى لحدوث تفاعل غريب، كون مادة داكنة سوداء، ولزجة، تدفقت في طاولة الفحص، وراحت تاكل ما أمامها، وتلتهمه بشكلٍ غريب، وكأنها حامض كبريتيك مركز، وناول الوزير بضع ورقات مردفاً: كلُّ شيءٍ مفصلٌ بهذا التقرير، بإمكان سيادتكم الاطلاع عليه، وراح الوزير يركب نظارته المتدلالية على رقبتة، ويطالع

الأوراق بعجالة، وأشار مدير مكتب الصحة لمدير هيئة مستشفى الأمانة العام الذي راح يرغي:

- إذا لم تتخذ الإجراءات المناسبة والرادعة سريعاً؛ ستخرج الأمور عن السيطرة، وقد يتحول الوباء لجائحة شديدة؛ ستلتهم ما تبقى من البلد، ولتحديد نوعه بشكل علمي دقيق، نحن بحاجة ماسة لمساعدة منظمة الصحة العالمية، فإمكانياتنا في ظل الحصار محدودة، فضلاً عن الخوف من أي عملية فحص حالية للحالات المحجور عليها، أو فتح الحروز الموبوءة؛ لغرض الفحص التي قد تؤدي أن تنشط الجراثيم، وتتكاثر إذا مزجناها بالمحالييل، كما حصل في المرة السابقة في المختبر، وتسبب في كل القلق الذي نحن فيه، دق الوزير على المنضدة بقبضته غاضباً وصاح:

- كيف نستعين بمنظمة الصحة العالمية؟؟ هذا معناه فتح أبواب الجحيم علينا، فوكالات الأنبياء التي يحلو لها تزييف الحقائق، وتهويلها؛ ستصنع من الحبة قبة، وسيشتعل العالم كله ضدنا، ولن يجدوا لهم خبراً يتسلون به سوانا، لابد أن تجدو حلاً، وأنا سأطلب من دولة رئيس الوزراء عقد إجماع طارئ لاجتماع مجلس الوزراء، وسنقرر ما سيدلى به الأخوة الوزراء، ولا بد أن تتضافر جهودنا جميعاً، ونجد حلاً خلال 24 ساعة، وسأوجه لكافة مدراء مكاتب الصحة بتفريغ كل كوادرننا الطبية في المحافظات؛ لتشكيل غرفة عمليات للمتابعة، والرصد، وعمل الحلول الناجعة للقضاء على الوباء، واحتوائه بأسرع فترة زمنية ممكنة، ثم التفت لمدير مركز الترصد الوبائي:

- وأنتم ما شغلتمكم؟ كيف لم ترصدوا هذا الوباء؟ وتبلغوا الوزارة بالنتائج؟ وماذا تتصورون من حلول؟ نريد أن يقوم فريقكم بعمل اللازم.. لا أحد ينام الليلة في منزله؛ حتى تجدوا حلاً لهذه المشكلة العويصة، فنحن العاصمة، ويجب أن تكون العاصمة آمنة، من الأمراض والأوبئة؛ فهي رمز لهيبة الدولة وسلطتها..

رد مدير مركز الترصد الوبائي متلعثماً وهو يناول الوزير مجموعة الأوراق:

- هذه نتائج المراقبة والمتابعة اليومية للمناطق والمديريات في العاصمة، وجميع محافظات الجمهورية، ولكافة المستشفيات، والمرافق الصحية، والمدارس والمستشفيات، ولا يوجد هناك أي إشارات لأمراض، أو حالات مرضية دخيلة، عدا حالات الإصابة بالكوليرا، وإصابات طفيفة، لا تكاد تذكر بالتيفونيد، وقد سجلت تراجعاً كبيراً، وتحسناً ملحوظاً في الصحة، وشفاء كثير من الحالات والحد منها؛ جراء اتباع التعليمات لشرب المياه النظيفة، والتخلص من القاذورات، والفضلات في أماكنها المخصصة، وحسب اعتقادي هناك سببان رئيسيان لما نحن فيه و لا ثالث لهما:

أولاً: الماء الملوث لاسيما وسيول الأمطار؛ تقوم بجرف القمامة بما فيها من مخلفات الذبائح من الجلود، والأمغال، وسحبها عبر السانلات، والشوارع إلى الأماكن المكتظة بالسكان، وقد شكل ثنائي القمامة مع المياه الآسنة، و تغير الجو، حاملاً بكتيريا، تنقل بكتريا المياه الملوثة والجلد، وانتقل عبر بعض الحشرات كالدباب والبعوض، وأدى للإصابة بالتيفونيد، والكوليرا

التي ربما نوع منها يحمل هذه السلالة المتطورة، حسب ما أفاد به الأخ مدير مكتب الصحة سلفاً، وتقييمنا أنها بكتريا عسوية نزيفية متطورة.

ثانياً:- وأنا أرجح هذا السبب من خلال التحقيق، والذهاب لمستشفى الأمانة، سألنا في الأقسام المشتبه بها ظهور الحالة، فهي قد بدأت بعد وصول حالة مريض يدعى جواد مصاب بكتريا الجلد، وهو ذاك الشخص الذي تفضل مدير مكتب الصحة وأوضح أنه بخيمة عزل منفردة، وحالته الآن حرجة، وقد انتشرت البثور وحوصلات صغيرة، وطفح جلدي أحمر بجلده، شبيهة بالحصبة الألمانية، وعبر التتبع والسؤال لأقارب وزملاء المصاب جواد، توصلنا إلى أنه يعمل كأمين لمتحف جامعة صنعاء العلمي، وأنا أظن أن الأمر ليس بكتيريا تلوث مياه وجلدية. وقد يكون سموم (ذيفانات)، ربما تكون بعض المومياوات المحفوظة، قد تعرضت للتلف وأصابتها بنوع من بكتريا المومياء الخطيرة؛ بسبب نقص المحاليل، والمواد الحافظة التي تعثر جلبها، والحصول عليها؛ بسبب الحرب، كما أن انقطاع الكهرباء؛ تسبب بعطل بعض أجهزة حفظ الرطوبة الخاصة بغرفة المومياوات في المتحف، ونحن بانتظار توجيهاتكم لعمل فريق مشترك من الترصد الوبائي، ومن جامعة صنعاء، ووزارة الصحة للنزول الميداني للمتحف، وفحص تلك المومياوات، وعلى ضوء النتائج؛ سنقرر وستتضح الحقائق، هز وزير الصحة رأسه، وقد هدأت هواجسه، وراح يتناول كوب الشاي الذي وضع أمامه، ويرتشفه بارتياح، وشاركه الجميع شرب الشاي، والارتياح المتصنع!!

لكن زيارة اللجنة لمتحف الجامعة التي صنعت ارتياحهم الجزاف، ستحمل لهم الكثير من المفاجآت، التي لم يتوقعوها أبداً، وستنزل عليهم بهموم كالجبال المحيطة بالعاصمة وأكثر بكثير



## الفصل الحادي عشر

كان ذلك الدبّاعُ الطبيبُ يصنعُ جراثيمَ قويةً من أقوى أنواع الجراثيم على الإطلاق في تاريخ البشرية، بل كان على وجه الدقة، يصنع قنبلةً جرثوميةً غير قابلة للانفجار، إلا بعد أن تفتح كيس المومياء، استخراجها من سموم عدة، أفعى، وعقارب، وأعشاب فطر بريّ سام، ومن لعاب كلب مسعور، وطحن لسان فأر قارضٍ ميت، من القوارض التي نقلت وتسبب منذ أحد عشر ألف سنة، بانتشار مرض الجدري في الهند؛ وأدى لعدوى شديدة، وأمراض فتاكة، قتلت الآلاف حينها...

لم يكن ذلك الدبّاع مجردَ طبيبٍ حاذقٍ، أو دبّاعٍ ماهر، بل كان أيضًا خبيرًا بالسموم و الجراثيم؛ ليست جراثيم حية، يطلقها في ذاك الزمن ضد أعداء مملكته ووطنه، بل الأعداء المحتملين أيضًا، من لصوص المقابر الذين ينتهكون حرّامات موتاهم، ويدنسون مقابر سادات القبيلة، وأقيالها المبجلين، والذين يعدون رموز للقبيلة، ويجب أن يتم حمايتهم؛ حتى تتم دورة الخلود، والبقاء، واستعدادًا للبعث.

لجأ الكثيرون لهذه الطريقة، لعمل حد لعبث لصوص المقابر، الذين صاروا يؤرقون ساكنيها، ليس في اليمن الخضراء فحسب، بل حتى في مصر، والأنكا، وغيرها من الحضارات التي تصنع المومياء، وصارت ظاهرة سرقة المقابر عالمية، فلجأ المصريون القدماء لصنع نوع من السموم الشديدة التي دهنوا بها السرايين، وتوابيت موتاهم؛ ليلاقي كل من يسرق الجثث، أو الأشياء الثمينة التي تدفن مع موتاهم حتفه، وقد لجؤوا لهذه الطريقة بعد أن فشلت عبارات الترهيب التي كانوا ينقشونها على جدران المقابر، والمدافن لتخويف اللصوص، وكانوا يكتبون فوق قبور ملوكهم، عباراتٍ مثيرةً مخيفةً تثير الرعب نحو " سيضرب الموت بجناحيه السامين كل من يعكر صفو الملك"، ويبدو أن تلك العبارات التحذيرية على فخامتها، وجزالة لفظها، وقوة تخويفها لم تجد صدى سوى مع اللصوص البسطاء، أما المحترفون اللصوصية، لم تمنعهم عبارات التخويف..

لقد حققت المواد الكيميائية والسموم نتيجة مرجوة، فكثيرٌ من جثث اللصوص شوهدت مرميةً بالقرب من مومياوات الملوك، وهي ما عرفت بلعنة الفراعنة.

تملك الكاهن والحراسُ الرعب، الذي راح يدبُّ في أبدانهم، وهم يرون ذاك الفأر الميت، وفي الحقيقة لم يكن ميتًا، بل كان حيًّا، ولكنه كان مشلولًا.. كيف استطاع الدبّاع أن يجعله هكذا ميتا إكلينيكيًا؟! لم يكن يعرف فيه سوى نفسه، وحركة عينيه!! وكان الطبيبُ الدبّاعُ يريدُ أن ينتزع لسانه، وهي طرية؛ ليهرسها جيدًا، ويضيفها لتركيبته السامة لذاك (الأقربادين) المخيف، وكذلك الحال لتلك الأفعى السامة الرقطاء ذات الجرس، التي كانت لا تتوقف عن الضرب بجرس ذيها، وهي في القنينة وتخرجُ لسانها المشقوق بطريقةً مخيفةً جدًّا، وكأنها تتعمدُ الإجهاز على ما تبقى من تماسكهم، أو توحى لهم بشيء ما محذرةً.

قام الدباغ باستخراج سمها الزعاف لوعاء نحاسي صغير، ومن ثم أعادها للقنينة، وراحت يداها الماهرتان تقومان بخلط ومزج السموم من الأفعى، والعقارب السوداء، والصفراء، وأنواع من الفطر، و الأعشاب السامة، وراح بواسطة مشرط صغير، يُقشَّر عددًا من عفن الخبز اليابس في الوعاء، ومن ثم قام بشيء جعل أسنانهم تصطك، وفرائصهم ترتعد بقوة، فعمد لفك الفأر، وفتحها، ونزع لسانه بخفة، وراح يدقها بمدق حجري خاص، ثم انحنى، وأخذ قنينة نحاسية صغيرة، وراح يملؤها من جراب جلدي مرمي في القاع، كانت تتكدس فيه عددًا من الثعابين الميتة، تركت هناك لفترة طويلة؛ لتتحلل ويسيل من أجسادها الميتة، خليط سائل هلامي لزج، يمثل سمًا ناعمًا شديد الفتك، وراح يخلط ذلك المزيج السام، ثم استبدل قفازاته بأخرى، وراح يدهن المومياء بمادة عازلة من شحم الجمل، ومادة عطرية راح يدهنها بها، وقام بعدها بإعادة القفازات الأخرى، بعد أن تخلى عن التي بيده، وأخذ يدهن المومياء بالسم الملكي الذي صنعه، وبعد الانتهاء بدأ بخياطة الكيس الجلدي لمومياء القيل، وكان يخيظ بسرعة وإتقان أجمتهم تمامًا، وكان آخر ما خاطه ينتهي عند الرقبة، وترك الرأس حرا خارج الكيس الجلدي، وكأنه حي يخاف عليه أن يخنق، ويموت جراء خياطته المتقنة، كل هذا والكاهن ومن معه في حالة ذهول، وخوف، وتبليد تام، بل إن أحد الحضور تبول فوق ملابسه - لا إراديا - ومن ثم استدار ذلك الدباغ نحو الجميع محذرا وموجهًا كلامه:

- هذه سموم فتاكَةٌ جدًّا، الآلهة أوحث لنا، وأمرتنا بتركيبها، وسوف تلحق لعنتها بكل من يقترب من جسد سيدنا المعظم القيل (بعثتر بن عسب آل)، ولن يقتصر الأمر على الشخص نفسه، بل ستلاحق اللعنة سبعة من أجياله، وستحرق، وتنهى كل ما يمتلكه هو وكل من شاركه، أو اقترب من القيل ولا مسه؛ حتى وإن كان بريئا، كما أن هذا السم مجهز للقضاء على كل من يقترب من المقبرة، أو الأثاث الجنائزي خلال سنواتنا هذه، أما بعد موتنا بعمر طويل، فسيتحلل وستذوب السموم طبيعيا فيه، وستظل تحلق في المكان، وستقضي على أي لصوص، ومعتدين حتى بعد آلاف السنين.. فلعنة الآلهة لا تزول، ولو بعد آلاف السنين، إلا بعد أن يأذن الرب لمولانا الخالد القيل (بعثتر بن عسب آل)، وتحين لحظة البعث والنشور، عندها فقط تزول هذه اللعنة، وبدا أنه مقدم على شيء متهور، واتجهت عيونه صوب القط الذي لم يكن يعلم ما يدور في عقل المُحَنِّط المُرْعِب، فراح يرش على ظهره بضع نقط من القنينة التي يمسكها بيده، وماهي إلا لحظات؛ حتى بدأ القط يتشنج، ثم تساقط شعره، وأصدر مواء مفزعًا، يضاهي صوت طفل يبكي، وشخص بعينه نحو المومياء وأسلمت روحه حياتها..

رحت أقارن ما قرأته، بما تفوه به الدباغ، في أحد النقوش، وما أثبتته العلماء في عصرنا الحديث؛ إذ أن التربة المجمدة، وبفضل الثلوج، والمدافن الصخرية الباردة؛ فإنها تشكل مكانًا مثاليا لبقاء البكتريا على قيد الحياة لفترات طويلة، ربما تدوم لمليون سنة، وأنا ذاهلٌ من مدى العلم الذي وصل إليه ذلك الدباغ الموسوعي الذي لم يكن مجرد طبيب، أو دباغ عادي، بل كان ساحرًا وعالمًا بالأحياء أيضا، وبأمور الدين..

لقد ارتبطت مهنة الطب، والسحر، والدين قديمًا ارتباطًا وثيقًا، وكانت تسندُ للمقربين من الملك، أو القيل، أو المكرب، وقلمًا تجد طبيبًا منفصلا بطبه عنها..

كانت فرائص الموجودين لاتزال تعمل لا إراديا، وهم يشاهدون تلك التعويذة التي أنتهى منها الطبيب، فهم قد شاهدوا ورأوا رأي العين ثلثة من أخطر حيوانات، وزواحف، وسموم الطبيعة تنصهرُ أمامهم، وتختفي بجسد المومياء، التي كانت قيلا منذ بضع أيام، وراحت أعينهم تنتقل برعب بين تلك القتاني، تبخلق في الزواحف التي تم إفراغ السم منها، والتفت الدباغ بعينين ثلجيتين خاليتين من الحياة، وراح يشرح لهم بإسهاب حجم المعاناة، والوجع، والعذاب الذي سيقاسيه من يحاول الاعتداء على الجثة، أو فك الكيس الجلدي قبل أن يلقى مصرعه بدقائق معدودة، وليت الأمر يقتصر عليه وحده، بل كل من يساعده، أو حتى يسعف اللص المعتدي ستظاله اللعنة، وسيصاب ببثورٍ وقروحٍ منتنةٍ قاتلة...

راح الموجودون يقسمون بأغلظ الأيمان، وبروح الرب (تألب ريام) أنهم لن يفشوا السر أبدا، ولن يدلوا أحدا على المقبرة، أو يعودوا إليها، وسيحافظون على هذه السرية، وبمجرد خروجهم سينسون تماما كل ما شاهدوه، بل إن حبهم الكبير، وتقديسهم لسعادة القيل المتوفى (بعثر بن عسب أل) تحتم عليهم أن يساعدوا في حمايته، وسيعملون بأنفسهم حراسا للمقبرة بشكل متخفٍ، دون أن يشعر بهم أحدٌ، أو يلفتون الأنظار لمكان وجود المقبرة المقدسة، المحفورة بإتقان، وبشكل سري في بطن الجبل الصخري.. هز الطبيب رأسه متفهماً، وهو يبتسم بمكر، وراحت أنامله تداعب عقرباً أسوداً ضخماً، كان يسري على ساعده الأيسر، ومن ثم قال بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- أنا واثقٌ تماما من صدق كلامكم، وإخلاصكم وتفانيكم، ولهذا تم اختياركم بدقة لهذا الشرف في تجهيز جنازة قيلنا الراحل، إنكم أهل للأمانة، وحبكم، وطاعتكم، وولاؤكم لسيدنا (بعثر بن عسب أل)، وولي عهده هو محل تقديرٍ لدى القصر، ولا داعي للفرع الذي يعترىكم، فأنا محتاجٌ لثباتكم، وتركيزكم معي، ولا أريد أعصاباً مشدودة، وخائرة، وأيادٍ مرتجفة، هيا! فلتنفضوا عنكم هذا الخوف المخزي! فهو للعجائز والأطفال! قوموا برص كل هذا الأثاث الجنائزي الذي يحكي البطولات، والانتصارات والأمجاد التي عاشها قيلنا المفدى، في هذه الكوات، ولا تنسوا أنها أيضا عليها مادة شديدة السمية؛ فيجب أن ترتدوا أولا هذه القفازات، ومن ثم تباشروا عملكم..

نفذوا التعليمات بكل دقة، والخوف، والوجل رقيقهم، وعبثا حاولوا الاستفادة من صك الأمان الذي منحهم إياه دون جدوى؛ فقد نبتت بذرة الخوف اللعينة في أفئدتهم، ولن تنطفئ أبدا، إلا بوفاة هذا الطبيب الدباغ المخيف، أو قضاء نحبهم...

تم وضع المومياء بقبرٍ مستطيلٍ في أرضية المغارة بجهةٍ مقابلةٍ لفتحة المقبرة، ثم تم الخروج من المقبرة، و سدها بألواح خشبية، وصخورٍ مستطيلةٍ رقيقة، و لصقها بمادة الجص، وغادروا المقبرة، وكان الدباغ آخر من غادر المقبرة.

مرت ثلاثين سنة، وتوفى اثنان من أقارب القيل من الأسرة الحاكمة، وتم تحنيطهم، وقبرهم بجوار القيل (بعثر بن)، لكن لم توجد أي إشارات تشير لطريقة و كيفية التحنيط، أو الأسماء، إنما وجدت الجثتان ضمن اكتشاف المقبرة الصخرية العام (1986م)، ولم يعلم أحد بأن تلك الموميאות المحنطة بإبداع، وإتقان، وعبقريّة تحوي بكتريا معدلة، تحوي سمًا،

وخطرًا كبيرًا، وفي حالة سباتٍ عميقٍ، لن تفيق منه إلا بتعرضها للتفاعل، عبر إخراجها لأجواء تنضي عنها حالة السبات؛ بسبب تغير الجوّ، والرطوبة، وظلت عبر (2500) عام ونيف في حالة التنويم تلك؛ حتى حصلت الحرب أوائل العام (2017م)، والتي أدت لانعدام المحاليل العضوية الحافظة، وانقطاع الكهرباء، وحصلت الكارثة.

## الفصل الثاني عشر

تدهورت حالة أمين متحف المومياة كثيراً، حيث غطت القروح، والبثور معظم أجزاء جسده، كان أشبه بإنسانٍ أصيب بحروقٍ من الدرجة الثالثة، وكانت حرارته مرتفعة يتنفس بصعوبة بالغة، ودوماً في غيبوبة، يفيق لبضع دقائق، وتعاوده نوبة الإغماء..

في إحدى حالات فيقانه النادرة، أخذ ذهنه المتعب يستعيد ما جرى له منذ يومين، عندما اشتم تلك الرائحة الخائفة النتنة، فظن في بداية الامر أنه فأر ميت، قد تسلل للمتحف، وقضم إحدى الكبسولات السامة التي توضع كحماية في أوعية صغيرة، داخل الأجهزة الإلكترونية والكهربائية الحساسة، وأيضاً بالقرب من الأشياء ذات القيمة العالية التي يخاف عليها من تسلل الفئران، وقضمها لها، بحث في أرجاء المتحف في نقاط توزع أوعية تلك الكبسولات، وكان عددها (13)، (12) منها حسب عدد المومياوات المحنطة، ورقم (13) كانت بالقرب من جهاز تنقية الرطوبة، والذي كان هامداً منذ مدة؛ بسبب انقطاع التيار الكهربائي عن المتحف، وتم التعويض عنه بإحضار عبوات بلاستيكية، تحتوي بداخلها مادة ماصة للرطوبة، معلقة بسقف صالة عرض المومياة..

مر على الصناديق الزجاجية التي تحوي المومياوات، كان الهدوء يلف المكان، والجو يدعو للرهبنة في هذه الأجواء، وهذه الساعة التي تقترب من الثانية ظهراً، والذي تبدو فيه الجامعة موحشةً بخلوها تماماً من الأساتذة، والطلاب، والموظفين، إلا من الحراس في بواباتها، وجد نفسه وجهاً لوجه مع المومياوات، وشعر بأن الحياة تدب فيها، دقق النظر في إحدى تلك المومياوات، التي تم مؤخراً رفع تقرير عن حالتها، من قبل الخبير الفني للمتحف، ويفيد أن (10) من تلك المومياوات، يتراوح عمرها بين (2500 - 3500) عام، وقد بدأت تتعرض للتعفن، والتحلل، والتلف في قاعة قسم المومياة بالمتحف، الذي لا توجد به كهرباء، ووسائل حفظ؛ فرفع توصيةً بسرعة توفير المواد العضوية الحافظة، واللازمة؛ لتعقيم المومياوات، وراح يركز على المومياة رقم (4)، التي أوصت المذكرة بضرورة سرعة صيانتها، وإنقاذها؛ لأن البكتريا بدأت تنخر فيها، وهي تتآكل بصورة سريعة، ومخيفة..

كان يشعر بانقباضٍ، وقلقٍ يسري بين ضلوعه، وهو يقترب من الصندوق الرابع،، أخيراً.. لاحظ شيئاً مريباً، غريباً، كأنه نملٌ أبيضٌ، يسعى فوق المومياة.. أخرج سلسلة المفاتيح من جيبه، وهو يرتعش!!

فتح الصندوق بحذرٍ، كان يعلم طبيعة المومياة، وحالتها، وتلك البقعتان المحمرتان اللتان تدلان على تعرضها لبكتريا خفية، تنهش فيها بشراسة، لكن كيف وصل هذا النمل؟!!

شعر بجبينه يرشح، وعندما هم برفع الغطاء الزجاجي، استشعر فحةً هواءٍ كريهةً، تنفخ في وجهه، كأنها جيفة، وشعر بشيء ما يسري على ساعديه.. نظر لساعديه؛ لم ير أثراً للنمل الأبيض، ظل معلقاً في الصندوق، تتملكه الحيرة، من أين أتت؟!!

شعر بكائناتٍ دقيقةٍ، غير مرئيةٍ، تسري بجسده، بسرعةٍ جنونيةٍ، أحسنَ بحكةٍ شديدةٍ، كأنَّ براغيثَ تلسعُهُ، سارعَ لإغلاقِ الصندوقِ الزجاجي، وأدار المفتاحَ بسرعةٍ، وراح يغلق المتحف، وراحَ بأفنه مصحوباً بنفحةٍ صدادعٍ، راح يخرق صدغيه ويؤلمه بقوةٍ، وكانت الحكمة تزداد سوءاً؛ فأخذ يهرشُ بشكلٍ مسعورٍ، وقد انتقل الهرش من ساعديه لكل شبرٍ في جسده، فهرول نحو الشارع مسرعاً، وقذف بنفسه في أول سيارة أجرة صادفته، أمراً إياه التوجه نحو أقرب مستشفى حكومي، هذا ما كان من أمين المتحف..

لكن هناك.. في قاعة عرض المومياء في المتحف، لم تسر الأمور كما أراد لها أمين المتحف، لقد ظلت تلك المومياء تتحلل، وتتآكل، وانتشرت بكتيريتها التي زاغت من الصندوق لحظة فتحه لها، كانت بكتريا نقيّة، ظلت حبيسةً لآلاف السنوات، في جلد المومياء المدبوغ بعنايةٍ، بفضل التحنيطِ الذكي، في حالةٍ سكونٍ، بفعل الأجواء الحافظة لها؛ منعها من الاستيقاظ من رقادها، وحالة السبات الأبدية، لكن تغير الجو، وانعدام المواد الحافظة، وبقائها بتلك الصناديق، دون عمل التعقيم والصيانة الوقائية؛ أدى إلى أن تصحو، وتثور، وتخرج من شرانقها، وتستيقظ أخيراً... كانت بكتريا ضارة، عند تعرضها للفساد، أو بالأحرى جمراتٍ معقدةٍ، وخبيثةٍ، تم تركيبها بفعل أيادٍ خبيرةٍ ماهرةٍ، ومدربةٍ، ظلت في حالة سباتٍ عميقٍ قرابة (3200عام)، لكنها الآن صحت من سباتها؛ بفعل تعرضها لدرجة رطوبةٍ عاليةٍ، وحرارةٍ معينةٍ؛ مما تسبب في حالة هيجانها وانتشارها، ولم تعد تلك البكتريا النقية التي كانت عند حفظها وتعرف علمياً باسم (الملوية البولية)، والتي تظل حميدة، وفي حالة تعايشٍ مع الجسد الذي تعيش فيه، ولا تتسبب بأي أضرار له، أو لمن يلمسه، لكن في حالة تفاعلها مع مثيرٍ خارجي من خارج دورة الحماية، والسكون التي تعيش فيها، وخرجها عن حاضنتها تلك، تتحول إلى نوعٍ خطيرٍ جداً، وسامٍ من أخطر أنواع البكتريا، تتحول من نافعة إلى ضارة، ولا يمكن وقف خطرهما، وتكون عدوانيةً جداً، بحالةٍ هياجٍ شديد.

وأول اكتشافٍ لهذا النوع من البكتريا، كان في مومياء الرجل الجليدي، أو أوتسي وتعود ل(5300 عام)، وعثر عليها في بولزانو في الحدود النمساوية الإيطالية، ويُعتقد بأن المحنطين الذين قاموا بتحنيط الجثة، هم أطباء بارعون جداً؛ فقد قاموا بذلك لحماية الجثة من اللصوص، بعد أن غيروا جوها، من مكان حفظها الآمن، تحت الثلوج، أو المقابر الصخرية، أو المدافن ذات التهوية، والحفظ الجيد، إلى بيئة غير مناسبة؛ فتفاعل مع الجو غير المناسب لها؛ لتتهيج، وتنفصل عن كبسولاتها، وتقوم بمهاجمة الأشخاص المعتدين على الجسد الحاضن لها، الذي هو بمثابة كيانٍ ومنزلٍ لها؛ فتسبب الأمراض، والأوبئة، والقروح، والبثور التي لا تتوقف عند هذا الحد فحسب، بل لكل من يشتمها، ويلامسها من إنسانٍ، وحيوانٍ، وطيورٍ، ويطلق عليها البكتريا المنتقمة؛ نظراً لأنها لا تهاجم أحداً، أو تثور، إلا إذا تغيرت حرارة الجو للمومياء، وتبدأ بالفساد، والتحلل؛ فنورانها من صحة المومياء.. أي إذا تم المحافظة على المومياء بمكانٍ صحي، وآمن، وتم توفير الرعاية، والتعقيم اللازم لها، وتم إنقاذها من التحلل؛ فهي تظلُّ في حالة سباتها الأبدية، وإذا تعرض جسدها الحاضن المومياء للفساد، والتلف؛ فإنها تتحول إلى حالةٍ من الهيجان، والفتك بكل من تصادفه، ويقترّب منها، ويقع في طريقها، يقال أن هذه البكتريا تم تدريبها على الهجوم المحتمل بطريقة ذكية جداً.. فهذا النوع من البكتريا المهاجم غير معروفٍ إلى الآن، وقد راحت تفاسير العلماء تفسر ذلك تفاسير

شتى.. منها ما حصل في مصر العام (1922 م), بعد اكتشاف مقبرة الفرعون الشاب (توت عنخ آمون)، وما تلاه من نزع القناع الذهبي عن وجهه، وإخراجه من تابوته، حيث توفي في تلك الواقعة خلال بضعة أيام فقط (40) عالمًا، وباحثًا، ودارسًا شاركوا في عملية إخراج تلك المومياء، وظل لغزها يحير الكثيرين، وعزوها للعدو الفراعنة التي كشفت عنها بعض الكتابات، في جدران المقابر الفرعونية..

توفي أمين متحف الجامعة, بعد أن ظل أيامًا يعاني, كانت أسباب الوفاة غامضة!! لم يستطع أحد أن يشخص الحالة بدقة, ويتعرف على نوع تلك البكتريا القاتلة التي أدت لوفاة, بيد أنه تم حفظه جيدًا, في كيسين محكمين, وإيداعه ثلاجة الموتى, وتم أخذ عينات من تلك البثور, ومن دمه, بعد يومين كانت العينات في طريقها للخارج؛ للفحص في أحد مختبرات الطب, في جمهورية روسيا الاتحادية..

بعد أيام, أبرق الروسُ لليمن بالنتيجة, وهي أن العينات غير نقية, وقد فسدت لطول المسافة, والمدة, حيث وصلت لديهم فاسدة, وأنهم سيرسلون وفدًا طبيًا بمعداته؛ للمساعدة في الفحص, والتحليل, وعلاج الحالات المصابة, مصحوبًا بشحنة من المساعدات, والعلاجات, والمستلزمات الطبية..

وبعد الموافقة على طلب وصول الفريق الطبي الروسي, راح ذاك الطبيب الروسي الذي يتبع الاستخبارات الروسية (K.G.P) يقرأ التصريح بإرسال الفريق الطبي الروسي, وهو يبتسم, وكانت ابتسامته تخفي وراءها أمرًا خطيرًا, يتجاوز المرض, وينبئ بلعبة استخباراتٍ قذرة.

## الفصل الثالث عشر

كانت الشمسُ ترسلُ أشعتها الذهبية، على جبال المحويت الخلابية، ومبانيها الجميلة، الجذابة؛ فتكسوها رونقًا وحسنًا، (111 كم) قطعناها من صنعاء إلى المحويت، ومثلها من مأرب لصنعاء، تستحق هذه المدينة الفاتنة أن نتجشم العناء والوعناء؛ لأجل أن نصلها، مدينة الأساطير، والضباب، والتاريخ، مدينة تضم في جنباتها ألف معلم تاريخي وحضاري، كل مديريةٍ من مديرياتها التسع؛ عبارة عن متحف طبيعي مفتوح، بل يكاد ذلك يسري على كل قراها وعزلها أيضًا، مدينة تصنع الدهشة فعلا، تفاجئك كل مرة بكشف أثري هام..

ذات مرة، فلاحٌ يعثرُ على كنز مدفون في أرضه، وهو يحرثُ الأرض، وتارةً من يريد البناء يكتشفُ مدينةً أثريةً تحت الأنقاض، وهو يحفرُ، وتارةً أخرى راح يصادف مقبرةً صخريةً في قلب الجبل، وهو يطارد شاةً شردت منه، وهكذا... كلُّ فترةٍ وأخرى اكتشافٌ أثري هام، ومع هذا لازالت هذه المدينة لم تحظْ بالاهتمام، والدعم الحكومي والعالمي، ولم توضع على قائمة مدن التراث العالمي، التي يجب لمحافظة عليها...

ها نحنُ قد صرنا في رحاب التاريخ، والجمال!! كم هو بديعٌ جوها!! ومختلف تجمع تلك الطوبوغرافيا الساحرة بين مناخ الجبل والسهل! مما جعلها تشكل لوحةً فنيةً جميلةً، بمدرجاتها الزراعية الخضراء، وجبالها العالية الصخرية ذات الصخور الكلسية، والبالزنتية، والجوارسية التي تعود للزمن الجيولوجي الوسيط، وأزمنة جيولوجيةً مختلفةً، تشكلت من ملايين السنين، وكانت تتخلل تلك الجبال هضابٌ، ووديانٌ، وأحواضٌ مائيةً، ومجارٍ تتدفق منها مياه السيول، والغياول من تلك الجبال الشاهقة إلى القيعان، ويستخدمها الأهالي في الشرب، والري، وزراعة المحاصيل لاسيما محاصيل الحبوب.

كان سفرنا يوم الإثنين؛ وقد وجدناها فرصةً سانحةً لزيارة المدينة، وأسواقها الشعبية المزدهمةً بالباعة، والمشتريين، ومختلف أنواع المنتجات، والبضائع والخضروات، والمواشي، ذلك (سوق الرجم) الذي ينتصب يوم الإثنين من كل أسبوع، بجانب الخط الإسفلتي، ويحضر فيه الباعة من كل أرجاء المحافظة، والمحافظات المجاورة؛ للتسوق، والتبضع، وعرض سلعهم ومواشيهم، وكل ما يخطر على بالك وما لا يخطر، يتم عرضه بدءًا من المواد الغذائية، والفاكهة، والمشغولات اليدوية، والأطعمة الشعبية المصنعة في وسط السوق، المنتجات الحرفية، بيع الجنابي، العسوب، المعدات الزراعية البدائية، بيع الحلبي، والخواتم الفضية.. ابتعنا بعض الهدايا من المشغولات اليدوية لنا وللأهل، بعد خروجنا من سوق الرجم الذي كان يقام باكراً، من بعد صلاة الفجر، ويستمر حتى المغرب، وأخذنا ما نحتاجه من أطعمةٍ وفواكه، وقات، وهدايا، توجهنا لأحد فنادق المدينة، واستأجرنا ثلاث غرفٍ، كلُّ شخصين يبيتان في غرفةٍ مكونة من سريرين..

وبعد الاغتسال، وتغيير الملابس؛ تناولنا الطعام، وبعض الفاكهة، وانطلقنا نتسكع في بعض الأسواق القديمة، والمعالم الأثرية البارزة؛ فزرنا (سمسرة السبيل) التاريخية،



و(سمسرة الصافي)، اللتان تعتبران معلمين تاريخيين بارزين للمدينة، ثم زرنا بعض المعالم الأثرية المتفرقة، وتوجهنا بعدها لـ (جبل ذخار)؛ لزيارة المقابر الصخرية الأثرية هناك، والتي تعود لـ (3500 عام)، كان صعود الجبل متعباً، ومرهقاً، وعند الوصول لأسفل المقابر؛ كان علينا أن نتسلق سلماً حديدياً؛ لنصل إلى تلك المقبرة الصخرية الرائعة، شعرنا بالرهبة، والخشوع، ونحن نلج إليها، وكأننا في حضرة ناسكٍ زاهدٍ، يتبتلُ في محرابه، نخافُ أن نزعجه، كم هم فنانون، ومهندسون بارعون أجدادنا القدماء!! كيف وصلوا إلى هنا!! واستطاعوا أن ينحتوا من الجبال بيوتاً ومقابر؟! كيف طوعوا هذه الصخور الصماء؟! وحولوها لمقابر بهذا الجمال والإبداع؟! كنا في حالةٍ من الصفاء، والنشوة، والفخر، كان لجوارنا أيضاً زوارٌ، حضروا من محافظاتٍ أخرى؛ للاستمتاع بهذا الجمال!!

تحولت في الآونة الأخيرة زيارة الأماكن التاريخية لسياحةٍ داخليةٍ جميلة، تقبل عليها الأسر في الأعياد، والمناسبات بعد أن كانت تذهب للحدائق، والمتنفسات، والمدن الساحلية أصبحت ثقافةً عشقِ المدن التاريخية، وزيارتها ثقافةً مترسخةً في الأذهان تدل على رقي ودوق، وتعكس ما وصل إليه الإنسان اليمني من الإدراك، والمسؤولية يربط الآباء للأبناء بحضارتهم، وتاريخهم، وتنشئتهم على حب تاريخنا ومآثرنا، وتربيتهم على المثابرة، وغرس قيم الولاء، وحب الأرض، والافتخار بهذه الحضارة الخالدة..

كانت تلك المقابر تطل على المدينة في الأسفل وكأنها تحرسها، وتخشى عليها من خطرٍ ما، وتجاورها عدة مقابر أخرى، كان منها ما نستطيع الوصول إليها بسلام، ومنها بعيدةٌ وعرّة، يصعبُ الوصول إليها، كان المكان يشعرنا فعلاً بعراقتِه، تشعر فيه بعظمة التاريخ، وبقدمِ الزمانِ، وفرادةِ المكان، في الماضي، كان هذا المكان يعجُّ بآلاف السياح الأجانب سنوياً، يحضرون إليه من مختلف أصقاع الأرض، يزورون أرض المومياء، ومقابرها العجيبة التي نحتت في الصخر، ويلتقطون الصور التذكارية، ويبتاعون الهدايا، ويدونون المعلومات عنها بشغفٍ، وحبٍّ في مذكراتهم، ويوثقون، ويكتبون عنها في كبرى الصحف العالمية، وينتجون عنها أفلاماً وثائقية، تحكي عظمة هذه الحضارة، وأصالتها، وعبقريّة صناعتها الأوائل، وكانت بعثة هوارد رد الأمريكية من تلك البعثات التي قدمت العام (2009م)، وقد صورت أول فيلم وثائقي، يتحدث عن أرض المومياء، من إنتاج قناة ناشيونال جرافيك أبوظبي، وتلتها بعثة فرنسية، بنفس العام أيضاً، قامت بدراسات هامة للمقابر الصخرية، والمومياءات التي وجدت فيها.

كان محروس أول من تحدث عن الفيلم الوثائقي للمومياءات اليمنية، وراح يحكي بانبهار: لقد شاهدت هذه المقبرة في فيلم بقناة (ناشيونال جرافيك) يا الله!! لكن لم أكن أعلم أن المكان هنا أكثر جمالا، وإثارةً مما شاهدته في الفيلم، ويقال أن الفيلم الذي تم تسجيله هنا العام (2009م)، كان أطول كثيرا مما تم عرضه، وتم حذف وقص مشاهد منه؛ لاعتباراتٍ لا نعلمها، كما أنني لازلت محتاراً عن سر الفأر المحنط الذي وجد مع أحد المومياءات؟! هل للأمر علاقةٌ بتعويدة قديمة؟! رحت أنني على محروس:

- شكرا لك محروس، معلومات قيمة؛ سأشاهد الفيلم من النت لاحقا. ما أروع الأجواء هنا!! أكاد أطيّر من الفرحة!! رد خالد:

- فعلا أشعر بالزهو، والفخر، أنني ابن هذه الحضارة العظيمة، التي كانت تحت الصخر بهذا الجمال، والإبداع، وتصنع المومياء، وإني لم أتخصص في هذا المجال، إلا لحبي لهذه الحضارة العظيمة، وزهوي بها تيتها، والتي تدهشنا يوما بعد يوم، وتكشف لنا كل يوما المزيد من الأمجاد الخفاقة، والأفكار الخلاقة، والأسرار العظيمة، وراح لبيب هو الآخر يشاركنا الزهو:

- لقد كنت، وأنا أشاهد هذا الكم من الحرب، والدمار، والقصف، وأرى انسداد أفق الحل السياسي في بلادنا، أقول في قرارة نفسي مع استمرار الحرب، وولوجنا بسرعة مخيفة لعامها الخامس.. لماذا يارب خلقتني يمينا؟! ليتني كنت ثريا خليجيا، أو حتى موزمبيقيا، أو فقيرا هنديا، لكن مع زيارتي يومنا هذا للمتاحف، والأسواق، والمعالم التاريخية، ومن ثم لهذه التحف الفنية الرائعة، وهذه المغارات العجيبة الأسرة للقلوب، الساحرة للعقول، تغير الحال، لقد انقلبت آمياتي التي كانت عن يأس، وإحباط إلى تفاؤل وأمل، فنحن أحفاد بناء هذه الحضارة، العظيمة، الشامخة، لا بد أن يكون لدينا جينات وراثية من أجدادنا العباقرة، ولاشك سيكون بينها جينات تصنع جسور السلام، وتهندس طرق المحبة، كما هندست وصنعت هذه المقابر الصخرية المبهرة، التي لا تخطر على قلب بشر، ويعجز أذكي اللصوص، وحتى علماء الآثار العثور عليها، بإمكانياتهم، وفكهم لشفرات خط المسند، لم ينجحوا، أو يخطر على بالهم أن هذه الحجارة الصماء، العملاقة تخبئ في بطونها، مقابر منحوتة، ومجهزة تضم رفات موميאות، بشرية، محنطة باتقان مذهل..

كان نعيم منهما في التوثيق، تارة في موبايله، وتارة بكاميرا حديثة معلقة في رقبته، وراح يشير لنا؛ لنرتص جميعا جوار بعض مع تلك الكوات الفريدة، ثم ناول الكاميرا لأحد الزوار، وانضم إلينا، وكنا حريصين على أن يظهر أحد النقوش وراعنا، وألا نحجبه عن العدسة، التقطت لنا عدة صور تذكارية، رحنا نتطلع من خلال المقبرة الصخرية للمدينة، وما حولنا من الجبال، وبينما نحن مسرورون، وتجيش بأفئدتنا، وخواطرنا مشاعر فياضة من البشر، والسرور، والحبور، راحت ترتسم على قسماات خالد ابن خالي علامات حيرة، وتحولت لقلق، ثم أخذ يشير إلى مغارة صخرية غير بعيدة في تبة موازية لنا، ولاحظنا جسده يقشعر مع إشارته، وهو يهمس الماعز الجبلي الأسود.. إنها نفس القدمين الغليظتين ذات الشعر الكثيف، إنه ماعز جبل مأرب القاحل، واكتسى وجهه رعبا لا حدود له، جعل القلق يعصف بنا جميعا، ويثير فضول بعض الحاضرين، ولم نشاهد شيئا مما يهذي به.

## الفصل الرابع عشر

نجح الدكتور هوارد رد سريعا في استخراج كافة التصاريح اللازمة؛ لزيارة متحف الجامعة، والمقابر الصخرية للمحويت، وعدة أماكن أثرية غير متاحة للعامّة، وتتاح فقط في المناسبات، لكبار الزوار من المسؤولين، والوفود من الخارج، وهذا الأمر حرم الكثيرين من الباحثين، والدارسين، والطلاب من الاطلاع على هذه الثروات الأثرية، وتطبيق بحوثهم، وعمل الدراسات العلمية الجادة، وإخراجها للعلن، لاسيما المومياءات التي يضمها متحف الجامعة التي لازال بعضها في أكياسها الجلدية، وفي وقت لاحق نجح الدكتور هوارد رد أيضًا باستخراج تصريح خاص جدًا، لإحدى المومياءات، وأخذها وسط حراسة مشددة، وعناية فائقة لأحد المستشفيات الخاصة، وإجراء كشف محوسب مقطعي عليها؛ للتأكد هل تم إخراج المخ وقت التحنيط، أم مازال موجودا؟؟

تهللت أسارييرُ الدكتور هوارد، وهو يسلط شعاعًا من مصباح يدوي صغير بيده، على إحدى المومياءات، وراح هو والدكتورة جوان يتأملانها، ويتناقشان بصوتٍ مسموع، حول عبقرية تحنيطها، وكانا يرسلان الأشعة على الأنف، ويطلعان على تجويف الجمجمة، وهل تم إخراج المخ؟؟ كما يتم في عملية التحنيط لدى التشيلين، والمصريين القدماء؟؟ أم مازال موجودا؟؟ وهالهم عندما لاحظا غشاءً رقيقًا ملتصقًا، مما يؤكد احتمال عدم إفراغ المحنطين اليمينيين القدماء الدماغ من المخ، وعند وقوفهم أمام مومياء سيدة يمنية محنطة في صندوق مجاور انتقلا إليه، راحت نظرات الإعجاب تتسع في عينيها، وهما يتأملان ذلك التحنيط المتقن، حتى ظفرة الشعر كانت لاتزال ممتدة، ومدبوغة، ومدهونة بالطيب..

راح هوارد يسترجع بخيلاء الأيام القليلة التي مضت، عندما كان يتناقش مع الطالبة هيلين روث، وكيف وضعته على أعتاب هذه الرحلة المثيرة، وتسببت بمجيئه إلى هذا البلد العريق، الذي كان يُعرف قديما باليمن السعيد، فراح يهمس محدثًا نفسه مثليا على هيلين روث:

"شكرا جزيلا لك من أعماق قلبي، هيلين العزيزة"، وقد اعتزم في نفسه أن يمنحها العلامة الكاملة في مادته ثقافة المومياءات تقديرا لجهودها، وصناعتها لهذه الرحلة، التي لم تكن بالحسبان، واطلاعه على هذا الكنز الثمين، الذي لا يقدر بثمن، وإضافتها الكثير لخبرته الأكاديمية والعلمية.

كان شغله الشاغل هل تم إفراغ المخ من الدماغ أم لا؟! وكيف عولج حشو الجسد؟؟ هل تم إخراج الأحشاء كما يفعل المحنطون الفراعنة؟؟ أم عولجت بمواد حافظة؟ ومحتفظ بها بداخل تجويف الجسد؟؟ كان جمال التحنيط للمومياءات التي يشاهدها، وحسن دباغتها، وحنيطها الماهر، يغريه بالكشف عن مومياء جديدة لسببين رئيسيين:

أولا: يريد أن ترتبط هذه المومياء برحلته العلمية هذه، وتحمل اسمه، وسيقررهما في كتابه الذي سيؤلفه عن هذه الرحلة لطلابه، وأيضا بالفيلم المزمع تصويره لهذه الرحلة، والذي قد

بدأ بالفعل مع أول خطواتهما لأرض اليمن، وكان يرافقه مصورٌ، ومخرجٌ خاصٌ لإحدى قنوات الأفلام الوثائقية.

ثانياً:- يجب أن تكون المومياة التي سيجري عليها دراسته سليمةً، ونقيةً، وطازجةً لم تعبت بها الأيدي، ويتم استخراجها من المقبرة حسب ما تركها القدماء الأوائل، ولم تضاف لها موادٌ حافظةٌ عصرية، ويريداً بطريقة حفظها القديمة؛ فهذا سيوضح الكثير عن عمر المومياة، والمواد التي استخدمت في التحنيط، ويكشف عن طريقة العيش، والمجتمع في تلك الحقبة..

كان القلق ينهش داخله، وهو يخاف ألا يجد ما يطمح إليه، والتفت محدثاً الدكتورة فيتشر:  
- ما رأيك بما شاهدتيه؟؟ شيءٌ يدعو للإعجاب.. ردت فيتشر:

- فعلاً! بالطبع.

- لم يكن يخطر ببالي أن هيلين روث تلك الطالبة الصهباء، كثيرة الفضول، والأسئلة على حق، كنت متشككاً في كلامها، وها هي قد كسبت الرهان، والتحدي، لقد راهنتني على الدرجة الكاملة، والنهائية لها بمادتي.

أجابته فيتشر:

- إنها تستحق - بكل تأكيد- المركز الأول مع مرتبة الشرف بمادتك.

استطرد هوارد رد:

- بكل تأكيد. لاشك في ذلك، لكن ما يقلقني هو أن نظل نبحث في الجبال، والصحراء دون العثور على مومياةٍ نقيةٍ، لم يتم العبث بها، كالذي يلهث وراءَ سرابٍ ماءٍ في صحراء قاحلةٍ!  
أجابت فيتشر:

- حسب ما شاهدته هنا، ومن خلال اطلاعي على ما كتب عن اليمن؛ فهي لازالت بكرًا، ولم تكتشف بعد بشكل علمي دقيق، وكل ما يتم الإعلان عنه؛ هو وريث الصدفة، ولمناطق أثريةٍ محدودةٍ، لم تغطِ كل مناطق اليمن الأثرية، والمحتمل وجود آثار بها، وإني على ثقة من أننا سننجز كما نجحت هيلين روث، في وضعنا على عتبات هذه البعثة الأثرية التي سيكون لها شأنٌ كبيرٌ، وسنجد مومياة نقية، بالرغم من الرهبة والقلق الذي يعصف بي، ولا أملك كنهه؟ إن هذا الكنز القيم سيضيف الكثير جداً لمعرفتنا العلمية والأكاديمية، إن هذه المومياوات تمثل معراج التفوق الإنساني لهذه الحضارة الخالدة التي كانت تصنع المومياوات، فضلاً عن صناعة البخور، والعمور، والطيب، والخنجر، والسيوف، والأواني النفيسة، وبناء السدود، وناطحات السحاب..

رد هوارد رد:

- سوف أبرق الآن للبرفسور(دون بروفيل) من جامعة يورك الانجليزية، فهو أحد الخبراء الإنجليز الرواد المتمكنون في علم المومياة، والأجساد البشرية القديمة؛ لنتأكد بشكل علمي دقيق من وجود الدماغ هنا، وهل تم كسر الأنف؛ لإخراج المخ، وإعادة تركيبه؟؟ من يعلم ربما

المادة التي في الدماغ ليست المخ؟ قد تكون مادةً حافظةً محشوةً، ويجب ألا نعتمد على المشاهدة، حتى إن أظهرها التصوير المحسوب، فلن نستطيع أن نجزم بماهيتها على وجه اليقين دون البرفسور (دون بروفيل)، وحتى معالجة تجويف الجسد سيفيدنا بالفصل فيها.

قالت فيتشر:

- كلامك سليم، نحن فعلاً بحاجة لخبرات الدكتور دون بروفيل، ولمن دواعي سروري أن التقى به، فمنذ آخر مؤتمر أثري جمعنا به في باريس، منذ أربع سنوات، لم ألتق به، وإنني في شوقٍ، ولهفةٍ للالتقاء به، ومعرفة ما سيفصل فيه.

لم يضيع الدكتور هوارد رد وقتاً، فمع وصول البرفسور دون بروفيل، كان هوارد قد أعد كل شيء، ساعةً واحدةً هي التي قضاها البروفسور في راحةٍ، ثم انطلق بمعية هوارد وفيتشر لأحد المستشفيات الخاصة، حيث كان كل شيء معداً، ومجهزاً، وكانت المومياء تحت الحراسة، وبرفقة خبيرين من الجامعة، يبدو أنها في عهدتهم، وتم حملها برفقٍ، وبواسطة حمالة خاصة من القماش المقوى المسنود بدعائم، وتمديدتها على اللوح المخصص لجهاز الأشعة المقطعية، وماهي إلا ثوانٍ حتى راحت الشاشة تستعرض ذلك الجسد الموميائي الذي يعود لقراءة (1300 عام ق.م)، اندهش الدكتور هوارد رد، عندما نطق البرفسور دون بروفيل، وهو يشير إلى الشاشة التي أظهرت منطقة الجمجمة، يغطيها لونٌ ضبابيٌّ:

- هذا الدماغ لم يتم نزعه، ولم يتحلل مع كل هذه السنين العديدة، فهو قد عولج بشيء بسيطٍ من المواد، كذلك لا يوجد أي إشارات لحشو مواد حافظة، أو كسرٍ في الأنف والجمجمة، ويبدو أنه تم معالجته عن طريق التبخير، وما شابهه.. هذا شيء يدعو للدهشة، والإعجاب.

انتقلت الابتسامة من شفتي هوارد؛ لتعم الحاضرين، وتم بعد ذلك الانتقال لموضع البطن، وراحت الشاشة تنقل التجويف الذي عولج بعددٍ من مواد العطار، والتوابل، ومواد حافظة أخرى، وراح البرفسور يملي تقريرٍ عملياً فحص المومياء التي تمت وكبير أطباء قسم الأشعة يطبع على جهاز الحاسوب التقرير الذي بدا له غريباً، وأول تقرير طبي بحياته يكتبه عن مومياء توفت منذ (320) عقداً من الزمن، وشعر أنه في أضغاث أحلامٍ متشابكةٍ، راجع الدكتور ما تم طبعه على الحاسوب، ووجّه بتعديل كلمتين، أو ثلاث، ثم أمر بطباعته ورقياً، مع طبع قرص (CD) مرفق بالإضافة للنسخة الكربونية للجهاز، ومن ثم أوصى البرفسور بأن ترسل بعض العينات من المومياء، تأخذ من منطقة الرقبة لمعامل (بيتا) بولاية كاليفورنيا الأمريكية؛ لتحديد العمر الدقيق للمومياء، وكذلك تحديد سنّها، وأيضا تحديد المواد التي احتوتها الحشوة، في تجويف المومياء، عن طريق فحص بعض الأوعية، والأثاث الجنائزي دون الحاجة لفتح خياط المومياء، الذي قد يفسد عملية التحنيط، ويشوهها.. كانت هذه هي آخر مرةٍ تخرج فيها المومياء من المتحف، ولم تخرج بعدها قط، وكان من حسن الحظ أن تم إعادة المومياء سريعاً للمتحف، حيث أنه لو تأخرت قليلاً؛ لكانت تلك البكتيريا القاتلة المخبأة في التجويف مع حشوة المواد الحافظة، من الممكن أن تنهض، وتستيقظ، ولكن لحسن الحظ تم إعادتها سريعاً، وتعرضت للتبريد بالوقت المناسب، حيث قدر لها أن تستمر في سباتها غير المعلوم في النوم، إلى ثمان سنوات بعد الآن.

## الفصل الخامس عشر

منتصف العام (2017م) تناقلت مواقع الأخبار، والتواصل الاجتماعي خبرين هامين، ومؤسفين على صلةٍ بالتحنيط، أولهما من سويسرا، حيث تم العثور على جثتي زوجين في الجليد، بعد فقدانهما منذ (75 عاما)، وتحديدًا في العام (1942 م) حيث عثرت السلطات السويسرية على بقايا مجمدة، ومحنطة في جبال ديابلريتس، إذ تم العثور على الجثتين في نهر جليدي بالقرب من منتجع (غلاسي 3000) عند الحدود الفاصلة بين كانتوني برن وفالي، وغير بعيدٍ عن منتجع غشتاد الشهير على ارتفاع (2615) متر، وقد حفظهما الجليد من التحلل، وقالت صحيفة (لوماتين) السويسرية: أن الجثتين تعودان إلى مزارعين قُدا قبل (75 عاما)، وهما (مارسيلين وفرانسيس دومولين)، وكانا قد خرجا لشراء حليب أطفال لطفليهما، كما قال مدير التزلج في محطة (غلاسي 3000) (برنار تشانين):

- إنَّ الجثتين عثر عليهما محفوظتان بشكل جيد جدًا، وكانتا ممددتين الواحدة إلى جانب الأخرى، وعلى مقربةٍ منهما حقيبتان، وزجاجة الحليب، وكتاب، وساعة، الجدير بالذكر أن الطفلين اللذين ضحى الزوجان بحياتهما لأجل جلب الحليب لهما عاشا؛ حتى بلغا عتيا من العمر، وحتى هذه اللحظة لازالا حيان يرزقان.

أما الخبر الثاني، ومفاده تعرض مومياوات متحف جامعة صنعاء للتلف؛ نتيجة انقطاع الكهرباء، وتوقف أجهزة التبريد، وضبط قياسات الرطوبة، والحرارة، وانعدام المواد الحافظة، بسبب الحرب التي تسببت في صعوبة توفر المواد الحافظة، وصعوبة وصول الكثير من السلع، والأدوية لليمن، وأدت لانبعث روائح كريهة من قسم المومياوات، وهددت الكثير منها بالتلف، مع ذلك جاهد الكثير من الأساتذة في الجامعة من محبي هذا التراث الإنساني العظيم في عمل إسعافات أولية، ومحاولات لتفادي وقوع الكارثة، وضياع ثلاثة آلاف عام من الإبداع، والحنيط، والتراث، والتاريخ، وأتت محاولاتهم ثمارها، وخففت بعض الشيء من تسريع تعفن المومياوات تلك.. لكن تلك الفيروسات القاتلة التي كانت مخبأة على شكل مواد حافظة، ضمن جسد المومياء، وكانت عبارة عن فيروسات خبيثة، ظلت نائمة ومحبوسة لآلاف السنين، ضمن عملية تجميد، وسبات اصطناعي، ومحفوظة بواسطة أصماغ، ورتنجات، ملصقة بجسد المومياوات؛ بدأت تخرج من ذلك الغشاء الراتنجي الذي كانت محبوسة بداخله، وراحت تنتشر في كثافة في متحف المومياوات، أكثر بكثير مما أحس به جواد أمين متحف المومياوات.

أخذت لجنة مشكلة من وزارة الصحة، والترصد الوبائي، ومن وزارة الداخلية، ومن هيئة جامعة صنعاء، ومن وزارة التعليم العالي، ومن الهيئة العامة للآثار، عملها في التحري، واستقصاء الحقائق، وأول ما باشرت عملها في جامعة صنعاء، وكانت مصحوبة بفريق طبي، على درجة عالية من التدريب، والجاهزية، ويرتدي بدلات واقية شبيهة ببدلات رواد الفضاء، ويحملون بظهورهم أسطوانات مزودة بمرشات؛ لتعقيم المكان، وبعض الأدوات، وأجهزة فحص التلوث، في حين مكثت اللجنة تراقب الوضع عن كثب، كان الفريق الذي بدى انتحاريا

أكثر منه طبيًا، نتيجة خطورة الوضع في المتحف يفتحم المتحف، وكانوا مزودين أيضًا بأجهزة اتصال لاسلكية.

فتح أول رجال الفريق المكون من أربعة أفراد قاعة المتحف، أصدر الباب الخشبي البني صريرا قويا، زادت من حالة الخوف التي تعترتهم، كان المكان يشعرهم برهبة حقيقية، لم يعودوا بحاجة للحذر، أو النصح، كانوا في حالة تدعو للثناء والشفقة، راحوا يقاومون جنبًا طافحا، وصوت عقلٍ خفي، ينبعث من أعماقهم، مع هذا قرروا المجازفة.. فطبيعة عملهم تقتضي ذلك، والآمال معلقة عليهم في احتواء هذه البكتيريا مبكرًا، فكم من زملاء لهم في أصقاع الأرض قضوا في سبيل عملهم العظيم! وأداء واجبهم الإنساني الذي يتحتم عليهم عمله، للحفاظ على حياة الملايين. فهم كما قد أنقذوا آلاف البشر بمهنتهم الإنسانية النبيلة، ها هم أيضا يخوضون غمار إنقاذٍ مقدسٍ من نوع آخر، يتعدى دور المسعف، والمداوي إلى دور المدافع والمحامي.

كانوا بحالة خوفٍ، ورعبٍ شديدين، راحوا يخطون بتوجس، كان جو الهدوء سائدا في المكان، ضاعف منه التوقف الطارئ للدراسة في الجامعة، تلسعهم وحشة مخيفة، أذهبت عنهم الأنس، وضاعف من الغربة، والهواجس في أنفسهم، قاموا بفتح الخراطيم، وابتدؤوا بالرش، قبل أن يصلوا لغرفة الموميאות، هكذا وجدوا أنفسهم - لا إراديا - يخرقون التعليمات التي تقتضي بالبداية بالرش، بدءًا من باب قاعة الموميאות..

على غير مقربةٍ منهم، كان هناك مصورٌ مجهزٌ بكاميرا دقيقة، تعمل بالأشعة تحت الحمراء، ويرتدي أيضًا بدلةً مشابهةً لبدلتهم، يصور من مسافةٍ بعيدة، وقد حرص على عدم الخطو نحو المتحف، خافوا أن تنضب المادة المعقمة، استعادوا رباطة جأشٍ مفقودة، توقفوا عن الرش بإشارة من قائد الطاقم، واستمروا يزحفون ببطء.. أخيرا لاح باب قاعة غرفة الموميאות، هدوءٌ رهيبٌ يلف المكان، إلا من أصوت تنفسهم، أمطروه بالرذاذ المتدفق من خراطيم التعقيم، ثم راح قائد الفريق ينتقي أحد المفاتيح من سلسلةٍ تحيط بمعصمه، وفتح القفل، ثم وضع القفل أرضا بهدوء، أشار بإصبعين للثلاثة الآخرين، ثم دفع الباب بقوة، وعنفٍ، وخفض من كتفيه، وانحنى بشدة؛ ليتيح للبقية في صبِّ غضبٍ مرشاتهم على القاعة، وأخذ يتراجع للخلف، وهم يتقدمون، كانت مرشاتهم مزودةً بغازٍ وضغطٍ قوي، يصل مداها لستة أمتار، وتدفع مادة التعقيم لمسافةٍ بعيدة، وتشكل بطانةً عازلةً للفيروس عن محيطه، بل ذات خاصية تدميرية قوية، كانت شبيهة بطفاية حريق الكربون، المستخدمة لإطفاء حرائق المكاتب، والأجهزة الكهربائية، استمروا بالرش، عندها تقدم صاحب الكاميرا الحرارية المتقاعس، وراح يصور، وانتابه الفزع، وصدرت عنه شهقةٌ عظيمة، من حجم ما نقلته له الكاميرا الحديثة من أهوالٍ، لم يكن ما يبصره عبر عدساتها مجرد بكتيريا.. كان يبصرُ مستعمرةً كبيرةً من البكتيريا، أخذت تتراقص كأقراصٍ حمراءٍ شبيهة بحبات البلور، وكانت تتشكل بعدة أشكالٍ قبيحةٍ، ومقرزة، تثيرُ الرعب، ولاحظها تتساقط تحت زخاتٍ شابورة التعقيم، وراح يوشر لهم بالأماكن، والجهات التي لا زالت تحيا فيها، وتتفاعل تلك الكائنات الدقيقة، ثم طلبوا مساعدة أفراد آخرين؛ فحضر خمسة أشخاص آخرين، تم تزويدهم بالإشارة بعملية الرش، والتعقيم، وانسحب الأربعة، وبقي المصور مع الفريق الثاني، ثم تمت المرحلة الحاسمة، والأخيرة، وفتح (12) صندوقًا، بسرعةٍ قياسية، من قبل أحد أفراد الطاقم، وكان الآخرون يقومون بعملية الرش؛ حتى اختفت تلك الكائنات الدقيقة القاتلة تمامًا من الكاميرا

الحرارية، عدا جثة مومياء وحيدة، كانت الكاميرا تهتز عند تسليط العدسة عليها، وتتموج لأسباب مجهولة، ولم يعرف إن كانت تطهرت؟ أم لا؟؟ في الأخير قرروا أن يعطوها جرعة مضاعفة من الرش قبل أن يتدخل صوت من الخارج، من فريق المتابعة، يأمرهم بالتوقف، حيث سيؤدي لعطب المومياء هذا الحرص المبالغ فيه، وبدا أن المعركة تسير في صالح فريق التعقيم، تم القضاء على البكتيريا الضارة، وتم تطهير المتحف من البكتيريا القاتلة، وتنظيف المكان تمامًا، ورفع البودرة التي خلفها التعقيم، والاحتفاظ بها بأكياس حرارية متينة، ثم إحراقها في حفر في وسط مقلب النفايات، ثم ردمها بالتراب، أعقب عملية التنظيف تلك غسل القاعة جيدا بالماء، والصابون، والكلور، ومنظفات عدة من قبل شركة مختصة، وعزل الموميאות، وتغيير صناديق نظيفة، واستدعاء خبراء ترميم؛ للمفارقة، وعمل اللازم لها، وتوفير المحاليل الكيميائية، والمواد الحافظة، والتي كانت مفقودة منذ فترة، وتزويد المتحف بمولد كهرباء، وتوفير مادة الديزل على حساب عدة منظمات تهتم بالتراث الإنساني، بعد أن وجهت الجهات المختصة، وإدارة الجامعة نداءً عاجلاً؛ لتفادي كارثة حقيقية ستطال أهم كنز إنساني يماني، قد لا يتكرر، ويجود الزمان بمثله..

نزل الفريق الوزاري، بعد يومين للمتاحف، كان كل شيء قد عاد لطبيعته، ووضحت السيطرة على الفيروس، واحتوانه باكرا بأسرع مما تصور الكثيرون، أو هكذا يظن، وفي المستشفى كانت الأمور أيضا تتجه نحو الحسم هي الأخرى، وتم احتواء الوباء أيضا بفضل الفريق الطبي الروسي، الذي وصل، وساعد في ذلك، وقدم الكثير من المساعدات، والمستلزمات الطبية، والعلاجات، وتبرع بمواد حافظة، لكن يبدو أنهم كانوا يخفون شيئا ما، فاهتمامهم الزائد لم يكن منصباً على احتواء وباء بقدر معرفتهم لطبيعته، وطريقة نشأته وظهوره، وقد لوحظ أخذهم للعديد من العينات، ويقال أنهم قد قاموا بعزل أحد صناديق المومياء، قبل عملية التعقيم وقاموا بطريقتهم بأخذ عينات منها، ثم سلموها للجنة التعقيم، سارت الأمور بشكل طبيعي، ولم يلاحظ أي وفاة غير جواد، أمين مستودع المومياء. وبعد أيام قليلة من القضاء على بكتيريا المومياء، توفي أحد أفراد طاقم المكافحة بجلطة مفاجئة في الدماغ، وتبعه بعد يومين وفاة فرد آخر من نفس الفريق بسكتة قلبية مفاجئة أيضاً، جعل القلق والشك يساور اللجنة الوزارية، وزرع المخاوف من جديد في أفئدتهم التي لم تكد تستريح بعد من هم الوباء، لكن بعد مرور شهر لم تسجل بعدها أي حوادث للفريق، وكل من كان على صلة بالمومياء، أو مختبر المستشفى، حيث ظهرت بكتيريا المومياء بعد أخذ عينات من أمين المتحف المصاب والمتوفي، جعلهم يطمنون مجددا بالذات مع تقرير الوفاة اللذين أكدا أن الوفاة بسبب جلطة دماغية، وسكتة قلبية للمتوفيين، وعندما كان الشهر يأزف على الرحيل حصل مالم يكن بالحسبان، فقد جن قائد فريق المكافحة الأول، وراح ينزع ملبسه، ويتعري، ويسير بالشارع العام، وانتابته حالة من الهستيريا، وراح يعتدي بعنف على كل من يصادفه، ودون أن يعرف ما سبب حالته التي حصلت منتصف الليل، وهو مرتاح في منزله، بمفرده، يمضغ أوراق القات، وكانت نتيجة الفحص هو حالة عقلية، لا نفسية؛ بسبب أزمة انقطاع الرواتب في اليمن، وتراكم الديون، واستمرت الأمور بشكل طبيعي لأربعة أشهر، وقتل أحد أفراد الفريق الثاني للمكافحة بحادثة إطلاق نار عشوائي، وكانت ترفع كل الحالات للجنة الوزارية التي لم تعد مشكلة ومنعقدة، عندها دب الفرع في أوصالهم، وأيقنوا أنهم أمام شيء غير طبيعي يحدث، وقفز إلى أذهانهم ما قرؤوه، وسمعوه، عن لعنة الفراعنة، وراحوا



متيقنين من أنهم أمام لعنة أخرى، وإن لم تكشف عنها النقوش، والدراسات الأثرية، لكن الأمر لا يحتاج لذكاء، وأدلة دامغة تدعمه، فما يحصل أمامهم من قرائن، كفيلاً بتأكيد ذلك وصار القلق رفيقهم، ولم يغادر صدورهم للحظة واحدة

## الفصل السادس عشر

لم يدرِ عزام ما الذي أصاب فؤاده المتيم؟! شعر بشيءٍ لذيذٍ يعبث بروحه، ينساب بنعومةٍ، ويداعب أوردة قلبه، أحسَّ بقلبه يخفقُ، ويهيمُ بحب المخبرية الحسنة، رشيقة القوام، ذات القصر الملفت، والذي جعلها أكثر جمالا بوجهها المكشوف الجميل الطفولي، وابتسامتها التي لا تفارقها، وصارت جزءاً منها، في دراسة بريطانية أجريت مؤخراً تبين فيها أن النساء القصيرات هن الأكثر جاذبيةً وأنوثةً، لعل هذا ما جعل قلب عزام يقع في الغرام سريعاً، وما برح يتردد على المستشفى كل يوم، يتعمد أن يراها حتى حفظ جدول عملها عن ظهر غيب؛ حتى لاحظت هي ذلك، وهو يمدُّ إليها بورقة فحص دمٍ له، فأبتسمت بخبثٍ، وتشير له بالجلوس على الكرسي:

- كل يوم أراك في المستشفى، واليوم تريد فحص دم. تلثم عزام، وارتيك، ورد بخجل:

- أنا مريضٌ.. من يوم ما رأيتك أشعر بالمرض، وأتمنى لو تساعدني بالعلاج، علاجي لديك، راحت تربط زنده بأشوطة تستخدم لإظهار العروق، ونفخها، وتسحب الدم بشرنقة زجاجية، وردت:

- حسناً، سأنظر ماذا ستكون نتيجة الفحص، وسأقرر لك العلاج بدلا من الطبيب، وأشارت له بكفها للخروج، وهي عاقدة كفيها على صدرها، ومقاومة ضحكة، تكاد تفلت منها، شكرها عزام، وخرج سريعاً، والسرور يرقص بين جوانحه، بعد ساعة كان قد عاد؛ لأخذ نتيجة الفحص، وببده علبه مياه غازية باردة، وكان يشعر بتوترٍ، وقلقٍ، وبهجةٍ ممزوجةٍ، وراح يحدث نفسه في الطريق، كمن يشجع نفسه، ويريد إزالة توتره، لكن عندما وصل للمختبر، لم يجد حياة، وأحس بقلقٍ خفي، بحث عنها في الغرف، والعيادات الخارجية، لم يجد لها أثراً، وظل حيراناً، والهواجس تنتابه، وأخذ القلق يذهب به تفاسير شتى، حتى اهتدى أخيراً؛ لأن يعود أدراجه للمختبر، ويسأل الشخص المتواجد فيه عن نتيجة فحصه، وفوجئ أنها لم تظهر بعد، وراح يسأل عن دوره، وكم بقي حتى تظهر نتيجته، وأيضاً كان الرد لا وجود لفحصٍ باسم عزام، عندها تأكد له أن حياة قد أخفت ورقة فحصه عمداً، وهذا له تفسيران لا ثالث لهما في نظره، إما أنها فتاةٌ محافظة لا ترغب بمعرفته، ولعلها تصادف خلال عملها الكثير من مثل حالته، وأرادت تلقينه درساً، وإزاحته عن طريقها، وتكشف له أنها فضحت الأعيبه، وأنها لم تتلق الإشارة المبطنة التي تعمد إلقاءها على مسامعها، "من يوم ما رأيتك أشعر بالمرض" فهي بهذا قد سحقت حبه النامي، ووأدته في مهده، وتعاملت معه بشكل طبيعي، لو كان صادقاً في ادعائه ومرضه لعاد، وعمل ورقة الفحص، وفحص عند زميلها الذي حل مكانه، وبهذا توصل له رسالة فهمها جيداً، ولم يطمئن لهذا خاطر، وظل عقله يوحى له بشدة للاحتمال الآخر، تحبه وتبادلته نفس المشاعر، وقد احتفظت بالورقة، وستعيدها له مكتوب بها رقم هاتفها، واطمأن لهذا الاستنتاج، وراح يسرح بأحلام اليقظة، وانتظر حتى ارتفع أذان الظهر، ولما تعد فاتنته، وظل منتظراً؛ حتى انتهى الدوام في المشفى، الثانية ظهراً، وأغلقت كل

العيادات أبوابها عدا قسم الطوارئ، والصيدلية، وقسم الرقود الذي بدأ يفتح أبوابه لزوار المرضى، وقفل عاندا للمنزل، وكل أحزان الدنيا تجثم على صدره الولهان، وانقضى بقية يومه ثقيلًا حزينًا..

انبثق الصباح، وأنفاس عزام تكاد تخرج، لم يتصور أن صبابته، ولحظاتها الأولى بهذا الوجع، والشتات، والعذاب، عندها راح يسترجع تلك العبارات الكثيرة التي كان يلقاها مكتوبة في الجدران، في الحوار، وعلى سور المدرسة، وعرف كم هي صادقة، وليست مجرد عبارات طائشة، يكتبها شباب فارغون، الحب عذاب في قلوب الشباب، ومن الحب ما قتل! شارب الخمر يصحى بعد سكرته، وشارب الحب - طول العمر - سكران!!

أخذ يتخيل أولئك الخطاطين الذين كانوا يخطون مشاعرهم بالطبشور، وأحيانا يقطع الفحم، وتمنى لو يمسك إصبع طبشور، أو قطعة فحم، ويملا أسوار ومباني المستشفى بتلك العبارات القديمة الساذجة، التي تبدو كساذجة مسلسل هندي مستفز، كان يشعر بمعناها الكبير، ويخجل من عباراتها القديمة التي منذ أن عرف القراءة والكتابة، وهو يقرأها، ويجد فيها مثالا للساذجة، وعبارات للعامة والسوقية، مع تلك الرغبة للتعاطف التي طفت بصدرة، ولأنه كان قد استيقظ باكرا، أو بالأحرى لم يقرب النوم جفنيه، وقد بقيت ساعتان حتى يبدأ دوام ذلك المستشفى الحكومي؛ فقد لبس ملابسه، واهتم جدا بمظهره، وشفف شعره بشكل مبالغ فيه، ولم ينس أن ينضح على ملابسه، ويديه عطرا جميلا برائحة فواحة، والتقط فعلا قطعة طبشور عثر عليها بحقيبة أخيه الصغير، وخرج من المنزل، وقادته قدماه إلى سور ناء للمستشفى، يقع في الجهة الغربية، لا يوجد مارة فيه إلا نادرا، وحاول أن يقلد أولئك الشباب الطائشين، وقبل أن يهم بالكتابة، كانت هناك حجرة تستقر بالقرب من رأسه، وكادت تفلح رأسه نصفين، والتفت بغضب، وشاهد أمامه مجنوناً، يرتدي أسمالا بالية، ممزقة، عليها دسم، ومتسخة، وهو يصيح فيه:

- اهرب!! ماذا تعمل بسبورتي؟! رد عليه:

- العفو منك، أنا أريد أن أكتب.

رد المجنون:

- من سمح لك أن تدخل الفصل؟؟ هذا دفترى، أين دفاترك؟ اذهب من هنا، وابتعد.

انصرف مذعورا، وراح يراقب المجنون من بعيد، ولاحظه يمسك بقطعة فحم، وراح يرسم أشكالاً، وحلقات غير مفهومة، لم تكن حيواناً، أو إنساناً، أو نباتاً، أو حتى ورود، أشياء لا تفهم، كأنها طلاس، تذكره بذلك الفنان، غريب الأطوار (سلفادور دالي)، الذي قرأ، وشاهد رسومه العجيبة ببعض المجلات، عندها أيقن أن الجدران دفاتر المجانين حقاً، فراح يبتعد، ودخل إحدى البوفيهات في جوار المستشفى، وتناول فطوره بشهية كبيرة، وانتظر حتى الساعة الثامنة صباحاً، وانطلق صوب المستشفى، وقد قرر ألا يبقى مجنوناً، ويخط في الجدران، ويعذب نفسه في السهر، ويكتوي بنيران حب أحادي، من طرف واحد، غامض ومجهول، لم توضح ملامحه بعد، كاد يودي برأسه الغالي تحت أحجار مجنون خطاط ومطلسم.

أخذ يذرع حديقة المستشفى، ويتسكع فيها، وقد خانته شجاعته، وأحس بخوفٍ وقلقٍ يعتريه، لكن أخيراً جازف، وانطلق صوب المختبر، الذي كان من أسبوعٍ مغلقاً، وقد تفشت فيه عدوى بكتيرية، غريبة، شديدة الفوعة، وكان هو حاضر، وأحد شهود تلك الحادثة، لكن إغلاق القسم لحين وصول خبراء روس، ومن منظمة الصحة العالمية، حسب علمه قد أدى للقضاء على الوباء، وتطهير المعمل من أي خطرٍ، وعدوى الكوليرا الخطيرة حسب ما علمه، أدى لإعادة فتح قسم المختبر مجدداً، وظل كل يومٍ يتردد على المستشفى؛ حتى فتح قسم المختبر، وها هو الآن يقف خائفاً، وعاجزاً، ومترددًا يشعر بحياءٍ شديدٍ، يخنقه، ويشل حركته، لكنه تذكر كل معاناته خلال الفترة الماضية، منذ وقعت عيناه على حياة، وتلك القوة السحرية التي جذبتة إليها، وقرر المواجهة أخيراً، وعادت أحلام اليقظة، تتشكل في مخيلته مجدداً، وهو يتخيل حياة تعيد إليه الورقة مسجلاً فيها رقمها، وهي تقول له: هذا علاجك. تواصل معي! وصل للمختبر، وشاهد عن بعد حياة، تتحدث مع أحد زملائها، وشعر بالغيرة تنهشه، وانتظر حتى دلف لغرفةٍ داخليةٍ في المختبر، ثم تحرك لكن وجود مريضين للفحص جعله يترث؛ حتى غادر، ثم تحرك سريعاً، وراح يستعد بابتسامةٍ، حاول أن يجعلها ظريفةً، وجذابةً، كانت حياة تسجل ملاحظات في سجل أمامها، عندما سمعت صوتاً خجولاً ومتوسلاً:

- صباح الخير، أستاذة حياة. كيف حالك؟ التفتت لصاحب الصوت مشفقةً:

- صباح النور، الحمد لله، كيف أنت؟

- الحمد لله، قلقت عليك كثيراً يوم أمس، أين اختفيت؟؟

تفاجأ بها ترد:

- لقد قطعت إجازة، وذهبت للبيت، لقد اتصلوا بي من المنزل، يريدوني بأمر هام، والعفو منك، ورقتك في جيبى، لم أنتبه لها إلا اليوم، ولكن لا تقلق هذه هي، والنتيجة سليم، لا يوجد شيء في فحوصك، فأنت خالٍ من أي مرض. وناولته الورقة، وكانت فعلاً قد طبعت نتيجة فحصه السالبة، عندها تشجع، وراح يجاهد نفسه، ونطق:

- لو تكرمت، ممكن رقمك، أختي للتواصل، وأرجو ألا تسينين مقصدي. اندهش عندما راحت تخطه بقصاصة، وتدفعه له، عندها شعر بأن الكون لا يتسع له، وراح يشكرها بشكل مبالغ فيه، وهول خارجاً، وهو يشعر أنه لأول مرة بحياته ذو اهتمام، ومحل حب، من قبل الجنس اللطيف، وراحت أحلام اليقظة، تعصف به بقوة، وقرر اعتزال أصدقائه، والتفرغ لطقوس الحب الجديد، واتجه نحو مكتبات الشارع، واقتنى مجموعة من كتب الحب، ومسجات الرسائل، وانطلق صوب منزله، سار يوزع الفرحة، والنشوة على كل من يلقاه أمامه، وعندما وصل المنزل احتضن أمه، وقبل يديها، ورأسها قانلاً:

- ادعي لي، يا أمي، ربنا يوفقنا معنا اليوم مباراة هامة.. وراحت أمه التي تعلم شغفه بمشاهدة مباريات كرة القدم العالمية، تدعو له من أعماق قلبها، وهي تبتسم، وسمعتها أخته التي كانت دائماً تمازحه، وتستفزه، فراحت تدعو بخسارة الفريق الذي يشجعه، وكان كل مرة يتقبل منها ذلك الدعاء متحدياً، إلا هذه المرة قفز راجياً منها هذه المباراة فقط تغير دعاؤها، وأحست الجد

في نبرته وتوسله, وراحت مستغربة تدعو لفريقه بأن يحالفه الفوز، وتدعو لأخيها بالتوفيق،  
والهداية.

## الفصل السابع عشر

تأكد لنا جدية خالد ابن خالي، وأنه لم يكن يمزح أو يهذي، ولاحظنا الصدق في كلامه، ومع هذا لم نفهم شيئاً مما يدور، وحتى لا نثير الفضول، والظنون بنا؛ نزلنا من تلك المغارة التي كنا بها، وانفردنا بخالد، وطلبنا منه أن يشرح الأمر لنا، بهدوءٍ ورويةٍ؛ ليتسنى لنا ترتيب الأفكار، ومعرفة ما أفزعه، خاصة وأن وجهه ظل مخطوفاً، وقلقاً، وصادف من حسن الحظ أن سمعنا ذلك البوق المعروف لبائع آيسكريم، متجول حولنا، فابتعنا بعض القطع منه، وأعطينا خالد أولاً؛ ليهدئ ويبرد أعصابه، وانتظرنا حتى انتهى من قضم الآيسكريم، وطلبنا منه شرحاً وافيًا لما يحدث، وراح خالد يسرد على مسامعنا :

- هل تذكرون ذلك الصباح الذي خرجنا فيه للفسحة في جبل مأرب الصحراوي القاحل؟؟ والذي وجدنا فيها تلك الجثة المتفحمة لكهلان، لعلمكم لاحظتم القشعريرة التي سرت في جسدي، والفرع الذي اعتراني، وكدت أسقط من على السلم لولا مسارعة نعيم مشكورا بانقاذي، حقيقة لم يكن ما اعتراني وأفزعني هو وجود تلك الجثة المتفحمة، بقدر ما اندهشت وخفت لوجودها، لكن معرفتنا باختفاء جثة كهلان جعل عقلي يستنتج سريعاً، ويتلاشى كل أثر للخوف، أو الفرع، لكن قبل أن أهم بالنزول لمحت عيناى - في المنعطف للمغارة الذي يؤدي لعمق المغارة المجهول، والمظلم - قدمين غليظتين سوداوين، بشعر كثيفٍ لماعزٍ جبلي، وشعرت بالقشعريرة تسري ببديني، لكن اختفاء القدمين سريعاً جعلني أتوهم ما شاهدت، بالذات مع صعوبة أن يتمكن ماعز، أو أي حيوان من تسلق تلك المغارة، والوصول لذلك المكان، ومع هذا ظلت القشعريرة، والخوف يلزمني حتى غادرنا المكان تماماً، وكنت أعزي ما يحصل لتلك الجثة المتفحمة التي وجدناها، قد أثرت عليا، وزلزلت كياني، ونسيت ذلك، ولم أعره أي اهتمام، لكن وأنا أتفحص تلك المغارات السحيقة الشاهقة - المقابلة لنا التي تهندس هذا الجبل بشكلٍ مبدع، والتي تضم هذه المقابر الصخرية التي قيل تم استخراج عددٍ من المومياءات منها تصل إلى (200) مومياء، تم استخراجها من هذه المقابر الصخرية المتنوعة التي توازي تلك المقبرة الصخرية التي كنا فيها من لحظات، وكنت أنظر بنشوةٍ، وفخرٍ، وإعجابٍ، وأمتع ناظري بتلك الهندسة العجيبة، والجمال، والبهاء لتلك المغارات، ويتلبس روحي شعوراً منعشاً ولذيذاً- وقعت عيناى على مغارة قريبة، وشعرت أن شيئاً فيها يناديني، وكأنني أسمع هاتفاً يهتف باسمي، يصدر من أعماقها؛ فدققت النظر، ورحت أبحلق في تحدٍ مقصود؛ لأصرف تلك المخاوف، وحقيقة المرض الذي انتشر مؤخراً، ويقال أن مصدره الرئيسي بكتريا مومياء الجامعة المتعفنة، جعلني ونحن بهذا المكان، أتخيل تلك القدمين أنهما لحيوان مصابٍ بتلك البكتريا، وشعرت بأن تلك القدمين ليست لحيوان، بل ربما لحارس هذه المغارات، والمقابر الصخرية، قد يكون من الحيوانات الذكية، أو أشباح وربما جن، فنحن لا نعرف ما بلغته حضارتنا من رقي، وإمكاناتٍ، وأن هذه المغارات لا تزال تحتفظ بلعنةٍ على غرار لعنة الفراعنة الشهيرة، وإن كانت لم تمس ممن قاموا باكتشاف تلك المومياءات، ونقلها لاشك أنها ستصيب، وتطارده كل من له علاقة بالمكان، أو اقترب منه، ومن يدري أيضاً، ربما لسنا على علمٍ واطلاع ما أصاب أولئك الباحثون، والمستكشفون، وعلماء الآثار الأوائل الذين نقلوا

المومياء من هنا وما جرى لهم، فهقه هيثم بشكل ملفتٍ، وراح يخبط خالد في ظهره، وهو يشير إلى تلك المغارات الصخرية المتعددة في الجبل..

- انظر!! لا يوجد أي شيء لتوهمك، والظاهر أن جثة كهلان المتفحمة، وخبر الفيروس المتطور عن بكتريا المومياء، وتلك الجثتان للزوجين التي وجدت في ثلوج سيبيريا بحالة سليمة محنطة تحنيط طبيعي بفعل الثلوج، هي من ألهب مخيلتك، وجعلتك تفكر، وتتخيل، وتبني استنتاجاتك على فرضيات، لا أساس لها، ونشاهدها فقط في الأفلام السينمائية، ثم لا تتس، يا خالد أننا هنا لأجل الفسحة، والتسرية عن ابن خالك سعيد، والذي بدلا من أن تجعله سعيدا بحق، وينسى ما مر به، وواجهه من أهوال، وكابده من ألم الفراق، ها أنت تحط على كاهله هموماً، ومخاوف أشد مما قاساه، وشاهده في الحرب "أوردها سعدٌ، وسعد مشتمل.. ما هكذا يا سعد تورد الأبل"، تحمس الجميع، وراح يقرع ابن خالي خالد، حتى لان تماماً لكلامهم، وصرف عن خيالاته كل ما تفوه به..

وبناء على اقتراح محروس، وزيادة لإقناع خالد، وصرف تلك الأفكار المجنونة عنه بأن يتسلق الجميع تلك المغارة، والتي لم تكن ضمن خطة الرحلة ومسارها، وعارض مرشد الرحلة بشدة؛ بسبب وعورة المكان، وخطورته، وعدم وصول السلام إليه، بل أكد لنا أنه حصلت حالة سقوط منذ أسبوعين، من تلك المغارة عندما سقط أحد الزوار بعد أن فاجأته نوبة هبوط حاد، وأغمى عليه، ولم يتمكن أحد من اللحاق به، وإنقاذه سريعاً، وراح خالد يرمقنا، وكأنه يؤكد لنا صدق ما شاهدته، وحده بشأن لعنة المومياء، وبأن في المغارة سرّاً، وشيئاً ما، وكانت الفترة الزمنية للسقوط تقارب فترة ظهور بكتيريا المومياء التي تسببت بوفاة شخص، وإصابة العشرات، بالرغم من احتواء الفيروس، وزوال خطره، لكننا كنا مصرين أن نتسلق المغارة؛ لطرد الأوهام والوساوس من رأس خالد، وأيضاً بسبب ما يشاع عن المغارة من أنها أوسع القبور الصخرية، وأبدعها، وأنها تمتد لجوف الجبل، وأسفله إلى مالا نهاية، وبها نقوش، وكوات بديعة للغاية رغم أن طريقة تسلقها المعقدة والخطرة، ولم يزرها إلا قلة من عشاق الآثار، والمغامرة، والتحدي، في حين يكتفي الآخرون في مطالعتها من بعيد، أو عبر المنظار..

مع هذا رفض المرشد السياحي ذلك، وأمام مبلغ من المال مصحوب بتعهد خطي مهوور منا جميعاً؛ تراجع عن قراره، ووافق على مضض، وسلمنا السلم، وحدد لنا كزمن أقصى المكوث ساعة ثم النزول، وأخبرنا بعدم مرافقته لنا، وكان القلق جلياً عليه، وراح يوصينا بالحيطه، والحذر وعدم التوغل كثيراً، وأوصانا أيضاً بأخذ كشافات يدوية معنا، وولى صوب إحدى الأسر القادمة للزيارة، ورحب بهم بحفاوة، وبشاشة، في حين رحنا نصب السلم بحرص، وتنبع تعليمات التسلق كما شرح لنا المرشد..

كان السلم يصل لمسافة تبعد عن المغارة ثلاثة أمتار، والباقي يجب أن نكمله عبر تسلق أنواع بارزة، يساعد التمسك بها للوصول للمغارة، نجحنا جميعاً في تسلق الجبل.. كان أسرنا نعيم، لأنه يعشق هواية تسلق الجبال، ويمارسها بكثرة، وظل هناك في فم المغارة، يساعدنا بمد يديه القويتين، ويرفعنا للمغارة الواحد تلو الآخر، عندما جلسنا فيها، كانت الأجواء فيها غاية الروعة، فسيحة جداً، بها عدد من الكوات المستطيلة المتجاورة،

والمتتالية، ويعلو سقفها سخام قديمٍ، ممزوج برسوم هندسيةٍ، بديعة لأشجار، وحيواناتٍ ، وأوراق العنب، والكوات تعلوها نقوش بخط المسند، وفي قاعها قبورٌ فارغةٌ مستطيلةٌ غير عميقة، منحوتة بطريقة فريدة، لاحظنا أن هناك كوة أخرى، تفضي إليها المغارة إلى قاعة أخرى، كانت بارتفاع متر ونصف، وعرض متر، وآنحيناً؛ لنصل للقاعة الأخرى، كانت القاعة الأخرى واسعةً، وجميلةً، بها نفس عدد الكوات، والقبور المنخفضة في الأرض، وتزينها النقوش بكثرةٍ، ومرسوم بسقفها وعولٌ، وثيرانٌ، وشمسٌ، وقمرٌ، وطيورٌ، وأوراق الأشجار، ومحاربيين أشداء، وكانت بنفس تصميم وشبه القاعة الأخرى، وتختلف فقط في السعة، وكثافة الرسوم الهندسية، والنقش بسقفها وجوانبها، ثم لاحظنا كوةً أخرى، تفضي إلى قاعة ثالثة، وكانت منخفضة جداً، بارتفاع نصف المتر، وعرض نصف متر أيضاً، لكن كانت شديدة الظلمة، ولم نستطع أن نتيين ما بداخلها، كانت طريقة تداخل المغارات تأخذ شكل (دقل الراديو) يبتدئ عريضاً، وينتهي دقيقاً بعد شدة، فراح هيثم يحاول أن يضيء بفلاش موبايله، لكنه لم يبدد الظلام، ندمننا لعدم سماعنا لنصيحة المرشد السياحي بأخذ كشاف يدوي معنا، لكن قررنا إرسال نعيم، لخفته، ومهارته بالتسلق؛ لشراء الكشاف اليدوي من الدكاكين في القاع..

كان فعلاً ماهراً، ونجح بالنزول سريعاً، ولم تمض سوى ربع الساعة، حتى عاد، و عرفنا بعودته ظافراً، ومبشراً بشيء مبهج، جلبه معه من صراخه منتشياً في الأسفل، بأن نساعدته في أخذ الكيس الكبير الذي أحضر به الأشياء، كان قد جلب كشافين بدلاً من كشاف واحد، وعدداً من علب المياه المعدنية، والعصائر، والبسكويت، وسندويشات جبن بالطحينية، مزيئةً بحبوب الزيتون، كان الجوع يعتصر أمعائنا، افترشنا الأرض، والتهمنا ما أحضره، وربطنا المخلفات، وألقينا بها جوار السلم في الأسفل؛ لأخذها لمكان النفايات عند نزولنا، سميناً الله وتوكلنا، واختطف خالد المتلهف لمعرفة سر المغارة المظلمة، أحد الكشافات من على الأرض، ونهض بنشاطٍ، واتجه صوب قاعة المغارة الثالثة المظلمة، وصوب الكشاف، وكان الخوف بادياً على وجهه، ثم لحقته سريعاً، وأنا أسلط ضوء الكشاف الآخر من جواره، وتفاجأ كلانا بمنظر قاعة مشابهة للقاعتين الأولىين، وكان هناك عدد من الخفافيش، معلقة بسقف القاعة الصخرية، ذكرنا منظرها المخيف بقصة دراكولا (البرام ستوكر)، وكنا نحجب المنظر عن بقية الأصدقاء؛ نظراً لضيق الكوة؛ فخطى خالد وتبعته، وأضأنا لبقية الأصدقاء الذين تسللوا بخفة. كان الجو حاراً، وخانقاً، ومفزعاً، والقاعة لا تختلف عن مثيلاتها من حيث التصميم، والنقوش، وتأكد لنا أننا أمام مقبرة صخرية، عتيقة مكملة، كانت تستخدم في ذلك الزمن الغابر، لقبور العشرات، وربما المئات من أهالي تلك المنطقة، وليس كما تبادر لنا، أنها مجرد قبور صخرية محدودة.

لم تكن القاعة الأخيرة تفضي لشيء، إنها نهاية الرحلة، ونهاية لتوهمات، ووساوس خالد أيضاً، ورحت أربت على كتفه محدثاً:

- هل اقتنعت؟؟ يمكن أن نعود الآن.

أخذ خالد يتحسس الجدران، والكوات بكفيه، وهو موقن من أنه سيعثر على شيء ما، حدسٌ خفي ينبئه بذلك، لكن دون جدوى، عندها قرر أن يصور القاعة بموبايله بالوضع الليلي



على سبيل الذكرى، ثم يغادر، والتفت إلى هيثم الذي كان كثيرا ما يمازحه، ووجد في كلامه جرحا له، وإن كان يعرف مدى صداقته، وصدقه وحبه له قائلا :

- ممكن بعد أذنك، يا هيثم. التقط بعض الصور! على سبيل التذكار لهذه الرحلة الرائعة.

أشار هيثم بإبهامه موافقا له، وراح محروس يشارك هيثم في التقاط الصور، انتهينا وخرجنا من القاعتين الصخريتين؛ حتى القاعة الأخيرة، وتنفسنا الضوء، والهواء النقي، والتقط لنا خالد آخر صورة (سلفي) جماعية، وراح يستعرض بعارض الصور صور الرحلة، وفيما هو يمرر سريعا، فجأة ارتعدت فرائصه، واقشعر بدنه، ولاحظنا انتصابا واضحا لشعر يديه، وأعاد الصورة للخلف، وكان يتكلم بصوت هامس، وقد استقر عند إحدى الصور:

- هل تلاحظون شيئا في هذه الصورة؟؟ وعبثا حاولنا اكتشاف شيء ما، إلا أننا لم نجد شيئا ذا أهمية..

عندها أشار إلى أحد الزوايا في الصورة، هنا..

وكانت فعلا ساقان سوداوان، بشعر كثيف، وحوافر أشبه بحوافر حمار، تبدوان بوضوح تام، عندها بدأت القشعريرة، تسري في أبداننا جميعا، وانتصبت شعورنا، وراحت قلوبنا ترتجف!!!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. اقرؤوا القرآن، واستعيذوا بالله، يا جماعة..

هكذا نطقها هيثم، وراح يبحث عن القرآن في موبايله، ولكن بطاريتته كانت توشك على النفاد؛ بسبب ضعف التغطية في المكان؛ وبحث الموبايل الحثيث عنها الذي سرع في استهلاكها، وانطفأت تماما، وحاولنا النزول سريعا، ما جعلنا نرتبك أكثر أن السلم لم يعد موجودا في الأسفل، لقد اختفى، مع سماعنا لأصواتٍ مخيفةٍ مرعبة، تصدر من جوف القاعتين الداخليتين، وشعرنا بوحشةٍ شديدة، وبقشعريرة، وبردٍ وخوفٍ عارمٍ يعترينا، وكان هناك مخلوقًا خفيا يطالعنا .

## الفصل الثامن عشر

زار الدكتور هوارد رد وفريقه أكثر من مكانٍ أثري وبحثوا في (400) مقبرة صخرية في المحويت، وشبام الغراس، وشبام كوكبان، دون جدوى، ولم يحالفه الحظ في اكتشاف مقبرة مومياء جديدة، والعثور على مومياء لم تمس، وبدى له أن أحلامه تتحطم، وتتكسر على تلك الصخور الصلدة لجبال اليمن، التي نحتت في جوفها المقابر الصخرية، وشعر بأن طموحه وأحلامه تموت وتدفن في تلك المقابر بدلا عن المومياء، كان في حالة حزنٍ وغضبٍ وراح يلعن اليوم الذي ظهرت له الطالبة هيلين روث، وكانت في داخله تتصارع عوامل متمازجة من الأمل، والرجاء، والحيرة، والقلق، حتى ذلكما المتسلقان اللذان أحضرهما، واستدعاهما خصيصا للتسلق لتلك المغارات النائية القصية في أعلى الجبل، ومناطقه الخطرة الزلقة، لم يتمكننا من إفادته بشيء، ولم يستفد منهما سوى الخسارة، ومزيد من الأعباء التي تثقل ميزانية البعثة، وعزم في قرار نفسه أن يمهلها حتى عودته، والدكتورة جوان فينتشر من مدينة مأرب التاريخية، وإن عادا ولم يجدا شيئا ملموسا على أرض الواقع، أقسم أن يضعهما على أول طائرة تطير إلى أمريكا، فقد كان يعول على مجيء المتسلقين الماهرين أبناء ولايته، ومواطنيه (ريكو ميلدي) خبير برمجيات الحاسوب الذي ترك مهنته الهامة، وتفرغ لهوايته التي يعشقها بجنون تسلق الجبال، وعالم الصخور السابق (هرب ريجر) الذي استفاد من دراسته، وخبرته بالصخور، وانتقل من دراستها إلى تسلق الجبال التي تتكون منها حتى غدا متسلقا بارعا، لا يشق له غبار، وصارت له خبرة طويلة في تسلق الجبال، والكهوف، وقد شارك بعدة بعثات أثرية كمتسلق في أمريكا الجنوبية، والوسطى، وعدة بلدان أخرى حول العالم..

في محافظة مأرب، زار الدكتور هوارد، والدكتورة جوان عددا من الأماكن والمعالم الأثرية البارزة، واطلع على حاضرة الدولة السبئية القديمة، ومآثرها، وشعر بمزاجه يتحسن كثيرا، وقد انبهر تماما بمدى المجد، والعظمة التي بلغته هذه الحضارة العريقة الضاربة في القدم، ووجد نفسه تستريح، وتستقر، وشعر بسعادة، وغبطة، وراح يعتذر في نفسه لهيلين، ويحدث نفسه بصوت هامس..

حتى وإن فشلنا في العثور على مومياء جديدة، يكفينا ما استفدناه في رحلتنا هذه، من المعرفة، وما أضفناه لخبراتنا الأكاديمية، فالرحلة كانت ناجحة بكل المقاييس، ولا يجب أن ألوم فينتشر، أو أحدا من أعضاء فريقنا، فالجميع قد بذل جهدا، وقصارى ما لديه، ولم يقصروا.. هو الحظ العاثر، من عائدنا، وحتما سننجح يوما ما، أو سنكون قد وضعنا الدرجات الأولى لمن يريد أن يهتم بمومياءات هذا البلد الفريدة، ويتسلق سلم المجد، والبحث الدؤوب عن أسرارها، التي لم تنل حظها من الدراسة، والشهرة، والتقدير..

تنبهت فينتشر إلى هوارد الذي كان يحدث نفسه هامسا، وكانت تدرك حجم المعاناة التي عانها على مدى أسبوعين، وهو يهيم في الجبال، والصحاري، ويغوص من كهفٍ لآخر بحثا عن كنوز الحضارة اليمنية من المومياءات البشرية، وأرادت أن تشغل تفكيره بشيء هام،

سيسر له؛ فأخذته إلى مبنى أثري كان يستخدم كمذبح، وأخذت تريه الصخور الضخمة، والأقواس، والنقوش، والتشكيلات الهندسية التي تعلم مدى عشقه وشغفه بها، وفعلا نجحت خطتها فقد اندمج مع المذبح، وتوحد تماما، وراح يطالع بإعجاب، وانبهار، ودهشة، ويصور بكاميرته كل ما يشاهده، ومن ثم أعطى الكاميرا لفيثشر، وطلب منها أن تلتقط له بعض الصور مع المذبح الأثري، ثم راح يتقفز حتى أعمدة بران، وطلب منها أيضا أن تلتقط له بضع صور مع الأعمدة الشهيرة، ثم طلب منها أن تقف بجانب الأعمدة؛ ليلتقط لها هي الأخرى عدداً من الصور، وأخيرا أعطى الكاميرا لأحد المرافقين لهما، وطلب منه أن يلتقط صوراً له، وللدكتورة جوان فيثشر، وهما جوار الأعمدة، وفي عرش بلقيس، وجوار بعض نقوش المسند، أنست الأجواء في مأرب الحضارة، والتاريخ الدكتور هوارد رد ما قاساه، في دروب الوجع، والعناء، والبحث عن مومياء جديدة..

لقد كانت في انتظاره مفاجأة سارة، فعندما علم بعض الأعيان بأن هوارد هو عالم آثار، ومهتم بسرّ المومياءات اليمنية، ويريد أن تأخذ حظها من الدراسة، والانتشار، ويسعى لتعريف العالم بالمومياءات اليمنية، ولم يكن مجرد سائح زائر، كبر في نظرهم، وأعدوه وليمة طعام فاخرة، ومعتبرة مكونة من خروف مشوي مع عددٍ من الأطباق اليمنية الشعبية الشهية، وعلى مائدة الطعام حضر عددٌ من الصحفيين والمهتمين، والمتقنين، وأساتذة التاريخ اليمني، وكانت المائدة عامرة بما لذ وطاب، جعلت الفرحة والسرور تزغرد في عيون فيثشر وجوان، اللذين أصرا أن تلتقط لهما صوراً مع هذا الطعام التاريخي، والوليمة الفاخرة، وكانا يأكلان المأكولات الشعبية اليمنية بشهية مفتوحة؛ حتى أصيبا بالتخمة، ولم يسعفهما إلا زجاجتي كوكاكولا أسود بارد، وفي المقل كانت لهما تجربة فريدة بأن يتدوفا وريقات قليلة من القات، وعندما حان وقت رحيلهم تم تسليمهم بعض الأزياء الشعبية؛ سرّاً لها كثيرا إضافة لجنبية لهوارد، وبعض المشغولات التقليدية الفضية للدكتورة جوان، وفي الطريق وهما يستقلان السيارة، التفت مبتسما إلى الدكتورة فيثشر قائلا :

- عزيزتي فتشر، أمل أن ريكو ميلدي، وهرب ليجر، قد وجدا شيئا؛ ليتوجا سعادتنا هذه، ولا ينغصاها..

ردت فيثشر:

- حتى وإن لم يجدا، فرحلتنا قد تكلت بالنجاح فعلا، ولدي الكثير سأكتبه عن هذه الحضارة، وعن هذا البلد في بحوثي، ومقالاتي، ودراساتي المحكمة، وأيضا ما سأحكيه لطلابي، فوصلنا إلى هذا البلد العريق المضياف والكريم، هو النجاح بحد ذاته، أشرفت عيون هوارد وهو يجيب:

- صدقتِ دكتورة، نحن نسيرُ على طريق النجاح، وقد أنستني رحلتنا اليوم لمأرب كل ما عانيته، وعذابات أسبوعين من اقتفاء أثر المومياءات في تلك المغارات، والكهوف التي بقدر ما تعبت، وعانيت فيها، بقدر ما كان تعباً لذيذاً، ونحن نطالعُ ثلاثة آلاف عامٍ من التاريخ، والحضارة يظهر لنا من تلك الجروف الأسطورية.

وصلا إلى العاصمة صنعاء، وهناك تم إخباره أن المتسلقين لم يحرزوا أي تقدم، وعلى الرغم من كونه كان قد تلقى جرعة من الأمل، والصبر، بعد رحلة مأرب، إلا أن تلك الخيبة التي تلقاها جعلته يتذمر، ويشعر بالحزن الشديد، ومع هذا قرر أن يوم غد سيكون يوماً حاسماً، وسيقرر على ضوءه إنهاء عمل البعثة الأثرية، والعودة لأمريكا، اجتمع بفريق طاقمه، وزودهم بمعلومات، وإرشادات حاسمة..

وفي الصباح كانت سيارتهما تنطلق بسرعة باتجاه المحويت، وهناك وجدا أيضا المسؤولين، وعددًا من المشايخ، والمواطنين ينتظرونهما؛ كان سبب تجمع المواطنين هو أن فيهم من يعرف أماكن مقابر صخرية، لم تكتشف بعد، وذلك بسبب بعدها ووقوعها بمنطقة خطيرة للغاية، وأقسم عددٌ من المواطنين أن فيها مومياءات؛ لأنهم استطاعوا منذ سنوات استخراج مومياءاتٍ من قبورٍ سهلة، تحاذي تلك المغارة القصية، كان أملاً مشوباً باليأس، يترنج عند الدكتور هوارد، إلا أنه في الأخير قد قرر التعلق بذاك البصيص من الأمل.

نجح المتسلقان في بلوغ ذاك الجرف الخطر، بمشقة، لكن كانت إمكانية الاستقرار على حافته، والدخول صعبة للغاية؛ نظراً لأنه لا توجد حواف يمكن الاستناد عليها، وكان عبارة عن شق عرضي بارتفاع أقل من نصف المتر وعرض مترين، وقام المتسلق ريكو ميلدي بالتصوير عبر كاميرته الفيديو، وراح يحدق ويحدق، وفجأة دوت شهقته في المكان، غير مصدقٍ ما تراه عيناه:

- يا إلهي!! غير معقول!! نقل جهاز اللاسلكي الذي يحمله في يده، ومعلق بصدرة شهقته المدوية تلك، فراحت الدكتورة جوان تستفسر منه عما حدث له، وأفرعه؟؟

جاء رد ريكو مضطرباً:

- دكتورة جوان، هذا الجرف الصخري يستحيل أن يصله إنسان، أو حيوان، إلا عبر طريقة تسلقي هذه، ولكن هناك شيءٌ عجيبٌ، يدعو للحيرة؛ إنني أرى شيئاً أشبه بالضريح، أو القبر كأنه قبة بيضاء صغيرة، أعتقد أن تحتها مومياء، لكن الجرف ضيق يستحيل أن يدخله إنسان ما، وهناك شيءٌ مفزع للغاية؛ الكهف عميقٌ جداً للداخل، وأظنني رأيت أربعة حوافرٍ لحمارٍ، عند المنطقة المضيئة للجرف، ابتلعها الظلام، ولم أتمكن من رؤية شيءٍ سوى الساقين؛ بسبب انخفاض الجرف من الأمام، ويبدو أنه متسع ومرتفع من الداخل، هذا يدل على أن هناك منفذاً آخر، تتسلل منه تلك الحيوانات، إن صح ما رأيته، أو أنني مريضٌ، ومرهقٌ، وبديت أهدني، وأتخيل أشياء لا وجود لها، ردت عليه فيتشر:

- انزل الآن، وسنشهد ما التقطته عدستك، وبعدها سنقرر، وسنضع خطة للبحث، وحفر ذلك القبر الذي رأيته..

انزلق ريكو ميلدي عبر بكرة الحبل للأسفل، وكان بحالةٍ من القلق والتوتر، ويتلفت حوله بخوفٍ، ووجلٍ، وكان يرفع رأسه، ويشرب كثيراً للأعلى، نحو الجرف الصخري... تناول زجاجة المياه المعدنية التي مدت بها الدكتورة فيتشر، وشرب جرعاتٍ منها، ثم راح يستعرض لها على شاشة الكاميرا الصغيرة الملحقة، ما التقطته عدستها، وكانت الكاميرا تظهر بوضوحٍ

المغارة التي بدت ضيقةً من الخارج، ولم يتضح مدى اتساعها من الداخل، لكن القبر واضح، وراح هوارد وجوان يتأملانها ملياً، وهز هوارد رأسه بارتياح:

- نعم،، هذا قبرُ مومياءٍ.. نوعية المادة البيضاء، وطريقة القبة، توضح ذلك، ونحتاج لخطّة عمل لطريقة الحفر، واستخراج المومياء، وأخذ العينات، فالمومياءات اليمينية التي وجدت بالمقابر الصخرية، كانت مغطاة بالخشب المصبوب فوقه هذه المادة اللاصقة، البيضاء من الجص، وراحت معنوياته ترتفع، والقلق، والخوف يتلاشى من صدره، في حين كان المتسلق ريكو ميلدى يشعر بانقباضٍ، وخوفٍ، وقلقٍ قوي يتملكه.

## الفصل التاسع عشر

يقال أنَّ الحبَّ من أول نظرةٍ، ويبدو أنَّ هذا هو ما حدث لموظفة المختبر حياة والشاب عزام، كان عزام مسرورا، بالكلمات القليلة، العابرة التي تبادلها مع حياة، واعتبر إعطاء رقمها له علامات ود متبادل، هكذا في قاموس المحبين، فكل التفاتة تعني إعجابًا، وكلُّ نظرة حب، وكلُّ كلمة للحبيب؛ تفسر تفاسير عشقٍ، وغرام، وكلمة عابرة واحدة من المحبوب للشخص المحب يعيش على أملها شهوًّا ترفع من نسبة هرمون السعادة المعروف (بالسيروتونين)، المسؤول عن تحسين وروقان المزاج، فما بالكم بكلمة حب حقيقية!! لعلها ستدمر أوردة القلب، ولن يستطيع تحمل وقعها العذب على أوعيته، فسترفع كل هرمونات السعادة المصاحبة (للسيروتونين) دفعة واحدة (الأندروفين، والدوبامين، والأدرينالين)؛ ليزدحموا في مجاري، وشرايين القلب، ويسقطوه شهيدا للحب، والغرام في غمضة عين.

يختزل كتابُ الحب بين دفتيه، قصصا شتى، من قصص الحب العذري الجميل، وهناك أبطال من عالم الواقع، صار يضرب بهم المثل، من قصص جميل بثينة، وكثير عزة، وعنترة وعبلة، ومن توبة وليلى الأخيلىة، ومن ليلى العامرية وقيس بن الملوح، وهذا الأخير لقب بالمجنون؛ لأن له قصص عشقٍ، وحب تفوق الخيال.. فقد بلغ أعلى درجات الحب وتماهيه، وكماله، ووفائه، وصدقه، ويقال أنَّ من أروع قصص جنون قيس بليلى تلك التي تحكي أن قومه في عام قحطٍ، ومجاعة قد اصطادوا غزالة، فعمد إلى الغزالة، وفك وثاقها، وقبلها بين عينيها، وأطلق سراحها، وعندما عاتبه قومه، قال لهم:

- كيف تطاوعكم قلوبكم على صيد من عيونه تشبه عيون ليلى؟؟؟!

وكذلك يقال أنه ذات مرة وجد كلبا؛ فأخذ يحسن للكلب، ويبالغ في كرمه، وعند سؤاله عن ذلك، رد عليهم:

- أنَّ عيونه رأت ذلك الكلب ذات يوم في دار ليلى. ويقال أنه ذات مرة، وهو يقلب لحم السفود لمحبوته ليلى انحرقت يده عن اللحم، وراح يقلب الجمر، واحترقت يده بالجمر، دون أن يشعر بالألم، حيث كانت جمره قلبه هي التي تطفحه ويشعر بلهيبها، وكانت تعتريه نوبات من الجنون حتى أنه يتعري، وينزع ملابسه، ويهيم في الصحراء، ولا أحد يستطيع إعادته لرشده، وتهدئته إلا إذا ذكر له ليلى، وقص له عن حالها، ويعود لأعقل ما يكون عليه من الوفاق، والاتزان، والحكمة، ويدهش الجالسين ذلك الأمر، نعم.. إنَّ للحب قوة ديناميكية، محرقة، عجيبة، وغريبة، تجعل من الحياة ومشقتها دنيا جميلة، وحديقة غناء، تمدُّ المحب بطاقة هائلة، لا حدود، ولا مصدر لها.

كان هذا حال عزام الذي صارَ بقمة النشاط، والحيوية، وظل يعيش ساعاتٍ من البهجة، وأحلام وردية، وهو مستيقظ، يخطط ويتخيل، ويرسم ويحلم، كانت حياة قد شغفت قلبه، وسلبت لبه، واختار وقتا مناسباً رآه الوقت الذي تكون به البنات بحالة من الهدوء، والمزاج المعتدل وهو بعد صلاة العصر، فصعد لسقف منزلهم، واختار زاوية في الظل، وأخذ يشجع

نفسه، ويدعو ببعض الأدعية، وبعد تردد ضرب رقم الهاتف متوترا، ظل الموبايل يرن ويرن، وهو يدعو في سره ألا ترد، بعد أن خائته شجاعته، وبدأ يتهيب لقاء المحب، وعندما طال الرنين شعر بالراحة، وهما ينزاح عن صدره، وقبل أن يهم بالإغلاق، أتاه صوتٌ محدثته نديًا رقرقا ينساب عبر موجات الأثير:

-ألو، السلام عليكم. من معي؟ أخذ قلبه الهائم يرجف، وابتلع ريقه، ورد بارتباك:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك، يا دكتورة حياة؟؟ ردت بنرفزة متعمدة، وقد عرفت صوته وميزته جيدا، لكنها لاحظت خوفه وتوتره، وأرادت أن تلعب بأعصابه قليلا، فردت وهي تتصنع الغضب:

-الحمد لله. نعم، أي خدمة؟ من أنت؟؟ زاد الرد الجافي هذا من حدة توتره، وجعل آماله تخور، ورد بيأس:

- معك عزام، يا دكتورة، هل عرفتني؟ زادت من حدة التصنع بالغضب:

- عزام من؟؟ ومن أعطاك رقمي؟ وكيف تسمح لنفسك أساسًا بأن تعاكس بنات الناس هكذا؟؟ نسفت جملتها الأخيرة ما تبقى من بارقة أمل له، وبعثرت بكل الكلمات المنمقة، والرقيقة التي انتقاها بعناية من عددٍ من كتب العشق، والغرام، وظل يتحفظها على مدار يومين؛ ليقولها لها، فرد بصوت بائس:

- العفو منك. وحاول أن ينهي الاتصال عندما سمع ضحكتها عبر الموبايل، وأخذ هو يضحك بصعوبة على هذا الجبن والخوف الذي يعتريه من مجرد مكالمة موبايل، ثم تفاجأ بها تقول له :

- كيف أنت، يا عزام؟؟

- الحمد لله. بخير.

- ماذا حدث لك، يا شيخ؟ خائف!! ماذا حصل لك؟؟ أنا أمزح معك. نعم، لقد عرفت صوتك من أول ما نطقت.

استعادت ملامحُ الذابضةً بريقها مجددا، وزال عنه كل الخوف واليأس دفعة واحدة، وراح يرد فرحانا:

- ربنا يسامحك، لقد جففت الدم في عروقي، ونشفت ريقِي، يا دكتورة حياة، ردت:

- صدقًا!!! إني آسفة!!

رد:

- لا بأس. يكفي أنكِ رددتِ على المكالمة، وأعطيتني هذه اللحظات الجميلة، من وقتك الثمين، وأردف:

- هل تسمحين لي بأن أحادثك على الواتساب، وأرسل لك بعض المشاركات، ردت بكل سرور،  
بأي وقت، مرحبا بك، والآن لم تقل لي، أي شيء كنت تريده مني؟ عندما اتصلت، هل أستطيع  
أن أخدمك بشيء؟؟

رد مبتسماً بخجل، وكأنها أمامه:

- لا شيء! فقط أطمئن عليك، وأريد أن استفسر؛ هل الأمور الآن طبيعية، ولا يخشى من  
عودة محتملة للوباء؟؟

ردت:

- كما لاحظت أنت. العمل يمشي بشكل طبيعي، ولم تسجل أي حالات مشتبه بها، وإنني  
وزملائي نقوم بعمليات الفحص، وأخذ العينات بشكل طبيعي، ولم نلاحظ شيئا غير عادي،  
وكانت تجربة مريرة، لا أريد تذكرها، وأشكرك جدا لمساعدتك لي، وأي شيء تحتاجه، فأنا في  
خدمتك، رد بصوت تملؤه الفرحة:

- بل أنا من يجب أن أشكرك؛ لأنك اتحت لي فرصة التعرف بإنسانية، رقيقة، ونقية مثلك،  
وأرجو أن تقبلي صداقتي، ردت ضاحكة:

- لا يوجد لدي صفحة في (الفيسبوك) لأقبل صداقتك!! بإمكانك أن تراسلني على الواتساب  
بأي وقت تحب، أردف قائلا:

- لا أقصد العالم الافتراضي، بل عالمنا الواقعي، ردت عليه:

- نحن أصدقاء بالفعل، وإلا ماكنت أعطيك رقمي.. حاول أن يعترض ذاكرته المضطربة،  
ويخرج منها بضع كلمات، وأي جمل لمواصلة الحديث؛ لكنها كانت متحجرة، ولم يستطع أن  
يفتح أي مواضيع للحديث، فلم يجد إلا أن يسألها مقهورا من خيانة ذاكرته الكلمة الشهيرة  
والمتداولة باستمرار لدى العامة في اليمن:

- أي خدمات؟؟ أنا أتكلم بجد! هل تحتاجين شيئا دكتوراة حياة؟

- نعم، أحتاج... شعر بسعادة غامرة تتلبسه، ما لبثت أن انطفأت، عند ردها:

-أولاً: لا تناديني يا دكتوراة حياة، وقل يا أخت حياة، أو حياة.

ثانياً: من أي منطقة أنت؟ وماذا تعمل؟ رد:

- أنا قباطي، وأعمل في الدعاية والإعلان، مصمم.. ردت:

- ما شاء الله، شيء طيب عملك، أريد علبة حلوة هريسة ما دمت قباطيا، رد:

- حقيقة ليس كل القبيطة تصنع الحلوة، لكن منطقة معينة منها، أو بالأحرى عزلة من عزل  
القبيطة اشتهرت بهذه الصنعة، وتناقلتها أبا عن جد، لكن لا عليك الحلوة الهريسة ستصلك



غدا، وسأتصل مخصوصا لإحضارها طازجة، مع صديق ينزل كل يومين لصنعاء من (الراهدة)، وبالفتق، واللوز، والسمن البلدي، وزيت السمسم الحالي، ردت خجلة:

- لا تتعب نفسك! إني أمزح، لا تحضر شيئا، رد:

- حاضر الذي يريحك، لقد أخذت من وقتك الكثير. أي شيء تحتاجه؟ تأمرين؟ اشري بيديك. ردت:

- ما يأمر عليك ظالم، مع السلامة في أمان الله.

- ربنا معك. أغلق الموبايل، وراحت أصابعه تعبت به، ودخل على قسم المحفوظات، وفتح تسجيلاً لفحوى المكالمات التي سجلها لنفسه مع حياة، وراح ينصت للتسجيل، كان زمن المكالمات قرابة الخمس دقائق، وراح يستمع بشوق، ولهفة، وسعادة، بدأت له حالته بانسة، كان يشعر بالشفقة، والحنق على نفسه، وهو بهذا الوضع الذليل، وعندما صارت المكالمات بالنصف أحس ببعض الثقة، والنشوة، أخذ يستمع، وأعاد التسجيل أربع مرات؛ حتى وصل مرحلة القناعة، ووجد نفسه متشبعاً تماماً، وعمد لحذف المحادثة، وهو يستشعر بنفسه قد تخلص من جرم مشهود، ومن وسخ يلوث حبه الطاهر.

مرت الأيام سراعاً، ووجد تجاوبا، ونجح في أن يغرس بذرة حبه في قلبها الشارد، وكان يرسلها عبر الواتساب، وهي ترد له ببعض الرموز التعبيرية، وأحيانا بكلمة شكر مقتضبة، وكان هذا يضايقه كثيرا، ويجعل تلك الجودة من الحب تخبأ في فواده.

لكن ذات يوم من أيام الحرب الكنيبية، تفاجأ بوجود رسالة منها، كانت رسالة من تلك الرسائل الرقيقة، المتبادلة بكثرة عبر الواتساب، التي تفيض بالمحبة والود ممزوجة بالأدعية، والأمنيات الطيبة، أعادت له شتلات الأمل، وبدأ يغرسها في قلبه مجدداً، بهمة ونشاط، وعندما تشجع، وأعاد لها رسالة من نفس النمط، معدلة بكلمة عزيزتي، فردت له بوردة حمراء، فجن جنونه، وعبثاً حاول التمسك، وكبح جماح مشاعره إلا أنه وجد نفسه يتهور، ويبعث لها بكلمات غرام عذبة، رنانة، وباح لها بها بشكل غير مباشر، كناية عن لواعجه، وجزيل شوقه، ولم ترد إطلاقاً، لأذت بالصمت، ولم تبعث شيئا، ومرت خمسة أيام، حتى أتى يوم الجمعة، يوم مهرجان الرسائل الأسبوعي الذي تتدفق به الرسائل للجميع، بشكل غزير، وكثيف جداً، لا يغفل فيه الأصدقاء عن تهنئة بعضهم البعض، بل منهم من يتذكر، وقد ولت الجمعة؛ ليلحق رسائل الجمعة الأسبوعية، وقد شارف فجر السبت على البروغ، غير متحرج من إرسالها للأهل، والأصدقاء، والزملاء، ولكل من يعرفه، ومالا يعرفه، لكل رقم مضاف لديه، سواء عن معرفة أو دون سابق معرفة؛ حتى وإن أضيف الرقم عن طريق الخطأ، يوم مباح لا يتردد فيه المرء من الإرسال، تظل فيه قائمة الأعذار منسدلة، لا تحاسب، أو تعاتب على رسائلك، مواكبة لهذا التقليد المحموم المليء بالمشاعر، والمودة الذي صار عرفاً واتسابياً، لا غبار عليه، استيقظ صباحاً، وفتح النت؛ ليجد رسالة واتساب تهنئة بالجمعة، جعلته في حيرة وسعادة، وقد قرر أن يلزم الأدب، ويحافظ على هذه الصداقة، والحب الذي يزهو من طرف واحد، ويوشك أن ينمو من الطرف الآخر، ولكن سرعان ما نكث بوعده مع

استمرار تدفق الرسائل منها، ومنه، وباح لها بكل ما يختلج في صدره، ويخفق في قلبه، تفاجأ ولم يصدق نفسه، عندما ردت له بكناية عن إعجابها، ومعزتها أيضا.

مرت الأيام سريعا، وتعمقت صداقتهما أكثر وأكثر، وصارت تنحدر نحو الحب، وأضحى حبهما حلما جميلا لكليهما، وكان الأكثر سعادة وحبورا عزام، وفي ما كان ينتظر ذات يوم رسائل (الواتساب) منها والتي أدمنها، وصارت أفيونه الذي لا يستغني عنه، كان يحسها تفوح من موبايله، بطعم الفراولة والتوت؛ حتى أتى يومٌ لاحظ انقطاع رسائلها، وأنها لم تعد تصله، لاحظ آخر ظهور للحالة لديها التاسعة مساء، كان كل فينة وأخرى يراقب حالتها، طال الغياب، وظلت الحالة متوقفة على التاسعة مساء، ولم يعد للموبايل من نكهة، وطعم سوى طعم الحنظل، أخذ القلق يساوره، ويعربد في داخله، حتى هداه تفكيره إلى أن الرصيد قد كمل لديها، ولاشك ستشتري كرتا في الغد، وتتغير الحالة، وآخر ظهور لها، نام بصعوبة، وعندما استيقظ في الصباح كان أول ما امتدت له يداه موبايله، الذي ترك النت مفتوحا طوال الليل، ولم يطالع أي جديد، بضع مشاركات من الأصدقاء، غير مجدية، وحالتها كما هي لم يتغير آخر ظهور، تجرأ واتصل على رقم موبايلها، رد عليه صوت مخنوق لأنثى أخرى :

- السلام عليكم، من أنت؟

- و عليكم السلام، أنا عزام. هل أستطيع أن أكلم الأخت حياة؟؟ لم يتلق إجابة ليحمل له الموبايل بعد دقيقة خالها دهرا، صوتا ناعما ومتهدجا:

- الدكتورة حياة، تعيش أنت، توفت البارحة!!

## الفصل العشرون

كان اختفاء السلم المفاجئ مربكا لنا جميعا!! ومشاهدة تلك القدمين البشعتين في الموبايل زاد من خوفنا، شعرنا بخوفٍ شديدٍ، وبدأت أطرافنا تبرد، وتتلجج رغم الحر الشديد، والشمس التي كانت تسطح، ومتعامدة على فوهة المغارة، وتفترشها حتى تلتها تقريبا، وبينما نحن نتفحص المنحدر المؤدي من باب المغارة للأسفل، ونفكر بطريقةٍ ما للنزول، وأثناء ما أعيننا تتفحص مارة بالجوار؛ ليسعفوننا بسلم، كان انتصاف الشمس، وحلول موعد الغداء، قد جعل الجميع ينصرفون، ويهبطون من الجبل الأثري، تفاجأنا أنه لم يعد مخلوقٌ موجوداً على سفح الجبل، ومغاراته سوانا، كان انشغالنا بالتأمل، والبحث في المغارة، والوجبة الخفيفة قد سرق منا كل هذا الوقت دون أن نشعر، وفي ما نحن نتناقش في طريقة للخروج من هذه الأزمة التي ألمت بنا، كنا نشتم رائحة حريقٍ دون أن نعرف مصدرها، ومن ثم اتفقتنا جميعا على قراءة القرآن بصوت جماعي، وأن نتشابه بالأيدي، ونستدير نحو المغارة نفتش جيدا عن تلك القدمين اللتين ربما تكونان لماعز، أو حمار، أو ربما جني سنواجهه ببسالة وشجاعة، وسنصل للحقيقة، حقيقة ما نحن فيه، وما يعترينا، أخذنا نلج من المغارة الواسعة المضاعة؛ حتى أفضينا للمغارة المظلمة، كانت رائحة الحريق تزداد، والبرودة تستشري في أطرافنا، وفرائصنا، وظهورنا ما فتئت ترتعد كل لحظة، تيقنا أننا في مغارة تسكنها الجن، لا محالة، لم يكن الأمر طبيعيا، بدأنا نشعر بأشياء غريبة، تحصل لنا، وبأن تياراً من الهواء البارد يمر من أمامنا، ودون أن نجد له تفسيراً، ومن أين يهب؟ ازدادت حدة الرائحة، وكأن شخصاً ما أشعل المئات من عيدان ثقاب الكبريت، كنا نعلم علم اليقين أن شم الحريق علامة على حضور الجن المخلوقين من نار، وفجأة وقع الكشاف على باب في الجدار، منحوت من الصخر، على شكل باب، لكن دون أن تكون له عروة، أو نعرف كيف يفتح؟ بحثنا عن مكان يفتح به الباب دون جدوى، تذكرت أفلام السينما التاريخية، وكيف تنفتح الأبواب الحجرية، في مغارات وسراديب تلك الأفلام بشكل دائري، لكن لم تفلح تلك الفكرة التي ربما استوحاها كتابها من نسج خيالهم، ولا علاقة لها بالواقع، وفجأة سمعنا صوت بكاء طفل، يصدر من قعر حفرة عميقة، ثم انقلب إلى ضحك، وسادت حالة من الهرج، والمرج، والخلاف الحادة، والعنف بيننا، وانقسم فريقنا لمعسكرين متناحرين؛ فريق يطالب بالعودة سريعا، مكون من ثلاثة أشخاص، وفريق يطالب بالاستمرار في المحاولات، وكنت أنا من ضمن الفريق الذي يؤيد الانسحاب بسلام، والبحث عن مخرج من هذه المغارة المخيفة عبر الطريق الذي صعدا منه، وتطور الشجار حتى بدأ بالتشابك بالأيدي بين محروس وخالد، الذي كان مصرا على إتمام المغامرة غير المحمودة العواقب، فدفع محروس الذي كان ضخم الجثة خالد بقوة؛ ليرتطم بالباب الصخري المنحوت في جدار المغارة؛ لينزلق الباب للخلف، ويتحرك بضع سنتيمترات، ويصدر صوت احتكاكه صوتا مزعجا؛ بسبب قشعريرة في الأذن، عندها بدأ فريقنا الذي كان يطالب بالمغادرة بالتراجع عن قراره، ورحنا جميعا ندفع الباب الصخري، باتجاه الخلف، وقد بدأ يستجيب لحركتنا، ولكن كان تحركه بطيئا حتى بدأت تلك الحركة للباب تسرع قليلا، ثم انزلق تماما؛ ليستقر في نهاية ممرٍ طويلٍ يقدر بخمسة أمتار، ولم نجد أي فجوة، أو حفرة، أو سرداب يؤدي إليها، دفعنا

الباب، وأخذنا نسلط ضوء المصابيح على جانبي الجدران، و تمكنت أنا من تمييز باب حجري آخر على جهتنا اليسرى، نفس نحت الباب الحجري الذي رأيناه في نهاية الممر، ثم أعدنا الكرة بنفس الطريقة الأولى التي اكتشفناها صدفةً، عقب دفع محروس لخالد، أخذنا ندفع الباب بقوة، ولدهشتنا لقد تجاوب معنا سريعاً، وانزلق بسهولة، ويال دهشتنا! لقد كشف لنا عن سلم حجري بدائي يؤدي للأسفل، وكان هناك هواءً بارداً يهب من الأسفل، واشتمنا رائحة روث بقر، نزلنا السلم البدائي غير المشذب، واستمرينا بالنزول، لم يطل بنا الأمر، سرعان ما وجدنا أنفسنا بقاعة على نفس الطراز للقاعات، والمقابر السابقة في الأعلى، نفس التصميم، والنقوش، والكوات، ووجدنا أثاثاً جنائزياً كثيراً في الكوات، ونطع، وسجاجيد كثيرة من جلد الخروف، كانت القاعدة مشابهة للقاعات في الأعلى إلا أنه تميزها أن كل الأرضية مفروشة بجلد الخروف، لم نستطع أن نستكشف تلك الأشياء!؟

إذ سرت فجأة نوبة متواصلة من القشعريرة في أبداننا تملكنا جميعاً، وخيل إلينا أن هناك من يستمع إلينا ويراقبنا، وكما القاعة العلوية التي تفضي إلى قاعتين أخريين، لاحظنا دكة مرتفعة نوعاً ما، وذات فتحةٍ بارترافٍ واسع، ترتفع لأربعة أمتار، وعرض المترين، وكانت مظلمة، وشعرنا أن هناك مجالاً كهرومغناطيسياً، ينبعث منها، ويجذبنا لا إرادياً نحوها، كانت أقدامنا المتخشبة من الخوف، وأيدينا المتصلبة تنجذب بسهولة، نحو تلك الدكة، كان تحتها حجران مستطيلان؛ حجرٌ صغير، وآخر أكبر منه، يسهل الصعود والولوج إلى تلك الدكة، خيل إلينا أن هناك ضوءاً، يتسلل منها، ورائحة روث بقر، محروق، تضوُّع منها، فشلت كل حركاتنا للانسحاب للخلف، أو التوقف ولكن هيهات، فقد كان الشيء المغناطيسي الذي شل حركتنا، أو بالأحرى جعلها تتحرك باتجاه واحد فقط نحو الدكة، دون غيرها، بل كنا نشعر بتتمل في الأطراف، وخدارٍ عندما نفكر بالهرب، والتراجع.

تسلق آخر واحد فينا الدكة، ثم أخذنا نمشي بوجوم، وكنتُ أشعرُ بجفافٍ حلقي، وعطش وحاجتي للماء، أخذت أضواءً ساطعة تغمرننا، كان وهج نارٍ كبيرة، مشتعلة، عمت أبصارنا، ورحنا نتقيها بأيدينا، لكن كان وهجها على العين فقط، وكنا نشعر بحرقه في أعيننا، وبدخانٍ يدغدغ أنوفنا، وكنا نسلعُ بشكلٍ جماعي، والدخان يتسللُ للأنوف، والعيون، ولكن لم نكن نحس بلفحة النار، وحرارتها، فقط دخانها، وأورها الساطع، ثم سمعنا قرع حوافر أغنام، سمعناها بوضوح، عرفنا جميعاً كم كنا مخطنين بحق ابن خالي خالد، فها هي أصوات حوافر الأغنام تسمعُ بوضوح، وكنا مازلنا عاجزين عن فتح أعيننا مع كثافة دخان النار، وشعرنا بأنه يكاد يغمى علينا من كثرة ما استنشقتنا من دخان نار الروث المحروق، ثم انطفأت النار فجأة، واختفى لهبها، وفتحنا عيوننا الملتهبة بصعوبة، وهالنا ما رأينا!!! كان خمسة من الأمساخ البشرية بشكل نصف آدمي، ونصف حيوان تنتصب أمامنا، رحنا نتعرقُ عرقاً غزيراً، ونرتجف، وشعرنا بأجسادنا تنشفُ، وألسننا تثقل؛ فلم تقوَ على الدعاء، والذكر، وشعرنا بدوارٍ وصداعٍ، يضربُ رؤوسنا بعنفٍ، كنا بحاجة للبكاء... بكاء يخففُ توترنا، ويزيلُ الهلع، والقهر، والحنق في أعماقنا، لكن يبدو أن الدموع هي الأخرى جفت، فها هي تلحق الفم بالأنشاف، حاولتُ عبثاً أبللُ لساني بأي لعابٍ والنطق، دون أي فائدة!! كان الفم جافاً مالحاً، ولساني يكاد يلتصق بقاع فمي، كنت كمحكومٍ عليه بالإعدام، خارت قواه، ونشف ريقه، وزاغ بصره، وكان حال البقية أيضاً، مرت تلك اللحظات الرهيبة دقيقة واحدة، فقط دقيقة صمت

مطبق ودهشة مزعجة، وكان الخمسة الأسماخ، قد أدركوا ما حل بنا، وما عقد ألسنتنا، فهرع أحدهم بقعب ماءٍ أسودٍ، كبير مصنوع من المدر، ومملوء بالماء، ومدّه لي، وما أن انتقل من يديه ليدي؛ حتى كدت أقع أنا والقعب أرضاً، كان ثقيلًا جدًا، كأثني أمسك بقطعة حجر ثقيلة، وتشجعت، وجاهدت؛ حتى رفعتَه لفي، وسميت الله بسري، وشربت حتى الثمالة مع أن حلقي الجاف، كان يؤلمني أثناء الشرب، وكنت بحاجة للمضمضة، وأن أغسل وجهي، ولكني لم أجرو في حضرة العملاق الصغير الذي تجسد أمامي، كان منظره طفلاً مقارنة بالأربعة الباقين، وليس مقارنة بنا.. كان أسمر البشرة، بجسم يبدو أنه جسم خروف، مخلوق الشعر، وبقدمي حمار، ويدان وأصابع، كأيدينا، لكنها بأظافر طويلة حادة، ونفس شكل وجوهنا، لكن العينين مقلوبتان، وشديدة الحمرة كأنها أدميت، والأذنان كأذني حمار، لكنها بجلد شبه بشري كأنه غضاريف، ويوجد أربعة أنياب بارزة، اثنتان للأعلى، واثنتان للأسفل، وعلى ضخامة أجسادهم كان الرأس صغيراً جداً، مقارنة بتلك الأجساد الفارعة، أما الشعر فكان شعراً أجعداً، خفيفاً، شبيهاً بوبر الجمل، وكانوا يشتملون بخرقه واحدة معصرة، وملعوصة، تلتف في منتصفهم بشكل غريب، ثم ترتفع؛ لتغطي البطن والصدر، ومربوطة للرقبة، أما الظهر فكان مكشوفاً.. بدأت مخاوفنا تتلاشى تدريجياً، وأخذت الطمأنينة المشوبة بالقلق، تتسلل لقلوبنا المخطوفة، فقد اعتبرنا شربة الماء تلك علامة صلح، ورسالة سلام ومحبة من تلك الكائنات، كان أول الناطقين هو هيثم، الذي كان آخر من يشرب الماء من القعب، وأخذ يستجمع قواه وهو يعيد القعب للصبي العملاق، ونطق بصوتٍ خافتٍ متوجس:

- السلام عليكم، شكرا على الماء.. هل أنتم موميوات كانت مدفونة بهذه المقابر؟ وخرجتم؟؟  
نعذر إن كنا أزعجاكم، رد كبير تلك الكائنات مبتسما:

- وعلیکم السلام ورحمة الله وبركاته، نحن لسنا موميوات، فالموميوات جثثٌ محنطةٌ وميتةٌ! كيف لها أن تحيا وترد فيها الروح؟؟!! نحن جنٌّ!! ومن حسن حظكم أننا جن ضوئي مسلم من النصيين، وقد نزحنا إلى هذه المغارة منذ عامين؛ بسبب القصف الكثيف والقذائف التي طالت بيوتنا؛ بسبب حربكم الفاحشة هذه، أيها البشر، قال خالد:

-أسفون لك، أيها الجني!! فنحن مجرد مواطنون عاديون، لا علاقة لنا بالحرب، ونأسف لما حصل لكم، ونحن أيضا تضررنا منها، ولم نعد نعرف لها نهاية، ومتى تضع أوزارها؟؟ فقد عانينا وأهلنا الأمرين من شرستها، وضراوتها، وقد شلت كل مظاهر الحياة في البلد، تناول محروس طرف الحديث:

- شكرا جزيلاً لكم، ونحمد الله أننا تعرفنا بالجن المسلم، لكن ماذا كان سيجري لنا لو أننا صادفنا في هذه المغارة جناً غير مسلم أو نصارى، رد الجني :

- الجن الكافر لا يلجأ إلى هذه المغارات، أو المنازل إلا نادراً، في حالة تعذر حصولهم على مزابيل، أو خرابات قدرة، يقطنونها. فهم يقطنون المزابيل، والخرابات، والوهاد الفقراء الموحشة، حتى مع هذه الحرب، فقد رحل معظمهم ونزح إلى بئر (برهوت) في حضرموت حيث يتوفر الغذاء، والعفن، والماء النتن الذي يعتمدون عليه كطعامٍ وشرابٍ لهم، ولا يأكلون الطيب من الطعام، ولو كنتم تصادفتهم بهم سوف يؤذونكم ويتلبسون بكم، ومن سينجو منكم

سيكون إما ممسوسا، أو مصروعا، أو مجنونا، وليس بعيد أن يقتلوكم، تدخل محروس فزعا  
مما سمع :

-أرحب بك، حضرة الجني. اسمي محروس، ما اسمك؟ رد الجني المسلم :

- انا اسمي ابانوخ ابن طوطيانيل، وهؤلاء أبنائي الأربعة دريانيل، ومازر، وحقيال، أما هذا  
الصغير الذي سقاكم الماء فهو آخر خلفتي، أو كما تقولون أنتم معشر الإنس آخر العنقود،  
فهو ميمون، رد محروس:

- ما شاء الله! ربنا يحفظهم لك ويصلحهم! فعلا تبدو عليهم الأخلاق والذكاء. أما أنا فقد رحت  
أثنى عليهم، وأشكرهم بحفاوة، وسألت عن عدد القاطنين للمغارة؟ رد الجني ابانوخ ابن  
طوطيانيل:

- نحن لدينا رهط، أو ما تسمونه أنتم قبائل. وأنا هنا رئيس لتسعة وأربعين رهطا من الجن،  
أو قبيلة بلغتكم شيخ مشايخ هذه القبائل، وهكذا كل تسعة وأربعين رهط أو قبيلة يكون قائما  
عليها ملك، أو شيخ، ونحن الآن نتواجد في هذه المغارات التسعة والأربعين رهطا جميعا  
بأسرنا، وزوجاتنا، وأطفالنا، وكل ما استطعنا أن نأخذُه معنا في نزوحنا المر من متاع وأثاث،  
وهذه المغارة ليست بالأبعاد التي تشاهدونها أنتم، فهناك أبواب، وحجرات عدة، واسعة، لم  
يكتشفها الإنسان بعد، وربما يأتي أجيال منكم تكتشفها مستقبلا، وهي تتسع لكافة أفراد  
رهطنا، وهناك العديد الآن حولكم، يستمعون إليكم، ومتعجبون من أشكالكم، لاسيما الصبية  
الصغار، ولن تستطيعوا رؤيتهم؛ لأن رؤيتكم محدودة، مقتصرة على رؤية ملك الرهط،  
وأبنائه، ولو رأيتموهم لصعقتهم، فليس جميعهم بنفس منظرنا، فمناظرهم، ووجوههم،  
وسحناتهم تختلف تماما، كما لديكم بني البشر؛ فيكم الأفريقي الأسود ذو الشعر الأجدع،  
والمناخير المفلطحة، وفيكم الآسيويون ضيقي العينين، وفيكم ذوو البشرة الحمراء، ونحن  
كذلك مختلفين، وكل رهط أشكال أفراده يختلف عن الآخر، فنحن الآن أقرب صورة إلى  
ملاحكم والأفضل لكم.

قطع كلام ملك الجن موجة غبار هائلة هبت، ولاحظنا الغضب على وجه ملك الجن، وهو  
يخاطب جنيا لا نراه، ولا نسمعه، ثم وجه حديثه لنا، من الأفضل لكم الآن أن تختبئوا في  
الداخل، وسنقوم بتهريبكم عبر سراديب؛ سنتفد بكم حتى مدينة أخرى، فقد أبلغنا الحكيم  
يوناس الآن؛ أن ملك الجن الكافر زعيم قبيلة الدناهشة قد علم عبر جواسيسه أنكم في  
حضرتنا، وهو يطالب بتسليمكم للانتقام من مصرع عددٍ من أفراد رهطه، بقذائف حربكم التي  
أمطرت حيهم بسخاء منقطع النظير، وأنه لولا الحجاب الذي يفصل بين عالمي الجن والإنس،  
وعدم وجود سبيل إليكم إلا في حالات استدعاء البشر للجن، كبكاء الإنسان في الحمام، أو  
حالات السحر الأسود، أو في حالات معينة يكون الإنس في حالات من الضعف والشك، لكان  
أباد كل من يقع في يده، وهم قد تسببوا في بعض حالات الجنون، والانتحار لبعض أفراد الأسر  
في منازل لجأ إليها أتباعه.. عادت المخاوف التي كانت تلاشت، تستوطن أفئدتنا من جديد،  
وغامت الدنيا في أعيننا، ولم نعد نشعر أننا في حلم، أو علمٍ

## الفصل الحادي والعشرون

أخذا هوارد رد يتأرجح في الهواء، وهو مربوط بحزام السلامة المربوط على الحبل المتدلي، من أعلى الجبل نحو الجرف الصخري، كان قد أضاع شهرا كاملا، وهو يهيم في جبال وصحاري مأرب، والمحويت، وتخوم صنعاء، دون أن يعثر على مومياء بكر، لم تكتشف بعد، وماتزال مدفونة؛ لتكتشفها بعثته الأثرية المتواضعة.. لقد كلفته هذه الرحلة الكثير، فمعظم تكاليف البعثة كانت على نفقته، وقد ساعدته جامعة كاليفورنيا بالنزر القليل، وسفارة بلاده في اليمن اكتفت بالتوصيات، والوعيد، والرسائل التي وجهتها للحكومة اليمنية وضرورة أن يحظى بالحماية، والاهتمام كمواطن أمريكي، أما الحكومة اليمنية فقد اقتصر دورها على منح تصاريح البحث، والزيارة للأماكن الأثرية، والبحث فيها، وأيضا ساعدته على تعيين المرافقين له من الحراس، والمسؤولين، وتذليل الصعوبات أمامه، وتسهيل البحث في المتاحف، والجامعة، والأماكن الأثرية، وجعلت سيارة بسواقها تحت تصرفه، كان وهو يتشبث بالحبل ليس حبل النجاة له من السقوط المريع، والارتطام بالصخور الحادة المميتة بالأسفل فحسب، بل حبل الأمل الأخير الذي سيصله لتلك المغارة الضيقة، والعتور على ما يحلم به..

كان الخوف جليا على وجهه كان يتوسل لهرب ريجر بأن يكون لجانبه.. كان هرب ريجر، هو الآخر متدليا بحبل بجانبه، وكان يسنده، ويوجهه نحو المغارة، في حين كان ريكو ميلدي في أعلى الجبل، يتفاد حفر تثبيت الحبال، وقد رفض أن يتدلى، ولا أحد يعلم ما أصابه واعتراه، حتى تلك الأربعة القوائم التي أقسم أنه رآها، وصورها لم تظهر في تسجيل الفيديو الذي صوره؛ الأمر الذي سبب له الحنق، والإزعاج، والإحراج، وأيقن أنه كان حتما يهذي، وأن ما شاهده هو مجرد أوهام بفعل الشمس، والإعياء، والتسلق الكثير للجبال، على مدار أسبوعين بحثا عن مومياء طازجة للدكتور هوارد رد؛ ليعمل عليها بحوثه في تحديد عمر حقيقي ودقيق للمومياء اليمنية.

بعد محاولاتٍ مستميتةٍ نجح هرب ريجر، والدكتور هوارد في بلوغ حافة المغارة، وأن يجدا لهما موضع قدم صعبا للغاية، ثم بدأ يتفحصان المغارة، ويطمنانان من سلامة الوضع، وبدأ بالزحف، والحبو، وما إن حبا الدكتور هوارد بضع خطوات كالأطفال الرضع، حتى كان يشعر بقلبه يخفق بشدة، ولم يعرف سر ذلك الخفقان أهو التوتر، والخوف؟ أم فرحة مشاهدته تلك القبور الصخرية المسدودة بمادة من الجص؟؟ أخرج من جيبيه مشرطا حادا، وبدأ بالحفر بقوة، وحرص، كان في عجلةٍ ولهفةٍ، واستمر يحفر، وكان يطالع بين لحظةٍ وأخرى عمق المغارة، وهو يتخيل أن يطب عليه الحمار الأسود، الذي رأى قوائمه الأربع غير المتسقة واستمر في الحفر، وظاف في ذهنه خاطر... ماذا لو أن القبر مقبور فيه حمار، ووجد مومياء حمار بدلا عن مومياء بشرية؟؟! طرد تلك الوسواس عن ذهنه، وواصل الحفر؛ حتى لاحت له أخيرا قطعة خشب؛ فراح يقتلعها بحدٍ شديد، وكان هرب ريجر يتأمله في صمت، وهو يقوم بعمله بصبر، وأناة، وثبات، ولاحظ نظرة التلهف، والتوسم ترتسم بوضوح في وجهه، والثقة تتعزز في أن يعثر على مبتغاه.. كانت واضحة في قسمات وجهه، وعيناه اللتان غمرهما العرق الذي كان يتساطر غزيرا، حيث الجو الخائق للمغارة الضيقة يجعل الحصول على

الأكسجين، والهواء النقي صعب، وراح هوارد ينزغ لocha ثانيا وثالثا، ثم أخيرا نجح في الوصول للقبر، اشتم رائحة كريهة، تنبعث، وبدأ الذباب يتجمع حول الفتحة، لم يعرها اهتمام، وارتسمت على وجهه أخيرا منذ شهر ابتسامة حقيقية، غطت كل وجهه، وكان له الحق في أن يفرح تلك الفرحة الكبرى.. فهناك في ذلك الناووس، في قاع المغارة الصخرية، كانت تستقر مومياء ملفوفة عدة لفات، من الكتان، كانت تبدو أنها مومياء لطفل كانت ملفوفة بعناية، وإحكام بنوع من الكتان، الخرق شديد الإصفرار..

اشتعلت كهرباء الفرحة في جسم الدكتور هوارد رد، وأضاء الفرحة كل ذرة في جسده لدرجة أن ذاك العرق الغزير المتساقط قد توقف عن الانهمار، وانتقلت عدوى الفرحة للمتسلق هرب ريجر، فراح هو الآخر يبتسم بسعادة، وسرور، وقد أيقن أن مجيئه من أمريكا لليمن لم يذهب سدى، وهذا سيضيف الكثير لرصيده، وخبراته في تسلق الجبال، والأماكن الأثرية، وعند عودته الظافرة ستستقبله زوجته بالقبل، والأحضان، وسيفأخر أمام زملائه، وأصدقائه في كاليفورنيا برحلته التي رتب لها في خياله قصصا وحكايات سيقصها لكل شلته في أمريكا.. نعم، سيدعوهم لحفل استقبال سيكون هو نجمه، وسيحكي لهم الكثير، وفي ما كان الدكتور هوارد مشغولا بنزع لفافات المومياء، كان هرب يزف للدكتورة فيتشر عبر جهاز الوكي توكي البشرى السارة، ونقل له المايك أصوات الفرحة والسعادة التي دوت في الأسفل، وارتسمت ابتسامة رضا على شفتي هوارد، وربت على كتف هرب ممتنا.. مر الوقت ونيدا، وقارب على الساعة، والدكتور هوارد رد يفك اللفات عن جسد المومياء المحنطة حتى أتمها، كانت ثلاث لفات يبدو أنها كانت ملصوقة بنوع من الغراء القوي، ولم تكن لفات عادية؛ حتى شارف أخيرا على فتح آخر لفة مطوية، وكان يستعين بمبضع صغير بيده، دون أن يحدث قطعا للفائف، وأخيرا بان المومياء، وظهرت للعلن، وراح هرب ريجر يعيد ضبط كاميرته، ويصور اللحظة الحاسمة لظهور وجه المومياء، كانت جمجمة صفراء، تحتفظ ببعض ملامحها، ويبدو لحم جاف رقيق مازال ملتصقا بها، وكانت شفاتها معوجة، وملتوية بشدة، وكأنها مصابة بجلطة دماغية، وراح الدكتور هوارد يفسر للمتسلق ريجر السبب وهو:

- أن الشد القوي بلفاف الكتان للوجه؛ هو من أدى لهذا الالتواء، وليس إصابة بجلطة، ولا أعتقد أن الجلطة - المرض العصري المتفشي بكثرة هذا الزمان - كان يحدث ذلك العصر!!

راح الدكتور هوارد يأخذ عينة من رقبة المومياء، ويضعها في كيس صغير من النايلون، وأخذ أجزاء من لفائف الكتان، ومن الكيس الجلدي، وعينة من بطن المومياء، ثم وضعهم بوعاء صغير، مربوط بعروته حبل، وناولهم هرب ريجر ليدليهم للأسفل، ثم تنفس هوارد الصعداء، وشعر بالراحة التامة، وهو ينجز مهمته بنجاح، وبينما هو يهم بإعادة المومياء إلى قبرها ويهم بالمغادرة كانت في الأسفل مشادة كلامية، وصياح شديد بين رجال القبائل؛ أيهما أحق في أخذ المومياء؟؟؟! ولكنه لم يشأ أن يقحم نفسه بخلافهم، فهو لم يحضر للتفتيش عن المومياء، وإنما لأخذ عينات من مومياء نقية؛ لتحديد عمرها الزمني، وبينما الخلاف يزداد حدة، والأصوات الصاخبة تملأ، كان يضرب كفا بكف، وعندما كان يهم بتوسيد المومياء في حفرتها، نفت نظره كائن حيواني محنط، ملتصق بالفقص الصدري للمومياء من الداخل، وراح يصرخ:



- يا إلهي!! لا أصدق ما أراه!! ردت جوان قلقة، والتي كانت في حال اتصال معه :

- ما الأمر؟؟ راح يتأمل مشدوها، وهو بحالة ذهول تام، هيكلًا عظيمًا، لحيوان قارض شبيهه بالفأر، يبدو من شكله أنه لم يكن حيوانًا تسلل، ومات في القبر، بل يبدو أنه قد قبر مع المومياء، وتم تحنيطه، ووضعها لجوار المومياء لسبب معين!! هل الأمر يرتبط بتعويدة معينة؟؟ أم أنه أحد طرق تخويف اللصوص؟؟ أم هي لعنة مومياء يمنية مبتكرة وفريدة؟؟ جالت بخياله عدة احتمالات لكنه رفع اللاسلكي، وسرد للدكتورة جوان ما شاهدته ردت عليه جوان:

- شيء في غاية الغرابة فعلا! يا دكتور هوارد، لا بد أن في الأمر سرا! وربما هو نوع من الانتقام، وعقاب من اليمينيين القدامى من الفأر الذي يقال أنه كان السبب وراء هدم سد مأرب، وخرابه، وتشتيت اليمينيين، وتشريدهم في أصقاع الأرض فهناك روايات متواترة تحكي أنه هو من قام بقرض تلك الطوب التي بني بها سد مأرب العظيم، وأكد أجزم أن الفأر لم يتسلل ليقضم المومياء، بل إنه لاشك وضع عن عمد.. لو تكرمت، ممكن تأخذه كعينة؛ لنحدد عمره، وهل يعود لوقت التحنيط؟ أم لفترات متعاقبة؟ أعجبت نظرية جوان الدكتور هوارد، فقام بأخذه كعينة، وهو متحمس جدا..

وراح يستعد هو وهرب ريجر للنزول، اطمئن هرب من نزول الدكتور هوارد بأمان، ثم أخذ يجمع أشياءه للنزول، ولكن قبل أن ينزل أراد أن يلتقط عددًا من الصور للمغارة، وللمومياء المتوسدة، في الحفرة، وراح يثبت عدسته، ويلتقط الصور، وكان يشتم رائحة غريبة أشبه بدخان، تتصاعد من المغارة، وجسده يقشعر؛ فاستأذن الدكتور هوارد خمس دقائق عبر اللاسلكي ليلتقط بضع صور، رد عليه:

- حسنا لكن أسرع، أخذ يخطو، ويزحف لعمق المغارة، وهاله ما رأى!! كانت من الداخل غاية في الاتساع، وفي أعماقها ظلامٌ موحشٌ، شعر معه بجسده يرتعد، وخوف غريب ممزوج بقشعريرة حامضة، تقضم داخله، وتذكر ما حكاه زميله ريكو ملدي، وإحجامة عن التسلق مجددا للمغارة، فراح يبتعد، وهو يتخيل وحشا بنصف إنسان، ونصف حمار يلاحقه، راح يثبت حلقتة، وينزلق بعجل، جعل كل الحاضرين في الأسفل يستغربون من تلك الحالة التي اعترته!! وعندما وصل للأسفل، كان ريكو في الأعلى يفكك المسامير من على الصخر، ويقوم بطي الحبال، ويجمع المسامير في كيس صغير، ويضعها في حقيبته التي حملها فوق ظهره، ومضى، وهو يشعر أنه ربما قد نجا، وابتعد عن الخطر الذي أخذ يعشش في ذاكرته، ويتسبب له في موجة من الهذيان، والفرع، والخوف اللاشعوري.

نجح الدكتور هوارد رد في الجزء الأول من حملته الأثرية، والتي قرر أن يجعل لها لاحقا جزءًا ثانيًا، وبعد إرسال العينات لجامعة يورك في إنجلترا، أتت النتائج لتؤكد أن عمر المومياء يعود لـ (1200) عام ق.م.. الأمر الذي جعل هوارد رد يطلق عبارته الشهيرة، التي أغضبت بعض المنحازين للحضارة المصرية "إن المومياءات اليمنية المكتشفة تعيد كتابة التاريخ، فاحتكار ثقافة صناعة المومياءات من قبل المصريين قد انتهى" وهكذا انتهت رحلة الدكتور هوارد رد الشهيرة، وكسبت الطالبة هيلين روث الرهان.

## الفصل الثاني والعشرون

غامت الأرض بوجه عزام، وشعر بجفافٍ بحلقه وبدوارٍ شديدٍ، لم يصدق ما تفوهت به تلك الأنثى التي ردت على الموبايل من لحظاتٍ، أعاد الاتصال مجدداً:

- السلام عليكم، عظم الله أجركم، أختي الكريمة. هل صحيح ما تفوهت به؟؟ ردت:

- نعم صحيح، يا أستاذ عزام، مقدرة لك هذه المشاعر النبيلة تجاه المرحومة أختي، لكن الموت حق. وهذا قضاء الله، وقدره..

- ما السبب؟؟ هل ممكن أن تشرحي لي؟؟ ردت:

- السبب ذلك الفيروس اللعين، الذي كان يعتقد بأنه قد تم التخلص منه نهائياً، لكن أختي - رحمة الله عليها - كانت تحتفظ بعلبةٍ في حقيبتها لعينة أخذتها قبل أن تغادر المعمل، وتأتي أنت لإنقاذها، لا تندهب فأنا وأختي توأمان، وهي لا تخفي عني أي شيء، وقد حدثتني عنك مراراً، كما أن رقمك محفوظ بالموبايل باسم الأستاذ عزام، أجابها:

- أتذكر أنها حدثتني عنك، اشرحي لي كيف حصل ذلك؟؟ أجابته:

- أنا سمر. ناديني باسم سمر، في الأمس كانت حياة سعيدة جداً، لم نرها فرحة مثل يومها ذلك، وأعتقد أن سر سعادتها هي معرفتك، وحبك الصادق لها، يا أستاذ عزام، وقد كانت تخطط لمعرفة نوع البكتريا التي تسببها المومياء؟؟ وهل هي بسبب التعفن؟ أم أن لها علاقة بعمليات التحنيط التي يقوم بها المحنطون؟؟ ولأنها كانت تعد للدراسة وتحضير رسالة الماجستير في البكتيريا القديمة أو العتائق، دراسة حول (الجراثيم العتيقة الأصلية وحيدة الخلية وتطورها ومساراتها الأيضية)، أتت فكرة بكتريا المومياء لتقلب خططها رأساً على عقب، وتعيد ضبط مؤشر دراستها، وخطتها من جديد، وقررت أن تكون بكتريا المومياء هي موضوع دراستها، خاصة أنها ترتبط بموضوع دراستها (الجراثيم العتيقة)، وأتت الفكرة لها مصادفة في آخر لحظة قررت فيها مغادرة مختبر المستشفى؛ فالتقطت على عجل عينة أودعتها في علبة زجاجية محكمة، حبستها في ما بعد بعدة علب زجاجية، وظلت تجمع المراجع، والدراسات حول هذا الموضوع، واستعانت أيضاً بي، بصفتي أكاديمية في كلية العلوم، إضافة للنت، وبعض المختصين والخبراء في هذا المجال، وكانت قد قطعت شوطاً كبيراً في هذا الجانب، وأرادت أن تقوم بتجاربها أولاً بمفردها قبل أن تتقدم لطلب نيل الماجستير ببحثها الموسوم بـ (الجراثيم العتيقة الأصلية)، حيث كانت تعتقد أنها ستقابل بالفرض، وسيطلب منها تغيير موضوع البحث؛ فأرادت أن تدعّمه بالأدلة العلمية والمنهجية مسبقاً؛ لتقوي به حجتها في مواجهة لجنة الماجستير في الجامعة.

وذات يوم ذهبت لإحدى زميلاتنا التي تمتلك مختبراً خاصاً، وطلبت منها أن تمنحها نصف ساعة بعد الدوام الرسمي لمركزها؛ لعمل بحث علمي متعلق بشهادتها المزمع تحضيرها للماجستير، فوافقت صديقتها، وحتى تؤدي بحثها بحرية، ودون أن تشغلها فيه؛ أفرغت لها

المكان، وأغلقت المركز، وظلت تنجزُ بعضَ الأعمالِ في مكتبها، ولما تأخرت زميلتها في الخروج، ورأت أن الوقت قد طال، وتجاوز الأمر الساعة والنصف؛ دخلت عليها، فوجدتها مغمى عليها، وبجوارها علبة أستيل مغطاة وورقة، وقد كتبت بخطٍ واهنٍ ورديّ، "عزيزتي أزهار، تخلصي من العلبة، أحرقها، وادفنيها بمكان لا يصله أحد".

اتصلت صديقتها أزهار، وكانت مرعوبةً، وبحالةٍ من التوتر، والخوف، ولا تدري ماذا تصنع!! فأمرتها أن تهدأ، وأن تخرجها من المعمل بأسرع وقت للصالة، وحذرتها من فتح العلبة، أو التحدث بما حصل، ووصلنا على السرعة مصطحبة أخي بسيارته، وقمنا بإسعافها لمستشفى خاص، وهناك واجهنا شبح الجشع المتشع بعباءات الإنسانيّة زورا، وقد تحملنا كل ذلك، لكن الله كان رحيمًا بها، ففارقت حياة الحياة التي أرادها لها أبي يوم أن سماها حياة، وأراد لها أن تتفتح كالوجه الجميل المشرق من الحياة الفانية التي لا نعلم نهايتها، ومستقرها الأبدي فخابت أمنياتها، وها هو اليوم يبكي الحياة، والطيبة، والسعادة، والبسمة، والظهر، والنقاء، والنور، والضياء، الذي كان يضيء عيونه، وينير حياتنا، لقد رحلت حياة بعمرها الغض الذي لم يشهد بعد ربيع حبكما، وكان يوشك أن يزهر، فقصمت عمر أبي باكرا، وجعلت حياتي داكنة ضبابية، وغريبة برحيلها الباكر المفاجئ.. فكيف بالله عليك يا أخ عزام؟ كيف أبكي توأم روعي؟! وصديقة عمري؟ وسلوة أيامي؟ وكل أمنياتي؟ وهي ترحل من أمامي!! نقل لها الموبايل نشيجا، وبكاء صامت؛ كان عزام الذي بدا صامدا طوال حديث سمر، يقاوم الحزن ويتجلد للبكاء، الآن وقد أفضت له أختها بسر موتها، وحدثته عن مدى تعلقها، وحبها الصادق له، لقد نكت جرحه، وهزت شجرة صموده الصلبة، لم يكن عزام يوما ممن ينهار سريعا، أمام موت الأعداء... كان دوما يتحلى بالصبر، والثبات، ولكن أن يكشف له النقاب عن أنه محل اهتمام، وحب، ونال الرضا من قلب المحبوب؛ حتى وإن كان يوقته، أو سمعه فإن صداه المنقول عبر شاهدٍ من أهل محبوبته- له طعم آخر، كطعم الشهد، ولذة الخمر، تنبتهت سمر لتلك اللواعج المسفوحة، عبر الموبايل، والشهقات المكتومة، فراحت هي الأخرى تنسج بالبكاء، وتغلق الموبايل بوجه عزام، دون أن تستأذنه، وتفهم هو ذلك.

مر شهرٌ على الوفاة، وكان عزام قد بدأ يتعافى، ويستجمعُ بعضَ شتات قلبه الموجوع، وأخذت أحزانه تتبدد، وكانت تغشى عقله أحيانا، وتشغله سحبٌ من الماضي، وتذكره بالحب الذي اشتعل، وخبا سريعا، بغمضة عين... وأكثر ما كان يثير فضوله؛ كيف تم التخلص من العلبة؟ وماذا بررت الأسرة الوفاة؟؟ وهل تعرضت للمساءلة القانونية؟؟ فقرر إعادة الاتصال ذات مساء واجم من أيام مدينته الحزينة، ردت عليه سمر، ولاحظ أن صوتها يحمل إليه كل أسى الدنيا، لعل سمر لم تنس وجع فقدها لتوأم روحها، وسلوتها، بعد عبارات التحية والمجاملات سألها مباشرة:

- ماذا صنعتُم بالعلبة التي تحوي الوباء المعدي الخطر، أختي سمر؟

سمر : تخلصنا منها مباشرة، أحرقناها، ودفناها بأرض فضاء، لا تقلق أخي عزام !!

عزام: أشكرك، لكن هل تعتقدين أن هذه نهاية للوباء القاتل؟؟ أم أن له تواجد وما زال ينشط في أماكن أخرى؟؟ لم نعرفها، ولا يدري أحدٌ عنها شيئا؟؟

سمر : حسب علمي أنه قد تم احتواء الميكروب، والقضاء عليه حتى تلك الأخبار المسربة، والتي تناقلها بعض الناشطين من أن اللجنة الطبية الروسية التي أتت لمكافحة الأمراض المعدية، والمتفشية بسبب الأوبئة والتلوث التي خلفتها الحرب، لم يكن غرضها شريفاً، وهدفها المساعدة الإنسانية، بل هي ستارٌ لفريق استخباراتي روسي، يتستر خلف قناع الإنسانية والمساعدة لاصطياد تلك البكتيريا القاتلة، وأي فيروسات ضارة مصاحبة، وأخذها بعلب محكمة إلى بلدهم؛ ليصنعوا منها جمراتٍ خبيثة، وأسلحةً بيولوجية، وغازات أعصاب فتاكة، يستخدمونها في حروبهم القذرة ضد أعدائهم، والمناوئين لسياسات الدكتاتور الروسي البشع الذي تتربع في قلبه أحلام وجنون العظمة، ويحلم بإعادة أمجاد وحقبة الإمبراطورية السوفيتية الأفلتة، ويحلم بروسيا قوية عسكرياً، وتفوق صناعة الأسلحة النارية والحربية، بما فيها الأسلحة البيولوجية، والجرثومية.. ويقال أن هذا الفريق الاستخباراتي الصياد للجراثيم، والمتغطي بمظلة الإنسانية قد سافر لكل بقاع وبؤر التوتر في العالم التي تشهد تفشي لفيروساتٍ، وأمراض معدية خطيرة.. فهم قد سافروا للكنغو الديمقراطية، وعددٍ من الدول الأفريقية، واصطادوا فايروس الأيبولا الذي ظهر العام (1994م)، وعاد أواخر العام (2014م)، وسافروا لجزيرة مدغشقر، واصطادوا فايروس الطاعون الذي ظهر العام (2014م)، ولم يدعوا مكاناً تظهر فيه جائحة شديدة، ومرضاً خبيثاً إلا وراحوا ينصبون مظلة الإنسانية الجوفاء، ويتصيدون تلك الفيروسات والجراثيم، بلهفٍ وشغفٍ شديدين، ويعالجونها، ويطورونها بخبراتهم الذكية، ويصنعوا منها جيشاً من المقاتلين، الذين يوجهونهم لأعدائهم المحتملين، وجلهم من الناشطين، والمعارضين، والصحفيين السلميين، والمدنيين الروس المناوئين لسياسة البطش، والإقصاء التي يتبعها النظام، وغيرهم من سكان ومواطني الدول التي تصنفها روسيا كأعداءٍ لاعتبارات سياسية، ومصالح روسية بحتة.

- ما شاء الله!! نطقها عزام معجبا بسمر: أنتِ موسوعة ثقافية، وعلمية شاملة. اسمحي لي أن أستاذنك، وإن احتجت شيئاً أخبريني. ردت : شكراً جزيلاً لك.

أغلق الموبايل، وكان يتمنى في قرارة نفسه لو لم تكن سمر هذه متزوجة، كان سيجدد حبه، ويحيي آماله، وسيعيد إنعاش قلبه المكلوم مجدداً، وسيغزو هذه المرة سريعاً، ويحسم أمره، لكن أمنياته ظلت حبيسةً أحلامٍ شاردةٍ، تعصفُ به تارة، وتنسيه مع مشاغل الحياة، ومضي الأيام، وتلاحقها تارة أخرى.

## الفصل الثالث والعشرون

سارعنا في الاختفاء، والتواري عن أنظار الأبالسة، وكان دليلنا هو الجني الصغير ميمون، الذي رغم طبيبته، وصغر سنه إلا أننا شعرنا بالخوف منه، ومن منظره، وتلك الهالة الحمراء التي كانت تصاحبه، وتكاد تصم أذاننا، وكأنها موجاتٌ نذبذباتٍ مرئيةٍ، ورحنا ننقادُ له، ونسلك معه دهاليز، وممراتٍ معقدة في غاية الروعة، أبهرتنا مساحة المغارة التي توهمناها صغيرة، وكنا ونحن نعبرُ خلفه، وجلين!! نحس بأنفاسٍ جنيةٍ، تتنفس من حولنا!! وكنا نشتم بخار أفواهٍ حامضةٍ، تنبثق من حولنا!! حتى وصلنا أخيراً، وأخبأنا ميمون في قبو، تحت الأرض، وراح يرد علينا حجراً أسوداً ضخماً، مربع الشكل، بمستوى الفتحة، ويفرش عليه قطعة قماش من نفس لون الحجر، ترابية الشكل، كانت الغرفة مظلمة، ولم نعد نبصر شيئاً، لكن في جوفها شعرنا بالاطمئنان، والأمان، وفي الأعلى كان قد وصل موفد قبيلة الدناهشة، وهم من الجن الناري الخبيث المخلوقين من مارج النار..

ارتعب ملك الجن المسلم، وحاشيته عندما أبصروا ناصور قائد جيوش دهنش ملك الدناهشة الأبالسة - أخطر أنواع الجن، وأعتاهم، وأشدهم إجراماً وخبثاً - وهم من سكان المزابل القذرين، شديدي البطش، لا يتورعون عن البطش بأي إنسان، أو جني يقابلهم، وحتى من يحضرهم من السحرة، والمشعوذين يبطشون به؛ لذا يحجمون عن تحضيرهم، لم يكن ارتعاب وخوف ملك الجن من حضور الجني المارد ناصور مرده لخوف، أو جبن، أو ضعف؛ فهم أقوى أنواع الجن، وأصلبهم، وأشجعهم على الإطلاق، ورغم قلة عددهم مقارنةً ببقية فئات ومجاميع الجن، فهم مشهورون بالقتال، ومشهودٌ لهم بالفروسية، والبطولة، ويستطيع الجني الضوئي المسلم أن يقتل مائة شيطان، صعب المراس، وقوي الشكيمة، بضربة واحدة في المعارك، والحروب التي حصلت واستحصل، لكنهم منذ زمنٍ بعيدٍ قد شهدوا حروباً عدة، وشاهدوا نتائجها الكارثية، وخبروها، ورأوا كيف انعكس وضعها على الجن بشكل عام، وما تسببت فيه من أضرار، ودمار، وخراب، وتشريد للسكان من الجن، وتدمير للمباني، والأسواق، والطفرات التقنيّة الجنية، وأنها أعاقت التطور، والنمو، والحركة؛ فقرر مجلس حكماء الجن الضوئي ذات حرب أن يجتمع وينهي الحرب مع إحدى جماعات الجن، وإن كان قد قدم تنازلات، لكنها كانت لحقن الدماء، ولينعم الجن بالأمان، والسلام السرمدى، ومن حينها تم سن قانون بأن يحرض الجن الضوئي على تجنب الحروب، وألا يسعى إليها مهما كلف الثمن، وليتقيها، ويدفع نارها بكل ما تتوفر لديهم من إمكانيات وأموال..

وقانون السلام هذا يكون ملزماً للجميع، ولا يمكنُ خرقه بأي حالٍ من الأحوال؛ حتى وإن استفز الجن الضوئي، ودفع للحرب، ويكتفي أن يقوم بدور المدافع، ولا يقوم بدور المهاجم إطلاقاً، وقد مرت سنواتٌ عدة لم تشهد قبيلة الجن الضوئيين أي مشاكل، أو حروب، وحافظت على نهجها الذي وضعتهُ لنفسها، وتمكنت من كسب احترام كل قبائل الجن المجاورة، والبعيدة، بل صار كثيرون من الجن المتصارعين والمختلفين، يلجئون إليهم للتوسط في إنهاء الصراعات، لاسيما المتصارعين على السلطة الذين يكونون من نفس القبيلة، وبذا جعلوا

لأنفسهم نهجا فرضوا فيه احترامهم، ومكانتهم في عالم الجن السفلي غير المرئي، وصارت قبيلة الجن الضوئي مضرب المثل عبر قرونٍ من الزمن، وقد حدثت عدة حوادث عكرت صفو سلام القبيلة، وكادت تجر رجلها لمستنقع الحرب، لكن لجنة الحكماء التي تم انتقاؤها بعناية فائقة من أشهر حكمائهم، وحلمانهم سرعان ما كانت تنجح، وتفجح في الجنج للسلم، وتفوت الفرصة على المعتدين لاسيما الدناهشة، الذين كثيرا ما كانوا يثيرون المشاكل، والقلقل؛ حتى ينسوا أخيرا من إفساد قوانين القبيلة، ونهجها السلمي؛ فانكسروا خائبين، ومضى زمن طويل لم يعودوا بعدها إطلاقا لألاعيبيهم، ومكرهم..

وها هو اليوم دنهش الأسود أقوى أولاد إبليس، والحاكم الظالم الغاشم ذي العمة الدخانية المخيفة، يبعث لهم رسالة مفادها الشر، حيث أن لديه العديد من القادة، والمستشارين أقل بطشا، وأفضل أدبا وعقلا من ناصور؛ لكن إرساله لناصر أراد أن يوحي بأن الأمر له أهمية قصوى له، وأنه لن يساوم على ما جاء من أجله، فإما تلبية مطالبه، أو التهديد بحربٍ شاملة؛ سيجر فيها القبيلة لما تتخوف منه، رغما عن أنفها، وسيخرق قوانينها، وسيجعلها تتجرع سم الحرب ووبائها، كان هذا هو أكثر ما يخشاه، وبحسب له ألف حساب ابانوخ ابن طوظيائيل زعيم الجن الضوئيين المسلمين، الذين استضافونا، وأكرمونا، وهدؤوا من روعنا، وعرضوا علينا المساعدة، كنا في حفرتنا التي حبسنا فيها ميمون كجرذان، وقعت في مصيدة - لا حول ولا قوة لها- ولم نكن نعلم ما يعانیه الجني الطيب ملك هذه القبيلة بسببنا.

كان ناصور بمعية جنين آخرين، وكان شكله العام أشبه بقط أحمر عملاق، شديد الطول، له جسم أحمر شديد الحمرة، كأنه مصاب بطفح جلدي شديد، وبحراشيف كأنها شقوق تبرز من جسمه، وكان رأسه كبيرا، مقارنة بجسمه الضخم أيضا، وتشكيل عينيه على شكل سمكة، وكانت أشد حمرة من جسده، كأنهما جمرتان، وكان يمسك بيده اليسرى صمصاما ناريا طويلا، على شكل صليب، وراح ناصور يلطم ابانوخ في لهجة استعلاء، وتكبر رغم معرفته بضعفه، وضعف زعيم قبيلته الطاعي والمتكبر:

- لقد علمنا عبر فرقة البصاصين، أنكم قد قمتم باستضافة ستة من رهط الإنس، وأنهم في ضيافتكم، وأنتم تعلمون علم اليقين ما قام به الإنس على مدار ثلاث سنوات من الحرب، والدمار، والقصف العنيف الذي شنوه على قرانا، ومنازلنا، وقد قتل خلق كثير منا، وهدمت البيوت، وشرد المئات من منازلهم، وها أنتم تنظرون لحالك البائس؛ كيف تركتم تجارتكم، ومزارعكم، وضيعتم، ولجأتم لهذه الكهوف العتيقة بعد أن شردكم هؤلاء الأعداء من مدنكم ودياركم؟؟ وإن كنتم جنا مسلما أو لا تستطيعون خرق قانون الصلح الأبله الذي قيد قوتكم، وجعلكم مستضعفين، وسلب منكم المكانة التي كنتم تتبوؤنها في عالم الجن؟؟! وبعد أن كنتم فرسانا شجعانا، وقادة الجن صرتم إلى الذل والهوان، لدرجة أن ستة من الصبية الصغار للبشر الذين شردوكم، وجعلوكم تعانون؛ لا يستطيعون أن تادبوهم، وتقتلوهم، وتلقون بهم للبشر كعبرةٍ وجزاء بما اقترفوه بحق أنفسهم وحقكم، رد عليه درديائيل حانقا:

- الزم حدك، يا ناصور!! فأنت تعلم حدود القوة الطبيعية لك، وللوغد دنهش، وإنني بأصبعي قادر على فعصمكم جميعا، فرغم كثرة عددكم، وعكفكم منذ قرونٍ على تطوير الآتكم، وأسلحتكم، ومهارتكم في الحرب والقتال، لم تستطيعوا أن تصلوا لربع قوتنا، ومكانتنا

العظمى، وسنظل نحن القوة العظمى في عالم الجن، والمتربعين على عرش القوة، وليس أننا لا نهاجم، ولا نعتدى على الأبرياء، أننا ضعفاء!! بل إن لنا قيمنا، وأخلاقنا كجن مسلم، وأنت قد رأيت خلال عمرك الخبيث بأننا حقاً لا نعتدي، لكننا ندافع جيداً عن أرضنا، وعرضنا، وشرفنا، وضيوفنا، ولم يجرؤ ماردٌ، وعفريت واحد على انتزاع شبرٍ من أرضنا؛ حتى أتت حرب البشر القذرة هذه، وشردتنا من أرضنا وديارنا، فهم بما آتاهم الله من العلم والمال، لم يستخدموه لبناء الأرض، وإعمارها، وتكريم الإنسان، وإسعاده، بل لشقائه، وتسببوا أيضاً بشقائنا، وأنه لا سبيل لنا بالنفوذ إلى عالمهم المليء بالبغضاء، والشقاق، والتشاحن، وإلا كنا قد أرغمناهم على وقف آلة الحرب القذرة، ووضعنا حدًا لمعاناة بني جلدتهم، وشعبنا أيضاً، رد ناصور بلهجة أكثر استعلاءً:

- أنت تعرف من هو ناصور؟؟ ولماذا أرسلنا دنهش المعظم!! ونحن نريد الآدميين الستة الذين لديهم، وسنمهلكم ثلاثة أيام لتسليمهم، وإلا سيكون أمرٌ جليلٌ تتحملون عاقبته!! .. اشتعل دريائيل غضباً، وهم بضرب ناصور، ومن معه ضربته الجنية المميّنة لولا أن صرخ فيه أبوه صرخة جمده، وجعلته يلزم مكانه، ورد ابانوخ:

- اسمع، يا ناصور، لقد سمحت لك بالكلام، وإخراج قينك، وسمومك دون أن أقطعك حتى مع تطاولك، وخطك في حق قبيلتي، وأريد أن أقول لك، وأن تخبر حضرة العظيم دنهش، أن قبيلة الضوئيين النصيبين منذ سنوات وسنوات، عبر قرونٍ خلت لم تعاد أحداً، أو تعتد على حق أحد، وقد ردعنا الظلم سنينا عديدة، ليس كمعتدين، بل كمدافعين، ولم يجرؤ كائنٌ من كان من الجن، أو البشر، أو الكائنات الأخرى أن يعتدي على قرانا، ومدننا، وديارنا، أو يرغنا على خرق قانون السلم، والأمان الذي انتهجناه، فنحن جن محترم، ولسنا بشر تقدس طغاتها، وتصنع معاناتها بيدها؛ فتضحى تلك الزعامات المريضة، والجوفاء بالآلاف الأبرياء، وتسيل أنهاراً من الدماء، وتقدم آلافاً من نسلهم قرابين؛ ليتربع على كرسي الحكم إنسي فردٌ، تلطخت يده، وكل بدنه بكل تلك الدماء؛ ليشبع نزواته، ويرضي غروره، وطمعه الأعمى في حكم زائل، لن يجد فيه خلوداً، أو طعماً للراحة، ولا هناءً للنوم؛ فهو قد ساق نفسه للهم، والخوف، والقلق الأبدي بنفسه، فنحن نعرف جيداً كيف نصون حقوقنا، وندافع عنها، والآن تفضلوا، انتهت المقابلة.. وأشار لابنه مآزر ليرافقهم.. أثار ناصور عاصفة هوجاء، وطار حانقا والغضب، يكاد ينفجر من رنتيه، ودوت في القاعة موجة تصفيق، وراح جمعٌ غفيرٌ من الجن يهتف بحياة ابانوخ، وبقانون الأمان والسلام، عندها أشار ابانوخ بيده؛ لتهدأ الأصوات، وقال موجهاً كلامه إلى الحكيم يونس:

- يجب أن تجتمع لجنة الحكماء، بعد صلاة العصر اليوم، ومن ثم التفت لابنه مآزر العائد لتوه: هل تبعتم حتى اختلفوا من حدود القبيلة؟؟ رد مآزرا:

- نعم، يا أبي، وقد كلفنا فرقتين: فرقة استطلاع وتحرر جوية، وأخرى حراسة متقدمة على تخوم القبيلة، وكلاهما فرق مخفية يصعب على الدناهشة رصدهم، ومعرفة نقاط تمرركزهم..

وفي الجانب الآخر، في مغارات أثرية مهجورة، في شبام الغراس، التي نرح إليها  
الدناهشة من جحيم القصف، كان الخبيث ناصور يحرض دنهش الذي كان يستشيط غضبا  
وجنونا، وكان ينتفخ، وينتفخ، وكأنه أنثى فحل جمل هائج، ذبح حاشيها أمامها.



## الفصل الرابع والعشرون

يقال أن كل الأطفال عسافير الجنة، تشفقهم الروح، وتتحننهم النفس، تهفو إليهم المشاعر - لا إراديا - إلا صغير الحية والعقرب، لكني أضيف: إلا صغير العقرب، والحية، والجن، فعندما عاد ميمون ذلك الطفل الجني الذي يقال أن عمره مائة خريف، وهي سن الصبا للجن مقارنة بأعمارهم الكبيرة التي يصلون إليها بين الألفين وألفين ومائتي عام، ورفع غطاء الحفرة؛ اقشعر بدني، وخفت من منظره، وهو يطل علينا من الفتحة، رغم طبيته، واطمناننا بأننا في قبيلة الجن النصيين المسلمين، وهم من القبائل الجنية اليمانية التي أسلمت، وحسن إسلامها في أيام الدعوة الإسلامية الأولى، لكن هناك شعورٌ غريزي خفي، ينبئني بأن هناك طبع سيء خفي للجن تماما كالمسلمين عندنا، نحن العرب بالاسم، وتصرفاتهم، وفعالهم كتصرفات اليهود، والشياطين، وأكثر!!

يجب أن نرحل بأسرع وقتٍ، عن هذا العالم السفلي المخيف، ونعود لعالمنا البشري الصاخب، ونتنفس طعم الحرية، والحياة، والضوء، لقد اشتقتنا لزحمة الأسواق، ووجوه الناس، وحياتنا الكادحة الشقية على تعبها؛ فهي حياتنا، ودياننا.. هنا أكاد أجن، وأصاب بالاكئاب، ضيقٌ يكبسُ على صدري، يكاد يخنقني، كنتُ أشعرُ بتأنيب الضمير؛ لشكي بالجن المسلم، ونظرات الشك التي أرسق بها ذلك الطفل الجني، الوديع ميمون؛ فهو لم يقصرُ معنا، بل كان يتفانى حد الإخلاص في خدمتنا، ويبدو أنه سعيدٌ - كاسمي - بخدمتنا...

سار بنا ميمون طريقا مختلفا عن الطريق الأول، أدخلنا قاعة دائرية فسيحة، عليها مدرجات من الحجر، وتعليها منصة حجرية عريضة منقشة برسوم، وألوان زاهية يبدو أنها قاعة للاجتماع والتشاور، وهناك لأول مرة كانوا يطالعون وجوه بعض الجن المخفيين، من الضوئيين الذين زال حجابهم، كانوا على ثلاثة أشكال مخيفة، وكانت القاعة تغص بهم، وطالعنا هناك أيضا ملك الجن النصيين ابانوخ ابن طوطيائيل، وجواره الحكيم يونس، وشاهدنا حقيال من أولاده فقط غير ميمون، أما دريائيل ومآزر فكانا في مهمة ما..

أشار لنا الملك ابانوخ بالجلوس، فجلسنا جوار بعضنا على الحجر الدائري، وشاء الحظ أن يكون على جانبي أحد الجن، ورحت أتلمص عليه، وأطالعه من طرف عيني، وأرمقه شزرا، دون أن يفطن لي، وكان شكله مفزعا للغاية، مختلفا تماما عن بقية الجن الذين طالعناهم في قاعات الاجتماعات، ويبدو أنه أبشع الجن على الإطلاق، وكأنه قرأ ما يدور في رأسي، وما أحدث به نفسي، فالتفت نحوي، ونظر بنظرة حادة، جعلتني انتفض، وأكبج لجام أفكاري، وسرت رعدة خفيفة - لا إرادية - في أوصالي، وشعرتُ بخيطة ساخن، يسري في أفخذي، ورحت أتوسل لهيثم أن نتبادل المجالس، ولكنه هو الآخر كان أكثر مني فزعا، ورفض الجبان أن نتبادل، وقطع هذه المخاوف ملك الجن، وهو يصيح بصوت كالرعد:

- اسمعوا جميعا، معشر الجن، وأنتم أيضا ضيوفنا الإنسيين، لقد صرَّح زعيم الجن الأبالسة دنهش، أنه إن لم نسلمكم بأنه سيعلن الحرب، وسيشعلها لألف عام!!! وأنتم جميعا تدركون

وتعرفون ماهي الحرب؟! ولن أشرح لكم ويلاتها، ودمارها، وبؤسها، وقد حاولنا أن ننفي وجود الإنس لدينا، ويبدو أن لديه جهاز تجسس قوي، وقادر على اختراقنا، ومع هذا ولأن هذا أمر مصيري، فيه سلامة قبيلتنا، ومكانتنا، وعليه توقف حياتنا، وهو مرتبط أيضا بقوانيننا، ودستورنا، ونهجنا الذي انتهجناه، ورسمه لنا آباؤنا، وسرنا على خطاه سنينا عديدة، ولم يحد عنه أيا من زعماء الجن، على مدار سنين طويلة.. فحنن قد قررنا أن نتناقش في هذه المشكلة، والطامة التي نزلت على رؤوسنا، وبحضور الستة البشريين؛ سبب هذه المشكلة، ونخرج بحل وسط، ومرضي، دون أن نعرض قبيلتنا للخطر، ونجرها للحرب والخراب، وأيضا دون أن نخالف ديننا، ونخل بشرفنا، ومبادئنا، وقيمنا كجن مسلم. والآن ليتفضل على منصة المشورة كل من لديه رأي ليقوله، ويوجز فليس لدينا وقت، وكل جني لديه خمس دقائق؛ ليقول رأيه...

بدأ الحكيم يوناس بالخطو نحو المنصة، وراح يشرح عن المشكلة باقتضاب، ثم حذر من الحرب، ورأى أن تسليم الضيوف خط أحمر، ولن يساوم عليه، وإن اقتضت الضرورة السير للحرب؛ فسيكون ذلك، لكنه واثق من أن بين عقول الحاضرين حتما سيجد رأيا سديدا، يستتيرون به، ويطمنون له، وسيخلصهم من هذه المعضلة.. ونزل وسط همهمة الحاضرين، وانقسامهم بين مؤيد ومعارض لرأيه.

توالت جموع الجن على المنصة، تطرح آراءها، وكانت بمجملها تصب في السلام، والخلاص من هذه الورطة التي ورطنا فيها هذا الجن المسلم، والمسالم النابذ لفكرة الحرب، والحريص على السلام، وكم بدا لنا - في نظر أنفسنا - عالما بشري قبيحا، وهمجيا، ونحن نستمع لديباجات، وخطب، ونظرات الجن للسلام، وحرصه الشديد على حقن الدماء، بل إن قانونهم يجرم الحرب، ويعد كل من يسعى لها، أو يحرض عليها في وسائل تواصلهم الجنية الأثرية - مُدائنا، ويجبُ معاقبته..

كانت الحربُ لديهم جريمةً كبرى، تتصدر الجرائم الأخرى، وترقى لمصاف الجرائم الحدية من سرقة، وزنا، وقتلٍ، لقد بلغوا شأوا رفيعا من الرقي، والمدنية، وكانوا منظمين نظيفين، لهم عالم متسامح متعايش، لا يوجد في مجتمعهم الفرقة، والبغض، والشحناء... قطع تأملاتي وإعجابي بعالم الجن التواق للسلام، والمتغلغل في المدنية، والتعايش - صوت يوناس الحكيم ينادي علينا أن نختر من يمثلنا لإلقاء كلمتنا، ووجدتُ نفسي أخطي دون أن أستشير أصحابي، كنت قد عرفت حجمنا، ومكانتنا، ونحن نستمع لكل ما تحدث به الجن عن السلام، والمحبة، والوئام، وليس هناك ما يجب أن تزهدق نفسا من أجله، وليختلفوا حوله، فتقديم التنازلات، لأجل السلام لديهم كان ديدنهم.. وهو الطابع السائد لدى الجميع، وكانت فكرة السلام قاسم مشترك تلفظوا به، خطبتُ بثباتٍ نحو المنصة، وقد أنارتُ كلماتهم الحكيمة تلك الدهاليز المظلمة في نفسي التي قدمت بها من عالم تملوه الكراهية، والبغضاء، تحكمه الأنانية، تسوده الأطماع، كان ينتصب أمامي شيء هوائي، كأنه مايك لاقط للصوت، رحت أتحدث عبره، وصوتي يرتج عبر القاعة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، معشر الجن النصيين المؤمنين. أتحدث إليكم أصالة عن نفسي، ونيابة عن زملائي، ونيابة عن كل اليمينيين، تتعثر حروفي، وتتبخر الكلمات، تحير

المعاني، وأجدني في هذا المقام الكريم عاجزا عن الحديث، لقد قطعت جهيزة قول كل خطيب، من محاسن الصدف، وحسن حظنا أن تهنا في هذه المغارة العجيبة، المقبرة الصخرية البديعة التي تحكي عن عظمة حضارتنا، وأمتنا في تلك الأزمنة الغابرة، وإبداع ذلك الفنان اليميني القديم الذي أقام حضارة تاريخية خالدة، والتي بنت السدود، وشيدت البنيان، وشقت الطرق، ونحتت الصخر بهذه الطريقة البديعة، في هذا الجبل الشاهق، القاحل الوعر، الذي يصعب أن يصل إليه إنسي، وأتقن فن التحنيط، وعلم صناعة المومياء، واحتفظت بها لألاف السنين، عبر هذه الصناديق الصخرية المدهشة، بموادٍ عطرية، ونباتاتٍ، وأعشابٍ طبيعية، وظلت محتفظة بشكلها دون أن ترم، أو تتغير.

وفي عصرنا هذا يتم الاحتفاظ بالجثث، عبر ثلاجاتٍ حديثة، بدرجة برودة شديدة، واستخدام مواد حافظة، ووصل مجد هذه الحضارة، ومنتجاتها، وتوابلها، وصناعاتها؛ حتى حدود الصين، وكانت تأكل من أرضها، وتلبس من صناعاتها، وسنت القوانين الحديثة، وخلفت إرثا حضاريا، أبهر العالم، لكن أحفاد أولئك الآباء المبدعين الكبار، للأسف لم يقوموا بعمل شيء يفاخر به، أو منجزٍ عظيم، قدموه للبشرية، بل صنعوا الدمار، وهندسوا الكراهية، ووزعوها، وزرعوها للأجيال، ومزقوا النسيج الاجتماعي، ولم يتفوقوا على شيء بسيط، كيف يديرون نظام الحكم؟؟ الوطن يتسع للجميع، والبلاد لا تضيق، لكن أخلاق الرجال هي من تضيق... إنه من المخجل أن نشاهد حيوانا يساعد أخاه الحيوان، كمنظر ذاك الحمار الذي شاهدته ذات مرةٍ بفيلم وثائقي لحمارٍ ينقذ حمارا من السقوط في حفرة، وهو الحمار الذي يقال لا عقل له!! بينما الإنسان العربي المفكر، أتعس شعوب العالم، وأشدها نهما، وجوعا للسلطة!! من ميزه الله بالعقل، والرشد، وفضله على سائر المخلوقات، يفكر، ويجتهد، ويهندس كيف يستخدم عقله العربي المتفتح، وذكائه المتقدم في قتل أخيه، والانفراد في الحكم، والتسلط، وترسيخ الطغيان، والاستبداد.. وأنتم هنا - عالم الجن - الذي يقال أنه عالم فوضوي غوغائي، أثبتتم مدنيتمكم، ورقمكم، وفكركم الخلاق، عكس ما يقال عنكم، كنا نقول بأمثالنا الإنسانية للشخص غير المنظم (أخذوك الجن)، لكن بعد ما رأينا، وخبرنا سنقول (أخذوك الإنس)، فالإنس هم أكثر الكائنات فوضى، وتخريبا، وتدميرا، والجن جديرون بالاحترام، إن كنتم أنتم فقط تعانون من معضلة وحيدة، وفردية، وهي دنهش وعصابتها، والبقية مسالمون، ومتحضرين نحن لدينا مليون دنهش، ينهشون في لحمنا، وأعراضنا، وقيمنا، وأوطاننا، والآن حان الوقت لحسم هذا الموضوع، هذه معركتنا، سنخوضها بمفردنا، لن ترضى ضمائرنا، ولا سجينتنا أن نكافئ معروفكم كجزء أم عامر! وبأن نكون سببا للاحتراب الذي ينبذه عالمكم، ويجرمه دستوركم، ونسيتموه، ولا تتذكر كتبكم، ولا تاريخكم آخر حرب، شهدتموها، أو قرأتم عنها، فقط أريد لجنة الحكماء، وأن نجتمع معها، ومع حضرة الأب الموقر ابانوخ ابن طوطيانيل على انفراد، والسلام عليكم، يا منبع السلام، ورسول السلام، وعباد السلام...

دوت القاعة بالتصفيق الجني الذي بدا أشبه بإيقاعاتٍ موسيقيةٍ رنانةٍ، وضجت بعزيف الجن الذي هتف للسلام، وهتف باسمي مشجعا؛ حتى ذاك الجني الذي أفرعني، كان يهتف باسمي بحبٍ وإعجابٍ، وأشار الملك ابانوخ لزعيم الحكماء الحكيم يوناس، الذي اقتادنا إلى غرفةٍ جانبيةٍ، تقع خلف منصة الإلقاء، اجتمع ستة من الجن، أربعة حكماء، وابانوخ، وابنه

حقيال، ونحن الستة من الإنس، وهناك طرحت لهم خطتي، ووضحت لهم أننا كبشر، وكجن مسلم؛ في قرآنا، وكتب السنة، والفقه، والسيرة طرق لهزيمة، وحرقت الجن الكافر، ولو استخدمناها عن عمق إيمان، ويقين وثقة بالله؛ سنهزم الجن الكافر، ونحرقه دون الحاجة لأن نورط إخواننا الجن في حرب كارثية، لا تحمد عقباها، ونكون ضيوف سوء وشوم كناقاة البسوس التي أشعلت حربا بين الأخوة لأربعين سنة عجفاء، وقد جازينا المعروف كجزء سنمار، وليدلو كل واحد بخطته في هذا الشأن؛ تحمس الكل للفكرة، واستغرب البعض كيف ضاعت منا!! في حين راح أحد حكماء الجن الأربعة يعدد خطورة جن الدناهشة، وأنه صعب القضاء عليهم، وأنهم حتى في رمضان يصعب تصفيدهم، ويظل الكثير منهم هاربين، ويؤذون الإنس، ويثيرون المشاكل، رد عليه الحكيم يونس:

- كلامك صحيح! لكنها حالات فردية في رمضان، ونادرة، ومع هذا تبطل الأعيبهم، وتفشل سريعا مع روحانية الشهر، وقدسيته، ويكون نصيبهم الحرق؛ فهم لم يرتضوا بالتصفيد، ونالوا ما يستحقون، عندها تحدث خالد ابن خالي:

- أخبرني، ماهي خطتك؟ يا سعيد. رددت عليه:

- أولاً: أن يدلنا أحد جنكم، أو يحدد لنا أي مغارة بجبال شبام الغراس بالضبط، يتخذها دنهش كملجئ له، هو وزمرته.

ثانياً: إعطاؤنا علامات، أو وسيلة لاختراق حجاب دنهش، وعصابته، ورؤيتهم، وعندئذ سنستعمل سلاح القرآن الكريم، والتمر اللذان ينفر منهم الجن، وسنحرقهم بسور الدخان، والجن، وفصلت، والمعوذتين، وآية الكرسي، وكلنا يحفظ هذه السور من الذكر الحكيم، وحتما سنذر رمادهم في هواة الجبل السحيقة، رد محروس:

- هذا خطر علينا جميعا، فالجن قوي، ونحن لسنا شيوخا، وحجة في القرآن لنهزمهم، وعندها تدخل الملك ابانوخ الذي كان يستمع منصتا، وابتسم وقال:

- الجن الكافر ليس قويا، بل ضعيف لقوله تعالى: "فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا" آية(76) سورة (النساء)، كذلك إن توفر لكم الإيمان، واليقين، والثبات الحقيقي؛ فامضوا، ولا تخافوا، وستنتصرون - بإذن الله تعالى - ولن يكون لدنهش وعصابته سبيل عليكم، فقد قال عز وجل: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً" آية(65)(سورة الإسراء) وإذا وصلت لمرحلة اليقين فسأدلكم على الطريقة التي تكسرون بها حجاب دنهش، بل بإمكانكم استغلال عنصر المفاجأة سلاحا فعالا، كون دنهش لا يعلم بكسرهم لحجابيه، وسيتعامل معكم كبشر عاديين، يظن أنه يبصركم هو وقبيله، وأنتم غافلون لا تبصرونهم، أما إذا بقيتم بمرحلة الضعف، فلن أضحى بكم، وأجعلكم لقمة سائغة لدنهش وناصور اللعينين.. تحمسنا جميعا بعد كلمة ملك الجن، الذي كنا نثق به، وراح محروس الذي كان مثبطا يسرد عن قناعه:

- نعم، إن من أسباب تفشي الخرافة، والجهل والسبب الرئيس للحرب التي انزلتنا بها؛ هي تغيب العقل، والاستسلام للخرافة، والعجز، والاستبداد، وانهزام الناس، وإيمانهم بالحاكم

المطلق، وتقديس الطغاة. فنحن من نصنع الطغاة، والمستبدين الذين يسوموننا سوء العذاب، ونحن من صنعنا قوة الجن والسحرة أيضا، ونحن نقرأ أيضا "ولا يفلح الساحرون " آية(77) سورة(يونس) ونخاف من السحرة، رغم وضوح الآيات القرآنية الكريمة، فنحن لم نهزم إلا يوم أن نسيناها، ولم نعمل بها، وبحثنا عن بديل لها، والخير كله بين أيدينا، ساد تصفيق حار، عندها أشار زعيم الجن لابنه حقيال الذي غاب هنيهات قلائل، وعاد يحمل بيده ميلا، ومكحلة عتيقة، مصنوعة من اللجين، وسلمها لي قائلا:

- هذا كحل إثم أحمر مبارك، اكتحلوا به الآن، وستبصرون كل الجن المخفي في مملكتي، وغيرها، ومفعوله يزول بعد أربع وعشرين ساعة، أي عليكم أن تحرقوا دنهش خلال هذه المدة، وبعدها سيعود الحجاب من جديد، أتمنا الاكتحال، وخرجنا من الغرفة، ونحن أكثر ثباتا، ورسوخا، وما إن وطأنا القاعة؛ حتى شاهدنا أشكالا مفزعة من الجن، منها قاعد، وطيار، وعلى شكل قطط، وخبول، ومنهم بشكل مفزع...

ودعنا زعيم الجن المسلم الطيب، وداعا حارا، ولجنة الحكماء، وأبنائه الأربعة عدا حقيال بصحبة جنبيين آخرين، والذين صحبونا عبر ممرٍ سري أفضى بنا إلى فتحةٍ تخرج من تحت شجرة ضخمة على الطريق العام، وقبل أن يودعنا، وصف لنا بيتا مهجورا، ومشهورا على الطريق العام بشبام الغراس، قال أن به أحد أعوانه المخلصين من الجن المسلم؛ اسمه ضام، وبعد المعركة الظافرة - بإذن الله - والانتهاه من دنهش يجب اللجوء إليه للتأكد من أنه لا يوجد غدر، وهناك جن كافر منتقم يتبعنا، وليوفر لنا الحماية؛ حتى بلوغ منازلنا، والدخول بمنطقة الحجب مجددا، والتي لا يستطيع الجن اختراقها وتجاوزها أيا كان مسلم أو كافر، ودعناه بحرارة، ومن تلك النقطة ركبنا إلى الفندق، وبتنا ليلتنا تلك، وصلينا الفجر حاضرا، في جامع قريب، ودعونا الله بالنصر، وحزمتنا حقائبنا، وانطلقنا نحو شبام الغراس، وممركتنا القادمة التي كانت تخبئ لنا الكثير

## الفصل الخامس والعشرون

انطلقنا بعد صلاة الفجر مباشرة، وفي الطريق تناولنا وجبة الفطور، وتناولنا بعدها (42) حبة تمر بالتساوي بيننا، وكنا أثناء الرحلة نقرأ القرآن والأذكار، وقد اكتستنا نفحة إيمانية غامرة، وشجاعة عميقة، رسخت في أعماقنا، وكنا نستعجل الوصول لسببين: أولاً:- شوقاً لإنهاء معركتنا مع العرييد دنهش، وأن نرتاح من هممه.

ثانياً:- مخافة أن يعترينا طارئ ما يعيقنا، وتنتهي مدة مفعول كحل الإثم الجني الذي سيسهل لنا رؤية دنهش ومفاجأتنا له، (45) كيلومترا قطعناها، ووصلنا إلى مديرية بني حشيش، حيث يقع جبل ذي مرمر، نسقنا مع الجهات المسؤولة، وصعدنا التل الأثري برفقة مرشد، ورحنا نتسلق حيث المغارات الأثرية، ويال روعتها! وإبداعها!! كانت توجد العديد من المقابر الصخرية على المنحدر الصخري لجبل ذي مرمر، في الواجهة الشمالية لمدينة شبام الغراس ما كان يعرف قديماً شبام سخيم، وكانت لا تقل عن مغارات المحويت جمالاً وروعة، وإن كانت مميزة في الصخور، كان ما يضايقنا هو كيف نتخلص من المرشد، ونخوض معركتنا مع الجن بمفردنا؛ حتى لا يعرفنا أو يتأذى ويصاب بأي مكروه صرع، أو مس، أو يلقي به الجن الكافر من أعلى الجبل، كانت المغارات تثير الشهية للتصوير، والسياحة، والتأمل، واستنشاق عبق التاريخ، وقررنا تأجيل كل ذلك إلى ما بعد الانتهاء من مهمتنا، ومعركتنا الكبرى التي حضرنا من أجلها..

كانت المغارات الصخرية كثيرة لا تعد، ولم نكن بحاجة لزيارة أي منها في الوقت الراهن إذا أن اهتمامنا كان منصبا على الكهف أو المغارة، التي شرحها لنا ملك الجن الشهر، في الواجهة الجنوبية الغربية على منحدر جبل مصلح، الشديد الانحدار، والواقع إلى الجنوب من شبام الغراس، عند الطرف الجنوبي لجبل قهال، ومن الصعب التسلق حيث كان الأهالي قد اتخذوا من تلك الكهوف في الأسفل مخازن للأعلاف، وكان هناك كهف في أسفل قمة الجبل، كانت تُرمى فيه المزابل، وجلود الحيوانات من أعلى القمة، ويصعب الوصول إليه، كان هو هدفنا، كنا نرقبه من التل الأثري، وقد وضعنا خطتنا تماما لتسلقه، إذ قمنا سريعا بعمل لفاتٍ خاطفةٍ للمغارات الصخرية، وطلبنا من المرشد التقاط بعض الصور، وتعللنا له بضيق الوقت، وأن هناك من ينتظرنا على عجل، وتظاهروا بأننا نهم بالمغادرة، ونزلنا من على التل الأثري، وانعطفنا يسارا باتجاه جبل مصلح، وهناك قابلنا رجلا، به ندبة واضحة، في جبهته، ويرعى أغنامه، وسلمنا عليه، ومدحنا المنطقة، وجمالها، وطيب أهلها، وطلبنا منه أن نشاهد المغارات والكهوف الأثرية التي قيل لنا أنها تعود لآلاف السنين، وتتخذ كمخازن أعلاف للماشية، ورحب بنا، وراح يفتخر بأن أجداده هم من نحتوا هذه الصخور، وأنه ورث كهفين عن أبيه، ودلنا على أحدهم، وكان ممتلئا بالبرسيم اليابس، وأخذ يدلنا على بعض النقوش، والرسوم على فتحات وسقف الكهف، وقادنا للكهف الآخر، وكان فارغا وبقاعته بعض آثار حشائش، وروث غنم، وشكرناه، وذكرنا له رغبتنا أن نصعد لسطح الجبل؛ لننظر لمدينة

الغراس من على سطحه، وثلثتقط الصور، وقبل أن ننتقل من الطريق الضيق المبني بحجارة عشوائية صعوداً، سألتناه عن تلك المغارة هل تعود له؟ فضحك مازحاً وقال:

-لا!! هذه للجن.. وصدمننا جوابه! هل يعلم بشيء ما؟ وهل هناك أسطورة أو حكايات ما يتناقلها الأهالي عن المغارة!! ورحنا نسأله متلهفين، وهو ينظر لوجوهنا، وعيوننا الغارقة بكل الإثمد، وكأنه يشك بنا، أو يظننا جناً متلبسين بشكل بشر، فأجابنا، وخوف بدأ يرتسم عليه:

-أنصحكم ألا تقتربوا منها، أو من حافة الجبل الذي يطل عليها. نعم، فذلك الكهف منذ قديم الزمان والكل يعرفه (كهف الجن)، ولم يجرؤ أحدٌ على الصعود إليه، أو الاقتراب منه، ويقال أنه عميقٌ جداً، يؤدي إلى عمق الجبل وجذوره، حتى البعثات الاستكشافية الأثرية التي حضرت، وكانت تريد تنظيفه من الزبالة، ومخلفات الذبائح حيث يلقي الأهالي بها هناك، كادت أن تنجح، وقد أحضروا معهم متسلقين، وسلالم طويلة، ولكن ما إن وصلوا لحافته حتى بدأت الصخور تتفتت، وتنزلق من تلقاء نفسها... صخورٌ ضخمة، كسرت رجل أحد المتسلقين كسرا شديداً، خرج ظنوب ساقه بشكل بشع لا يصدق، ويقال أن الجن هي من ألقت بها، لكن اللجنة الأثرية كان لها رأي آخر، وقالت أن الأرض صابونية، وتنزلق من تلقاء نفسها، ونصحوا الأهالي بعدم الاقتراب منها، ووضعوا جداراً سائداً في الأسفل؛ لصدّ الصخور المتساقطة التي لم تعد تتساقط منذ رحيلهم، مع العلم أنه عند إلقاء الأهالي للنفايات، والجلود، وبقايا الحيوانات المذبوحة لم يحصل أي شيء، أما عندما يفكر أحد أن يصعد إليها بحب الفضول، والاستكشاف تبدأ الصخور، والحجارة الضخمة في التطاير، وكأنها لا ترغب إلا بالزبالة، والأوساخ، والقاذورات فقط، ويقال أن الجن تفتت على هذه القاذورات، ولا تعترض من يوصلها، أما من يريد أن يصل للمكان، فهي له بالمرصاد، وتعمل على طرده شر طرده، سأله خالد:

- وهل فكرت بالصعود؟ أو جربت؟؟ أشار لنا بالنديبة الكبيرة في جبهته:

- هذه حجرةٌ حادة، سقطت وشقت ناصيتي، أول ما اندلعت الحرب، وانعدمت مادة الغاز المنزلي، وعندما كنت أهم بجلب بعض الحطب قرب الكهف، ففهمت الرسالة بسبب اقترابي من الكهف، ووليت مبتعداً، وكل جسدي يقشعر؛ حتى شعرت بأن القشعريرة تهزني كلذعة كهرباء..

شكرنا الفلاح الطيب، وانصرفنا نحو غايتنا، ولم يعد من بصيص ضئيلٍ للشك، فقد تأكد لنا عين اليقين أن هذا الكهف هو الذي وصفه لنا ابانوخ، وكان يحاذيه كهفين آخرين، كنا نشك أيهم قبلتنا المنشودة؟؟ دبّ الحماس المشوب بالخوف أعماقنا، ورحنا نرتقي الجبل بمشقة، وكنا نطالع كهف الجن أثناء الصعود، ونتفحص ما حولنا، باتت قشعريرة شديدة - لا إرادية - تنتابنا، وشمنا رائحة حريقٍ مشبعة بالكبريت، تفوح قوية في المكان، وكأننا نحن من نحترق!! وكنا نطالع ما حولنا بتوجسٍ وريبة، ونحاول ألا نحك أعيننا، مخافة أن نمسح الإثمد، لكن فجأة هبت عاصفة من الغبار الشديد، وتمترسنا بالنظارات الشمسية للاتقاء منها، وأثناء ماكنت أهم بتركيب نظارتي الشمسية، لاحظت أقدام حمار أسود، تختبئ تحت صخرة

ضخمة، تحجبه تماما عنا، وكان على بعد عشرين متر، عند قمة الجبل، وكانت الصخرة على الجانب الأيسر للطريق الصاعد، فابتدأت الدماء تدب في عروقي، وتندفع صاخبة، وتلذع سويداء قلبي بفجيرة لذيذة، فأشربتُ بطرف سبابتي اليمنى للأصدقاء، وأومات برأسي نحو الصخرة، وشاهد الجميع تلك القدمين بوضوح، واشربوا بأعناقهم، كان ذلك المخلوق يمتد نحو الفضاء، وهو يمد يديه ورأسه فوق الصخرة التي تخفي جذعه، وتظهر قدميه، في حين رأسه، وقدماه يسترخيان فوق الصخرة، كان برأس كبيرة سوداء، بشعة وشعر كثيف، وعيون لاهية حمراء، تقدحان خبثًا ومكرًا... سارع خالد أمين مخزون التمر في فتح كيس التمر، ورحنا نمضغ ثلاث تمرات، واحتفظنا بالنوى بقمنا، ولم نلفظ بها، واستمرينا في الصعود بشكل طبيعي، وكان نعيم يمسك بيده المصحف الشريف، في حين محروس معلق في رقبته (mp3) بمكبر صوت قوي، عليه شريحة مسجل، فيها سور الجن، والدخان، والصفات، وآية الكرسي مكررة، وهيتم يمسك بيده ميكرفونا صغيرا يحتوي على ذاكرة، مسجل عليها الأذان كاملا، ويعاد تلقائيا كلما انتهى، وأنا كنت أردد بعض آيات الذكر الحكيم، وكان لييب حمل (mp3) مسجل عليه أيضا مقاطع كثيرة، متنوعة من الأذان..

مع اقترابنا من نقطة وجود مراقب الجن المتخفي، بدأنا نضعف، وشجاعتنا تخور، بل راح صوت خفي في أعماقنا ينعتنا بالفسوق، والفجور، وبأننا من نكون لمواجهة هذا الجن الذي لا يواجهه إلا أناس صالحون، من وصلوا مرحلة الكمال الإلهي من الإيمان، والتقوى، والحفظ للقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وأن هذه المجازفة سترتد إلى نحورنا، فمواجهة الجن ليس بالأمر السهل للجهال والمغفلين؛ ليجربوا حماقتهم عليها، والغريب في الأمر كأن وسيلة تخاطر ما، أو جهاز انتقال آني.. كان موصولاً بأدمغتنا جميعاً، فجميعنا استشرعنا تلك الرسالة، وتلقي فحواها، فبدأت أنا بالتفل عن يساري ثلاثاً، مرددا بصوت هامس: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتبعني البقية، لنشعر بقشعريرة مألحة، تصعد وتهبط، كالزنبك وتهتز بظهورنا بمنطقة العمود الفقري تماما، ثم شعرنا بعدها بالهدوء، والسكينة، واختفى ذلك الهاتف، وكأننا خيول تنفض الذباب عن ظهرها، وبدأت نذر اليقين تتقاطر تباعاً، وتستقر بأفئدتنا المتذبذبة، وتذكرنا بما نحمله من قوة الإيمان، والتحصينات، وأنا نحن الأقوى، وكيد الشيطان هو الضعيف؛ فاستعدنا رباطة جأشنا التي كانت تهم بالانحسار، بالرغم من تلك القشعريرة الزنبركية التي تسري، وكأنها بفعل وحشة قرب هذا الجني الذي كان يتأملنا، واثقا من أننا لا نبصره، ولاحظنا أنه يشير إلى شيء ما، وشاهدنا خلف بعض الأشجار، خروج جنين آخرين، لهما وجهان خبيثان، ولا يقلان بشاعة عنه، أحدهما طار إلى المغارة، وكأنه يخبر دنهش بقدمنا السعيد له، فقد حضرنا إليه على طبق من ذهب، وهذا سيكفيه مؤنة إشعال حرب مع قبيلة الجن النصيبين الأقوى منه، في حين كان الخبيث الآخر أنه يريد أن يقوم ببعض آلاعب الجن، وراح يقتلع الأحجار، ويحمل كميات هائلة من التراب بكفيه الضخمتين، ثم ينفخهم بغمه الكريه نحونا، وشكلت ما يشبه الزوبعة، وتطاير التراب، والصخور، والأحجار، وصارت تتدحرج، وتمرق من أمامنا، نحو الأسفل دون أن تمسنا بسوء، وذهل الجني المراقب مما حصل، وراح يرغي، ويزيد، وصاح صيحة عظيمة لم تفد في عضدنا شيء، أو تحرك بقلوبنا قيد أنملة مع وتيرة الإيمان الذي يتصاعد، ويقوى شيئا فشيئا في أعماقنا المتحذرة، وشعرنا بالجني الآخر يساعد الجني التعيس، وأخذ كميات من التراب



ضعف صاحبه، وينفخها باتجاهنا بشدة، دون أن تضرنا بشيء، وقد زدنا عزيمة وإصرارا، وثقة بعد مشاهدتنا قوة ما يصنعه التمر الذي تناولناه صباحا سبع تمرات لكل منا، وزدناها بثلاث من لحظات... وكان الجني المراقب يقوم بأكثر من حيلة دون فائدة، وأبصرناه وهو يكاد يبكي، فانكسر الجنيان يضرطان، وهما نحو المغارة، يستجدان برهطهم، وخبثهم الكبير ومساعدته، والتفت إلينا خالد محدثا:

- هل عرفتم سر التمر؟! عن عامر بن سعيد عن أبيه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر" وقد كشف العلماء حديثنا ذلك؛ فوجدوا أن التمر يولد هالة طيفية زرقاء اللون، حول جسم الإنسان، تشكل درعا واقيا، وحاجزا منيعا وحصينا للعديد من الموجات الكهرومغناطيسية اللامرئية من الجن، والحسد، والسحرة، وخلافه من قوى الشر الخفي، والأرواح الخبيثة، فيصبحون غير قادرين على اختراق هذا الواقي، الذي هو أشبه بما نسمعه في نشرات الأخبار بالقبعة الحديدية التي تقي المدن من هجمات الصواريخ، وتدمرها عن بعد، وتماها فهذه الطاقة المنبثقة من العناصر الموجودة في التمر لها خاصة عنصر الفسفور الغني بالإلكترونات، والتي عملت على إزالة الشحنات الموجبة التي يحبها الجن المؤذي وغيره، فقامت بإبطال الأعيب هاذين الماكرين، واللذين حتى اللحظة لم يفتنا لرؤيتنا لهم.

كان كحل الإثم الجني بوصلة دقيقة، يحدد لنا الطريق بوضوح، وتكشف لنا كل تحصينات دنهش، مما سهل لنا اختراقها، وتجاوزها بسهولة، اقتربنا من المغارة، وحددنا طريقا كان وعرا نوعا ما؛ لبلوغها وللولوج إليها، لكنه لم يكن مستحيلا، ورحنا نمشي حولها، وكانت السماء تتلبد بالغيوم، وتكفهر، ورغم أننا في ساعات الضحى الباكرة إلا أنها بدأت تمطر، صاح خالد:

- أسرعوا!! فقطرات المطر ستغمرنا، وستزيل الكحل الجني السحري عن أعيننا، وسيستحيل بعدها أن نبصر هؤلاء الجن، وحسم المعركة معهم، والتأكد من القضاء عليهم تماما، بدأت نذر السماء تمطر بسخاء، ولم يكن سوى خالد قد بلغ حافة المغارة، وراح يساعدنا في الصعود، ويشير لنا الابتعاد عن باب المغارة، حيث كان يرتطم المطر، وكان لبيب آخر من يصعد، وقد بدأ المطر يبيل وجهه بغزارة، ولم يستطع أن يتقيه بيديه لحاجته لها للتسلق، وفعلا بدأ خطان أحمران يرتسمان على خديه، ويبدو أنه فقد كل الكحل السحري، وقدرته على إبصار الجن، وكان بحالة من الحنق، والزعل الشديد، وغصة تكبده بحلقه، وصدرة أشبه بقضم فاكهة السفرجل، ودق الصخر حتى أدميت أصابعه من القهر، فراح هيثم يهدئه:

- لا تقلق!! فما زال خمستنا قادرين على حمايتك، وإكمال المهمة، وأنت أكثرنا حفظا للقرآن، والأذكار، فسلحك فتاك، وأقوى بكثير مما نحمل، وكذلك لديك تشكيلة واسعة من الأذان في جهازك كفيلة بزلفتهم، وهدم هذا الكهف المليء بالقاذورات، والمخلفات فوق رؤوسهم، وقبل أن نلتفت ونستدير جميعا، ميممين شطرننا نحو عمق المغارة، هالنا ما رأينا، وارتعدنا بعنف هذه المرة، فقد كانت المغارة ملغمة تماما بألغام جنية، لم نكن ندرکہا أو تخطر لنا على بال،!! وكان من حسن حظ لبيب المحزون أنه لم يرها

## الفصل السادس والعشرون

قبل ألف عام من الميلاد، كانت تُعرف هذه المنطقة بشبام سخيم، وكانت هذه المغارة تحوي أكثر أنواع الموميאות قديماً وسمية، وقد بالغ ذلك الطبيب الدباغ في التفنن في صنعها، وظليها بالسم البكتيري، وطلب من النحاتين أن يجعلوها بهذا المكان القصي؛ لأن من قبر فيها كان أهم الأقيال، وأكثرهم قداسة..

كان المحنط الطبيب بعد ثلاثين سنة قد تقدم به العمر، وشعر بدنو أجله، وقبل مرضه بأيام معدودة، قُتل اثنان من المحاربين الأشداء من أسرة القيل بعثر بن عسب آل، وتم الدفع إليه بهم؛ ليتولى تحنيطهم، كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب منه تحنيط جثة مقتولة، إذ أن كل المرات السابقة كان يقوم فيها بتحنيط جثث متوفين، وقد عارض ذلك أشد معارضة، ورأى أن يتم دفنهم بمقابر الأسرة الحاكمة، في شبام سخيم، في المركز الرئيس للمدينة، حيث تدفن النساء وبقية القوم، لكن توبيخ الحاكم له وإصراره على تنفيذ الدباغ لعمله دون نقاش جعله يرضخ مكرهاً، ولم تكن معارضته عن سياسة معينة يراها، أو خوف من أن تتعثر عملية التحنيط الشاقة، والطويلة التي تستغرق الأربعين يوماً متواصلة من العناء والشقاء، بل كانت عن نظرة فنية يراها ببصيرته، ويدركها بحكم خبرته من أن تحنيط الجثة التي تعرضت للقتل، وسفك دمها؛ يؤدي لتغيرات فسيولوجية في الجسم؛ تؤدي ليبوسة الجلد، وتغير لونه، و لدونته، وهو إنسان يتوق للكمال، ولا يريد لعمله أن يشوبه شائبة، ويعتريه النقص، مع هذا وافق على مضمض، وكانت للإهانة والتفريع الذي تلقاه وقع الصفعة عليه، وكأنه لطم على خده، وهو بمكانته وشخصيته المخيفة التي يخشاها الجميع، ويرتعب منه سكان شبام سخيم، لاشك أن هذا الموقف سينتشر انتشار النار في الهشيم، وستزول هيئته من أفئدة الناس، وستدوب تلك الشخصية الأسطورية الجبارة التي رانت على قلوبهم، وغطت كل الشجاعة، والوقوف، والبوح، والمواجهة لسنين عديدة، حتى بلغ أرذل العمر، والناس تحسب له ألف حساب، ويضربون به الأمثال في الهيبة والسودد..

استغرق منه تحنيط الجثتين ستين يوماً، وقد أتم مهمته بنجاح، وسبب تأخره العشرين يوماً؛ إذ ظل يلاحظ أي عفونة قد تطرأ على الجثتين كونهما لقتيلين، وما أخذته من الوقت الطويل الذي يتطلبه الاعتناء بجثتين ماتلتين للحنيط، وعندما كان يهم بصعود المغارة، وفتحها وقد تغير الطاقم الذي حضر معه هذه المرة، ولم يقم هذه المرة بحركات إثارة الرعب، وصنع المادة البكتيرية فقد كان داخله مشروخاً ومنهزماً، بل إنه رأى أن يصلح من خطئه، ويتوقف تماماً عن عمل السموم التي يطلي بها الموميאות، والأثاث الجنائزي، وحواف المقبرة الصخرية، مكتفياً بما اقترب على مدار نصف قرن من حياته المهنية، وبعد أن شارف على خياطة المومياء الأولى، ووضعها في قبرها، ثم تغطيتها تماماً بالصخور، وصب الجص فوقها، عمد إلى الجثة الأخرى، وراح يخيئها بحماس شديد، وكأنه عرف الطريق التي يتخلص بها من أحزانه، والإهانة التي عاقرته منذ شهرين، وراح يقبر الجثة الأخرى، ثم وضع أمام كل قبر أثاثه الجنائزي، في الكوة التي تعلوه، وأحس براحة شديدة، تتفشى في

أوصاله، وتغمره بالسلام، والاسترخاء، والاطمئنان، فأخذ استراحة في أرضية المقبرة، وطلب من أحد معاونيه أن يصب له كأس من أعشابه الحالية، من دلة كان يحملها بيده، وراح يحتسي أعشابه الساخنة اللذيذة التي لم تبرد؛ بسبب الموقد الفخاري الذي يحتوي الجمر، والذي كان موجودا معهم، ويتم كبس تلك الجمر بالرماد؛ حتى لا تنطفئ، ثم النفخ عليها؛ لتستعيد سعيها وزفيرها مجددا، ووضع أي شيء يراد تسخينه عليه، بعدها عمد إلى عملية استرخاء تام، بأن أغمض عينيه، وراح في نوبة تفكير عميق، وكأنه يمارس رياضة اليوجا، وتوصل إلى مصالحة مع نفسه، وعقد اتفاق مع ضميره، ففتح عيونه بنشاط، وحماس، وراح يأمر أحد معاونين؛ بأن ينزل للأسفل، ويوقد نارا كبيرة، بينما راح هو بواسطة إزميل، ومطرقة يحفر قبر القيل بعثر بن عسب، واستغرق منه الأمر نصف ساعة؛ حتى نجح في الوصول إليه، وقام بفتح الكيس بحذر شديد، رمى به للأسفل المنحدر، خارج المغارة، فوق النار التي أوقدها معاونه تماما، فراحت النار تلتهم الكيس الجلدي، بسرعة قصوى، وكأنه مبلل بالنفط، وتلونت النار بألوان خضراء، وزرقاء عجيبة، وارتفعت للجو، وجعلت الحضور يفرح منها، ويعيد للذباغ هيئته مجددا، ثم أخرج من جرابه كيسا آخر، راح يخيظ به المومياء، ويعيدها لمقبرتها، ويتظاهر بتسوية الصخور، ثم يصب الجص مجددا، وأخرج من جيب قميصه منديلا كبيرا، راح يمسح فيه بحذر شديد، الأثاث الجنائزي للقيل (بعثر بن عسب)، ثم رمى المنديل للأسفل، جوار الكيس الجلدي، وتخلص من قفازاته، ورمى بها في النار أيضا، وشعر براحة نفسية صافية، وانشرح في صدره، ووجد أن روحه تسمو به، وتكاد تعانق الثريا، وقد عزم في قرارة نفسه أن ينقل الجثة، والأثاث الجنائزي، ويغير من مكان القبر لاحقا، لم يدر ما سبب إقدامه على فعلته تلك؛ هل كان بفعل كبر السن؟ وإدراكه بأن نهايته قد أوفت؟ ولا داعي لحرصه المبالغ؛ بعمل شراك من السموم، وأفخاخ للعابثين، قد تسبب الموت، والضرر ليس لهم فحسب، بل لأبرياء لا علاقة لهم بما يقترفوه؛ بسبب العدوى التي تستشري، والسم الذي ينتقل؛ بسبب تقنياته في صنعه مع بكتيريا مرضية، لا تكتفي بنقل المرض، بل بنقل الموت الزؤام؟؟ أم أنه بفعل الإهانة التي تلقاها، وشعر بها تصفع كبريائه، وتهوي بها من مكانها العالي إلى الحضيض؟؟ ليجد فجأة - وعلى غير ميعاد - وبأسوأ توقعاته ذاك الاسم المزلزل الذي صنعه، وسعى للاحتفاظ به أمام العامة؛ غدا مجرد ذكره كقيل بأن تنزل النساء الحوامل لأجننتها، وأشجع الرجال يتحاشى مجرد نطق اسمه؛ حتى وهو في أرذل العمر!! وقد أفنى عمره في خدمة الملك، ودولته، وولي عهده، وأحفاده ظل اسمه مخيفا، ومع ذلك هكذا يختمون نهايته، ويوقعونها بتوقيعهم، لا بتوقيع..

كانت في جرابه دفعة أخيرة، من تشكيلة بكتيرية، كان محتفظا بها في بيته، قرر التخلص منها، ومن هذا الموت الذي ظل يصنعه، ويصدره؛ ليس للصوص مملكته فحسب، بل للصوص الأزمنة المستقبلية التي ستأتي، وترى النور تباعا، سنيًا بديدة، وأعواما قادمة مديدة، لا يعلمها هو، ولكن يدركها بحساباته الفلكية، ويستنتجها، وغادروا المغارة جميعا، وأمر الجميع بالانصراف، بينما راح يللم أشياءه، ويتظاهر بحملها فوق ظهره، ونجح أخيرا في نقل مومياء القيل بعثر، وأعاد كل شيء لمكانه..

ثم راح يسلك طريقًا وعرا، نحو قمة الجبل الأجرد، وأخذ يتسلق بيديه الشاحبتين اللتين غزتتهما التجاعيد، وحفرت السنون فوقها علاماتها بوضوح؛ فراح يصعدُ بإصرارٍ نحو

الهاوية، وأخذ ينظر إليها، وهي تنظرُ إليه في تحدٍ واضح؛ حتى وصل لحافة الكهف الذي تستقرُّ به أيضا بعض المومياوات المجهولة، والذي لم يكن مغطى، عندما استقرت قدماه، في قاع الكهف؛ شعر برعدة خفيفة في جسده، وأحس بانقباض في بطنه، ناتج عن خوف خفي، يترصد به، ولا يدركه، كأن هناك من يراقبه، ويحصى حركاته... كان الليل يستعد لأن يلقي بردانه الأسود المخملي من أعلى المكان؛ ليغشى كل المدينة، وهو ما زاد المكان رعبا وخوفا، وأحس بشعر رأسه الأشيب ينتصب بخوفٍ، وفجأة سقط على الأرض بعنفٍ، لقد شعر بقدم تركله في ظهره، كأنها خف جمل، ترفسه بقوة، ثم شعر بقشعريرة، تعصف بصدغيه، ولكنه كان مصمما على أن يعرف سر تلك المومياوات المحنطة، التي لم يعرف لها أحد مصدرها، ولم تذكر في أي من النقوش، أخرج سريعا من جرابه مسرجة، كانت عبارة عن حجرين أملسين صليدين، وأخرج كومة من الحشائش، وضرب الحجرين ببعض، وطار شررٌ أشعل النار في كومة الحشيش، وراح يلقي عليها بعض الحطب، ثم أخذ مشعلا كبيرا، بلله بالسمن؛ حتى زاد من اشتعاله، وأخذ يتوغل في الكهف المظلم، وكان كلما خبت حدة ناره صب عليها سمنًا، ووصل أخيرا إلى عدد من الأضرحة المرصوفة جوار بعضها، فراح يضرب بإزميله، ومطرقتة أحد تلك القبور، ونجح أخيرا بفتح أحدها، ولم يكن الأمر صعبا عليه؛ إذا أنه مسقوف بروث وليس بالجص، ومد يديه يتحسس، وهناك أحس بجثة متوسدة للقبور، ولشدة فزعه لم تكن محنطة، أو مكفنة، بل كانت عارية، وكما أنها كانت محتفظة بشكلها الخارجي من خلال ما تلمسته يداه، ودفع بالمشعل، وهو يتعرق، ويرتجف، وهاله ما رأى، وصعق بقوة!!! لم تكن الجثة لآدمي، بل كانت جثة متحللة غريبة؛ عبارة عن هيكلٍ عظمي غريب، برأس كبيرة مدببة، وأقدام حمير، وما زالت محتفظة بمعالمها عدا الرأس، الذي كان يوضح الجمجمة المخيفة تلك، وكأنه لإنسان مشوه، وحاول أن يقوم إلا أنه شعر بسهم حادٍ، يخرق ظهره، سهمٌ من القشعريرة الباردة، وزاد إحساسه بوجود مخلوقٍ خفيٍّ معه في المغارة، واستدار؛ ليجد نفسه أمام مسخ بشري، نسخة طبق الأصل لما كان يشاهده في القبر!!! إلا أنه دببت فيه الحياة، فكان يتأمله بعيون حمراء موتورة، وكان يستعد لأن يصفعه بيده السوداء، ذات المقارض البشعة، عندما رفعها للجو، وأراد أن يهوي بها على قلب الدباغ، إلا أن الأخير تصرف بسرعةٍ وذكاءٍ؛ ألجمت القدرات الخارقة للكائن!! فمد يده لجرابه، وأخرج قنينة زجاجية خضراء، تحتوي على آخر تركيبته من السموم، ونزع عنها السدادة، ورش الكائن المشوه بذلك السم البكتيري الزعاف؛ فراحت البكتيريا تعمل عملها بنشاطٍ، وهمةٍ، جعلت المسخ يصيح صيحة مجنونة مسعورة، وهو مصابٌ بالشلل، ويرتعش، ويرتجف ارتجافته الأخيرة، ويصدر صفيرا مزعجا، قبل أن تضعف قدماه، ويسقط مرتطما بحافة الكهف!!! وعبثا حاول التشبث؛ ليجد نفسه يهوي، ويرتطم جسده بعنفٍ، في الصخور الصلبة في الأسفل، وينشط جسده الذي تنخره البكتيريا النهمة لنصفين، ثم هرول الدباغ، وراح ينزل المنحدر بعجالة، ويدها ترتعشان، وهو يسمع أصواتا مرعبة، تنبعث من الكهف!! فيما يبدو أنها أسرة ذلك الجني قابله..

كان الظلام الحالك الذي حل بسرعة، وذلك الشوال، يصعبان من عملية النزول؛ فاستغنى عن الكيس، وراح يتدحرج للأسفل، بخوفٍ ممزوج بالأمل؛ حتى وصل لأول الطريق المعبد، وراح يهرول بصعوبة، وهو يستشعر آلاما مبرحة رهيبة، يفصح بها جسده الهزيل، وشارف

على الوصول للمدينة بسلام، وقبل أن يصل شاهدت عيناه اللتان بدأتا تألفان الظلام هناك في السماء؛ خمسة مخلوقات، تسبح في الفضاء!! ينبئ حجمها أنها تتبع ذاك المسخ الذي قتله من لحظات، وترك جثته في تلك الهاوية، أسفل الجبل تنهشها الضواري، وسباع الليل، وأخيرا وقبل أن تدنو تلك المخلوقات من نقطة سيره، بثوانٍ معدودة، نجح ببلوغ السوق المزدهم حيث الحانات الممتلئة، والمشاعل المضاءة، والناس، والضوضاء، وأخذ يمسح بعينه صفحة سماء الليل الهادية، والصافية، ولم يشاهد أي أثر لتلك الخفافيش المرعبة، وشاهد شجرة كثيفة الفروع، متشابكة الأغصان، تقع على مرمى حجر، خارج السوق، ومن اهتزازها توقع أنها تقبع هناك، تتربص به!!! وراح ينقل قدميه بصعوبة، نحو إحدى الحانات الصاخبة، وذاب بين زبائنها الثملين.

## الفصل السابع والعشرون

كان الكحلُ الذي أعطانا إياه زعيم عشيرة الجن المسلم مذهلاً بحق، كان كرادارٍ متطورٍ؛ حدد لنا أماكن تواجد الجن، وفتح لنا آفاقَ رؤية عالم الجن الخفي، بكل تفاصيله المخيفة والمرعبة، وعند نجاحنا ببلوغ حافة الكهف، وجدنا عالماً مخيفاً من الجن، يفترش الكهف.. وكان مدخل الكهف فيما يبدو للناظر من الإنس طبيعياً، مملوئاً بالقاذورات فحسب، لكن بالنسبة لنا ونحن نمتلك هذا الكحل العجيب الذي يبدو لنا بمثابة أشعة فوق البنفسجية، أو مناظير رؤية ليلية، كان الأمر مختلفاً للغاية، كنا كأننا في خضم لعبة ويجا الأرواح الصينية، معقدة التفاصيل، نتأرجح بين طاقة الوعي واللاوعي.

كان الجن يبدو أنه مستعدٌ لمعركة ما، مع جن آخر، وقد قام بنصب بعض الشراك، وعمل كمانن محكمة؛ إذ كانت أرضية الكهف عبارة عن حفر دائرية عميقة، لا قرار لها وينتهي أسفلها بكميات من المياه الساخنة، التي لا نعلم كيف يتمكنون بتسخينها عبر أي نظام تسخين لديهم؟؟ وكأن لديهم غلاية مياه مركزية عملاقة، ولاحظنا البخار الذي يتصاعد، والذي تعمد دنهش بإخفائه، عبر بخور الروث المحروق، الذي يتصاعد من مواقد مثبتة في جانبي الكهف، وكانت تلك الفتحات التي تقدر بالسبع مخفية بشكل متقن، عبر سبع حصائر بمستواها وبلون الأرضية، مصنوعة من جلود الحيوانات التي تلقى من قبل البشر في هذا الكهف، ومخاطة أيضاً بأمعاء هذه الحيوانات، إذا أن من يمر فوق تلك الحفر العميقة حتما سيدوس على الجلد الرخو المخاط بشكل حصيرة، وسيهوي من كل هذه المسافة؛ ليرتطم بالماء الساخن في الأسفل؛ ليسلخ جلده كفرخة مسلوخة، ومن ينبج من السلخ حتما سيموت غرقاً!! ولعل اختيار دنهش لهذا النوع من طريقة الكمانن؛ عائد كون الجن مخلوقات من نار.. والماء، والنار لا يلتقيان.. فالنار يطفئ النار، وهذا سلاح فتاك في حرب الجن بينهم البين؛ أي أن دنهش يستخدم هذه الكمانن في حربه مع الجن بعضهم البعض، وليس في حربه معنا، وسوف يتلقى المفاجأة، فما له علم بما نزمع القيام به!!

إشارة موحدة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم" نطقها بصوت جماعي، ثم قام لبيب بتشغيل (mp3) الذي يحتوي كل مقاطع الأذان، وكان بانتظارنا مفاجأة صادمة (mp3) لم يعمل إطلاقاً، وكان بطارية الشحن فرغت!! أو هناك من خربه عمدا!! أخذ منه هيثم (mp3) يتفحصه يحاول إصلاحه كونه مهندس إلكترونيات، لكن دون جدوى، زفر هيثم أنفاسه بضجر، وزم بين شفثيه بسخط، وهمس المشغل لا يعمل!! البطاريات والشحن بحالة جيدة، وقفزت لرأسه فكرة مخيفة، ماذا لو أن الكهف مغناطيسي يعطل كل الأجهزة الحديثة!! أو يتم تعطيل قدراتها من قبل الجن عبر طاقاتهم الخارقة؟! وراح يضغظ على الميكروفون الصغير المتدلي من رقبتة، وكان هو الآخر لا يعمل، وقد بدأت فكرته تتبلور، وصحت توقعاته، فالكهف يحتوي على شحنات كهرومغناطيسية قوية، بفعل الجن، ضخواها عبر أساليبهم الخاصة، وتقنياتهم المتطورة، وفشل محروس أيضاً في تشغيل مسجله، عندها بدأت نوبات القشعريرة، تعاودنا من فروة الرأس؛ حتى أخصم القدمين، وفجأة حدثت جلبة



يصعب هزيمته؟! و ليس جنيا فحسب، بل هجين من نسل شيطاني نتيجة تزواج بين الجن والشياطين؛ لينتج عنه الأسد الغضوب، والليث الوثوب ملك ملوك الجن - دنهش العظيم - وإننا من نسل المتمردين الذين نفاهم الملك سليمان للمغرب، وعادوا بعد وفاته، والآن قولوا لي: ماهي طريقة الموت التي تفضلونها؟؟ هل أسلقتكم في هذه الحفر العميقة؟ أم أقذفكم من فوهة الكهف؛ لترتطموا بالصخور الصلبة في الأسفل؟؟ اقترح عليا، يا ناصور!! ماذا تفضل يا تابعي المخلص؟؟

انتفخت أوداج ناصور الشيطانية، وبانت في ملامحه المشوهة ابتسامة ممجوجة، ختمها بضحكةٍ مقرزة، كشفت عن أنيابه السوداء الحادة، وبزهو أجاب :

- أنا أفضل ألا نقتلهم، وإنما نصيبهم بالجنون والصرع، ونعيد إرسالهم إلى ابانوخ؛ ليعرف مدى قوتنا، وسطوتنا، وليرتعب اتباعه، ويمتنع بعد ذلك عن حشر أنفه في مالا يعنيه، وأي إنسي قد يقع في يده مرة أخرى، ونطالبه به؛ يقوم بتسليمه دون قيد أو شرط،, ابتسم دنهش وقد راقته له الفكرة :

- نعم، فكرة حسنة!! استخدامهم وهم أحياء، وممسوسين، ومصروعين، ولكن يا ناصور، ما رأيك لو نجعل منهم فاستيين. أليس ذلك أفضل لنا؟؟ رد عليه ناصور:

- لقد فكرت بذلك، ولكن هؤلاء مسلمين، وليسوا من اليهود أو المسيحيين، ولن يرضوا بالفكرة البتة، ولن نفلح بترويضهم!! فهقه دنهش بضحكةٍ مقرزة، والزبد يتطاير من بين أنيابه:

- لقد روضنا في السابق العديد من المسلمين، ولا تقلق لهذا الأمر؛ فمسلمي هذا الزمان بالاسم فقط، ألا تذكر عبدة الشيطان في مصر، جلهم من المسلمين، ومع ذلك لقد أقاموا لنا الحفلات الصاخبة، دانوا بالولاء، واقترفوا الفاحشة والشذوذ، مارسوا الغريزة والغواية، أطلقوا غرائزهم المكبوتة من أعنتها، عشقوا الإباحية، تمرغوا في وحلها، ذاقوا عسل المتعة الجارف، المتدفق من حناياهم المفعمة بالاشتهاء، وقدموا القرايين لنا، وضحوا بكل ما لديهم؛ لنرضى عنهم، وليكونوا تابعي غواية لنا، وقد قبلنا منهم تلك الطاعة العمياء، وكدنا ننجح في مهمتنا لولا ذلك الشرطي الفضول الذي شك في تصرفات ابنه، وتعقب عبيدنا المخلصين، وزج بهم في السجون، وأنهى أول عرضٍ ممتع لنا في أرض الكنانة، وجعل قلبي كمدا على جماعتنا المروضة تلك من الإنس! ومع هذا لأزلنا متغلغلين بينهم، ولنا الكثير من الأتباع في العالم، ينتظرون ساعة الصفر؛ لإعلان دولتنا الغيبية، وبسط نفوذها المستتر على عالم الإنس الظاهر، فهم يتوقون، ويتحرقون شوقا لطقوس اللذة، والمتعة، والدم، والتغني باسم ملكنا عزازيل أبو الحارث أبو مرة المفدى، ويحنون لعودة الأيام الصاخبة تلك، وإحياء تلك التجربة المقدسة مجددا...

أنهى كلامه بأن رفع الحربة الثلاثية، وراحت تشتعل نارا شديدة، ووجه مارجها نحونا، فرحنا نرفع عقيرتنا بالأذان بشكل جماعي، وخبث النار قليلا إلا أنها مازالت تلعننا، وتقترب منا، وعصا الدنهش الثلاثية النارية تزداد طولاً، وتقترب منا، فجأة توقف اللعين دنهش، وأعاد عصاه لموضعها..



- أجيبيوني الآن.. هل تقبلون أن تكونوا تابعين مخلصين لي؟؟ أم أشويكم وألقيكم من على ضفاف الكهف؛ حتى قعر الجبل جثثاً مشوية؟؟ رد هيثم:

- لكن كل من اتبعك شعر في الأخير بفداحة فعله، وتكلله الندم، سواء الدكتور فوست الذي باع روحه لسيدك اللعين، ثم سعى لنقض العقد، وعتق روحه، أو أنتوني ليفي مؤسس كنيسة عبادة الشيطان الذي ظل يصرخ عند موته محذراً أتباعه من الاستمرار في غوايته، وكان يطلب الصفح والغفران من الله تعالى، ورجع كثير من أتباعه؛ بسبب ما شاهدوه من عذابات الرمق الأخير على وجه زعيمهم، وهو في سكرات الموت، وفي نهاية المطاف أغلقت الكنيسة، وانتهت عبادتكم المحرمة، لكن محروس أمسك هيثم من يده مقاطعاً:

- توقف أنت! وراح يخاطب دنهش هازنا :

- طبعاً، نريد أن نكون تابعين لكم، فهذا أفضل بكثير من أن نموت محروقين! تفضل قل لنا ماهو المطلوب منا؟ ابتسم دنهش وهو يطالع ناصور بزهور، ثم راح يعزف بصوته بصلف وخيلاء، وهو يتراقص جذلان رقصة شيطانية مجنونة، على شكل دائرة، ويهز حربته بيده اليسرى، وكأنه يؤدي دوراً هزلياً في مسرحية كوميدية، وأنهى دورته ونطق :

- وهب أنفسكم لعمي أبو مرة، نعقد صفقة فوستية رابحة لكلا الطرفين، نحن وأنتم، سأمحكم الحرية، والنجاة علاوة على النفوذ، والمال والذهب، وتكونوا فوستيين؛ أي باللغة اللاتينية البشرية القديمة (محظوظون وميمونون) مثل فوست، وتحظون بما حظي به من الجاه، والمال، والنفوذ، والنجاح، رد عليه محروس:

- سننتشاور، ثم نقرر، هل بالإمكان أن تبتعدا قليلا أنت وهذا الأراجوز الذي خلفك؟! استشاط ناصور، وراحت يده تطول باتجاههم، وتتضخم لولا أن زجره دنهش، وشكلنا دائرة بلمح البصر، وتهامسنا لثلاث دقائق، وقد قررنا أمراً خطيراً، ثم استدرنا، ونحن نمضغ التمر العجوة، وكنا نحمل بأيدينا قناتي من ماء زمزم المبارك، وفجأة رج الكهف بالتكبير، وصدحنا بالأذان بقوة وحماس، واندفعنا نرش دنهش وناصر بالماء، وتفاجأ دنهش وناصر بالخدعة التي حصلت، فهم لم يتوقعوا أننا نخفي ماء زمزم الذي كنا نخبئه في علب بلاستيكية، عند بطوننا.. ألقينا بها من فتحة القميص العلوية، وكانت هذه خطة بديلة إضافية قد جعلناها للأخير، وحرصنا على إخفائها تحسباً لأي طارئ، قد يعيق خطتنا.. فالأعيب الجن، وحيلهم كثيرة؛ لذا تشاورنا كثيراً قبل أن نقدم ونجازف بهذه المغامرة؛ لاقتحام كهف الجن، وتسلاحنا بأكثر من حرز، وحصن من الشيطان، وجنده من الجن، ولأن الجن مخلوقين من نار السموم، فالماء المقروء عليه قرآن يحرقهم تماماً، وعندها أدرك دنهش أن قوته قد خذلته، وبدأ دنهش وناصر المطلخان بماء زمزم، يقذفان رغوة لزجة من فمهما، وهما يضعفان، ويذوبان، وعزيفهم المرعب يدوي بشكلٍ مخيفٍ جداً، ويتسلل وينساب في عمق المغارة، ويعكس صدى مزعجاً أدخل الخوف في قلب كل من يسمع!!! وكانا يشكلان فيما يبدو موجات مغناطيسية، عطلت أجهزة التسجيل!! عندها بدأت تلك الأجهزة تصدح بالذكر الحكيم، وكانت النيران تشتعل، وكنا نسمع عزيف الجن، وصراخهم، واستغاثاتهم، وقبل أن تتكلم معركتنا بالظفر، والنصر، وبقية الجن تهم بطلب الصفح، حدث أمر طارئ؛ جعلنا نتخشب وننظر لدنهش

ببلاهة، واقتلب نصرنا إلى هزيمة!! أو كاد عندما راح دنهش وناصر ينضيان عن جسدهم النار التي لم تكن سوى رداء ناريا سحرية عبارة عن خدعة، وبينما نحن في حالة ذهول تام وصدمة مدوية، كان لبيب أعلمنا بأمر الفقه، وأحفظنا للقرآن سرعان ما تنبه للخديعة الشيطانية الكبرى، واستعاد زمام اللحظة، وصاح:

- استمروا بقراءة القرآن، ارفعوا صوت المسجلات للأخير! ألا ترون أنها مازالت تصدح بالذكر، ولم تتوقف؟! وأنصار دنهش يطلبون الصفح والاستسلام، فمعنى هذا أن دنهش وناصر هُزِمَا، وأنهم أحرقا تماما، وإلى الأبد، وأن حرقهم ليس الحرق الذي نعرفه نحن، بمعنى أننا أحرقنا أبدانهم، بل هو بمعنى أننا أبطلنا خاصية شرورهم، وقدراتهم الخارقة على التلبس، والإيذاء، وبأنهم أصبحوا جنا ضعفاء، يغلبهم الطفل الصغير..

وراحت آيات الذكر الحكيم تتلى بخشوع، ودنهش وناصر يبكيان، ويتوسلان بأن نوقف المسجل، واستجبنا بعد أن أملينا عليهم شروطنا المشددة، ورضخوا لشروط الاستسلام، وفعلا استسلموا ولم يسلموا، وكنا على حذر شديد منهم، وطلبنا منهم أن ينفوا أنفسهم إلى بئر برهوت بحضرموت، وألا يؤذوا جنيا مسلما أو إنسيا، وأن يعيشوا بأمان إلى أن يلاقوا يومهم الذي يوعدون..

ثم انطلقنا مباشرة، واستأجرنا سيارة أجرة؛ حتى قرب البيت المهجور الذي يسكنه الجني العامر ضام، وطلبنا من سائق السيارة انتظارنا، وتغيرت ملامحه، عندما توقفنا أمام ذلك الدار الضخم القديم شبه المهدم، وراح يشتمنا مطالبا بإيجاره، وما أن قبضه حتى استدار بسيارته بعجل، وانطلق بقوة مخلفا وراءه موجة من الغبار، دخلنا المنزل الذي كان عبارة عن دار غرباء عتيقة، تقع بمنطقة مقطوعة على الخط الإسفلتي، ولكنها تبعد عن رصيفه مسافة مائتي متر، وتعود لتسعين عام مضت، وتتربع فوق مرج أخضر، دلفنا الدار، وشعرنا بوحشة، وبالفشعيرية التي كنا قد تخلصنا منها؛ فعاودت ترعشنا من جديد، لم نتأخر.. فالفشعيرية، وانتصاب شعر رؤوسنا؛ تدل على أننا في حضرة ضام الجني، سلمنا عليه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فظهر من غرفة مظلمة ورد مباشرة:

- وعلیکم السلام ورحمة الله وبركاته، قابلنا جنيا شديدا الشبه بالملك ابانوخ، ولكنه كان أكبر سنا كأنه أباه!! شرحنا له بإيجاز المهمة التي جئنا من أجلها، وطماننا بأنه سيتأكد من رحيل كافة الجن الكافر لبئر برهوت، كما أنه بشرنا بأنه بعد هذا الانتصار المدوي لن يتعرض لنا جن مطلقا، ما دمنا على الإيمان، والطهارة، وبينما كان وأعوانه يمخرون عباب السماء، كنا منتظرين، وعيوننا الخاوية عالقة بعيون الشارع المهجور الممتد في الصحراء المترامية على الخط السريع، والذي يعد طريقا قديمة شبه منسية، استبدلت بطريق جديد تسمى الستين أو الدائري..

ولا نكاد نستبشر بمقدم سيارة تلوح في أفق الشارع المنسي المخيف إلا و تضاعف من سرعتها، وتمرق من أمامنا بسرعة البرق، دون أن تستجيب لإشارتنا، ودون أن نعرف سببا لذلك، وفجأة شعرت بكيمياء الأرواح تدب في أعضائي، وبخيط بارد من الفشعيرية يلذعني، وبإيقاعات من الخوف تتصاعد في صدري، وتتدرج في قلبي، وتكبر ككرة الثلج، وهب لي

وأنا أستدير وألتفت للخلف ببطء، وأطالع الدار المسكون التي غادرها ضام، أنني لمحت ملامح  
معتمة غاضبة في جوف الدار، كأنها شبح الرجيم دنهش!!

تمت بحمد الله

فيسبوك: رستم عبدالله

إيميل: [rostom113@gmail.com](mailto:rostom113@gmail.com)